«شهادتي للتاريخ»

من مذكرات

مبارك عبده فضل

عن...... الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني

(حدتو)

الناشر
دار الثقافة الجديدة

لكن هذا الوضع تغير للأسوأ بعد معرفته بانضمامي للحركة المصرية للتحرر الوطني، كيف حدثت هذه المعرفة؟

في يوم ما كان يشرف على تنظيف المنزل فاكتشف وجود مجموعة من النشرات التي كانت تصدرها الحركة المصرية للتحرر الوطني، فأصيب بالانزعاج ونقل الأوراق إلى منزل أحد أقربائنا.

ثم بدأ استجوابي في حقيقة الانضمام إلى تنظيم شيوعي مصري ولما كنت معتداً بسلامة وجهة نظري وموقفي لم أشأ أن أكذب عليه وواجهته بالحقيقة التي كانت حلوة بالنسبة لي، بقدر ما كانت مرة بالنسبة له.

منذ ذلك اليوم بدأ الخلاف بيني وبين والدي، بسبب اصراري على الاستمرار في النشاط السياسي، وكان ذلك الخلاف يشكل نموذجا للخلاف بين الشباب الذي اندفع للعمل السياسي في تلك الفترة وأسرهم التي تتكون أساسا من عائلات فقيرة.

فيما سبق ذكرت صورة من فقر أسرتي، ولذا كانت أمنية والدي التي يرددها دائما هي أن أتخرج من الأزهر كأحد علمائه، وان أتولى الصرف عليه وعلى هذه الأسرة الفقيرة، وكان عملي السياسي يتجسد أمامه كالصخرة التي تتحطم عليها آماله..

ولم يكن موقف والدي نابعا من كراهية الفقراء وحب الأغنياء، بل نابعا من خوفه من اضطهاد الأغنياء، وإذ يقول " يا بني ما تؤمن به في مصلحة الفقراء فعلا، ولكن من يشترك في هذا العمل لابد ان يكون غنيا ".

كان يتوسل إلي ودموعه في عينيه، وأحيانا كان يبكي أمامي لأترك هذا الطريق الخطر في نظره، ولكني كنت أرفض دائما وقد حاول إقناعي بمحاولة تأليف جبهة واسعة من أقاربي للضغط علي وإقناعي، لكني كنت أزيد إصرارا على موقفي.

وعندما فشلت محاولاته لجأ إلى طريق آخر قد ينجح في جذب شاب مثلي، وهو الوعد بالزواج فقد حاول تزوبجى بإحدى بنات القرية التي تنتمي لعائلة

كانوا يعرفون هويتنا الشيوعية تماما. ويعرفون اننا مطاردون من البوليس السياسي، ويعرفون قبل هذا وذاك أن القبض علينا في منزلهم قد يلحق بهم بعض الأذى.

غادرنا المنزل صباح اليوم التالي، دون أن ينتابنا أي إحساس بخوف ساكني المنزل، فكررنا معاً المحاولة الاقتحامية في مساء نفس اليوم، طرقنا الباب عدة مرات، ثم طرقنا شبابيك الشقة وكانت بالدور الأرضي من العمارة دون جواب من أحد من سكان الشقة.

ونظرا لأن سيرنا في الشارع ليلاً يعرضنا للاعتقال، قررنا الاختفاء في مطبخ الشقة من الخلف إلى الصباح. وكان ظننا في البداية أن الطلبة ليسوا في الشقة.

وصلنا المطبخ، ونجحنا في فتح بابه المطل على المنور وبعد فترة اقترح "الجنيد" أن نحاول فتح باب المطبخ الموصل لحجرات الشقة، وأثناء المحاولة سمعنا صوت من يسأل من الداخل من أنتم؟

أجبنا، نحن .. وحددنا أسماءنا، وفتح السائل باب المطبخ. دخلنا الشقة ووجدنا نفس الطلاب، وأدركنا آنذاك أنهم يرتعبون خوفا، تثاقلنا عليهم ونمنا معهم فقد كان هذا أمرا أهون من الاعتقال إذا خرجنا إلى الشارع خوفا على كرامتنا الذاتية أو عطفا على مشاعر الخوف التي تنتاب هؤلاء الطلاب.

وقد تعلمت درسا لا أنساه منذ ذلك اليوم هو ألا أحمل الناس أكثر من طاقتهم حين التعامل معهم.

في تلك الفترة القصية من أيام الهرب، قمت باعادة تنظيم العمل في منطقة القاهرة التابعة " لحدتو"، وسد كافة الثغرات الناتجة عن حملات الاعتقال.

أما العمل الفكري والسياسي الذي قمت به، فكان صياغة مشروع تقرير سياسي طويل تناول بالتفصيل (مؤامرة حريق القاهرة) وموقف "حدتو" منها.

في هذا التقرير السياسي، حددت أطراف المؤامرة بأنها المخابرات البريطانية، وقوى الاستعمار والسراي، وركزت على مسئولية الملك فاروق في

إنجاح تلك المؤامرة، من خلال عملائه وبالذات "القلم للمخصوص" في وزارة الداخلية.

لم ير التقرير النور رغم اكتماله فقد ضبط معي في مساء يوم في منتصف فبراير ١٩٥٢.

كانت واقعة القبض عليَّ في حي القللي بالقاهرة، وكان لهذا الحي حنين خاص في قلبي، يعود ذلك الحنين إلى أنني عشت فترة طويلة من طفولتي في ذلك الحي، بعد أن غادرت قريتي النوبية " أرمنا " في عام ١٩٣٩،

في ذلك الحي، كانت تسكن مجموعة كبيرة من أبناء قريتي، وكان من ضمنهم خالاتي وأخوالي.

كانت أسرتي المكونة من أربعة أفراد، تسكن في غرفة واحدة فوق سطح أحد المنازل في ذلك الحي.

وكان أغلب سكان ذلك المنزل من المصريين ممن يعتنقون "المسيحية" ممن تربطهم علاقات محبة ومودة بباقي السكان من المسلمين.

كانت حياة أسرتنا في ذلك الحي بائسة، وللحق فان خالاتي وأخوالي كانوا يوفرون لي بعض ما أعاني من نقص في المأكل والمشرب والملبس، لقد كانوا عطوفين عليَّ، وبعض هذا العطف كان راجعا إلى أنني الأبن الوحيد في الأسرة الذي كان شغوفا بالتعليم ومصرا عليه، فخلال تلك الفترة كنت أحفظ القرآن لالتحق بالتعليم في الأزهر.

لم يكن القبض عليَّ في حي "القللي" من قبل البوليس السياسي نتيجة رقابة بوليسية أو معلومات تسربت للأمن من بعض الرفاق الذين كنت أقابلهم في تلك الفترة، إنما كان القبض مجرد صدفة بحتة، كما سيتضح فيما بعد.

تم حجزي بقسم الازبكية مساء ذلك اليوم بعد تفتيشي والعثور على "التقرير السياسي" الذي لم ير النور.

مشادة كلامية مع جمال العطيفي

في اليوم التالى للقبض علىَّ، تم عرضى على وكيل النيابة العسكرية آنذاك، بمبنى محكمة مصر بباب الخلق.

كان وكيل النيابة هو الأستاذ/ جمال العطيفى، وحين وجه إلىَّ أسئلة، رفضت الإجابة، تطبيقاً لموقف إتخذه الشيوعيون المصريون آنذاك بمقاطعة النيابة العسكرية، وطلبت عرضي على النيابة المدنية، وأبديت استعدادي للإجابة أمامها.

وقد أبرز الأستاذ/ العطيفي كل ما لديه من تهديدات لإجباري على الكلام، مما خلق نوعاً من الشجار الكلامي بيننا، ونتيجة يأسه قرر تحويلي إلى قاضى تحقيق جرائم الرأي وكانت أمامه قضية شيوعية سابقة لي.

كان قاضى تحقيق جرائم الرأي هو المستشار الأستاذ/ عباس بدر، وكان رجلاً فاضلاً وقانونياً ممتازاً بكل معاني الكلمة.

بمجرد جلوسي أمامه قال لي "يا مبارك ليس هناك مبرر للاستمرار في المقاطعة فأنت أمام تحقيق مدني ولست أمام نيابة عسكرية".

شعرت بالثقة، نتيجة المعركة التي خضتها أمام النيابة العسكرية والتي انتهت بانتصاري، بل وخلق هذا الانتصار نوعاً من الغرور المؤقت، فقد فكرت بمبادرة شخصية مني ودون أن أستأذن القيادة المركزية لحدتو في أن أعترف بحيازتي للتقرير السياسي المضبوط معي، تمهيداً للقيام بدفاع سياسي أمام المحكمة حين أقدم إليها كمتهم.

كان دافعي لهذا الموقف هو الرد على هجوم القوى الاستعمارية والرجعية على الشيوعيين المصريين واتهامهم بالمشاركة في حريق القاهرة دون سند أو دليل.

ولفرط حماسي كشاب لم أكن قادراً على التفريق بين الاعتراف بالتقرير المضبوط معي وبين القيام بالدفاع السياسي خلال إجراء المحاكمة، إذ كان من الممكن بل ومن السليم القيام بالدفاع السياسي دون الاعتراف بالتقرير المضبوط.

وقد أفادتني هذه التجربة حين قدمت للمحاكمة في قضية شيوعية في الستينيات، إذ قدمت دفاعاً سياسياً دون الاعتراف بعضوية "حدتو" أو الأوراق المضبوطة معي.

بعد الأسئلة التقليدية في التحقيق (الاسم السن الوظيفة) بادرني المستشار/ عباس بدر بالسؤال التالي: هل ضبط هذا التقرير معك؟ دون تباطؤ أجبت نعم، لم يسجل سكرتير التحقيق الإجابة، وكرر المستشار السؤال مرة ثانية، فكانت نفس الإجابة من ناحيتي، ومرة أخرى لم يسجل السكرتير الإجابة، إذ كان ينتظر في المرتين أمراً من المستشار بالتسجيل.

بعد لحظة من الوقت، عرض على المستشار التقرير المضبوط معي وقال لي بعبارة واضحة في دلالتها، أنظر جيداً هل هذه الأوراق أوراقك أنت؟

تمهلت قليلاً واختلست نظرة سريعة في الأوراق فاكتشفت أن بعض سطورها تمتد تحتها خطوط حمراء هي التي جرها الأستاذ/ جمال العطيفي مشيرة إلى تحميل الملك فاروق وأعوانه مسئولية حريق القاهرة.

حينئذ تأكدت أن في الأمر شيئاً خطيراً لم أدركه أثناء اجاباتي المتسرعة السابقة، فقلت فوراً للمستشار، هذه الأوراق ليست لي، وفي ثوان كانت أساريره قد انفرجت وعلت وجهه الابتسامة وأشار للسكرتير بتسجيل الإجابة.

تشجعت بموقف المستشار، وقبل أن أبدأ الاستمرار بالإجابة على سؤاله التالي، قلت في لغة قانونية تعلمتها من قراءاتي في كتب قوانين الإجراءات الجنائية أثناء فترات حبسي واعتقالي في فترات سابقة.

قلت للمستشار سجل لي في محضر التحقيق أنني أدفع ببطلان القبض والتفتيش.

اندهش المستشار باللغة القانونية الصادرة من طالب أزهري لا علاقة له بالقانون، وسألني لماذا تدفع ببطلان القبض والتفتيش؟

كانت إجابتي أن المكلفين بالقبض لم يكن معهم إذن قبض وتفتيش، وأنه كان مجرد صدفة بحتة.

بدأ المستشار بدعوة المخبرين بالبوليس السياسي اللذين قبضا عليَّ لتسجيل أقوالهما، وكانت المفاجأة السارة المذهلة في نفس الوقت أن إجاباتهما تركزت في نقاط جوهرية تؤيد بطلان القبض والتفتيش منها أن أمراً سابقاً لم يصدر لهما بالقبض علي في مكان وزمان معينين، وأنه كان مجرد صدفة بحتة، وانهما اقتنصا هذه الصدفة للقبض عليَّ لأنهما يعرفان أنني " شيوعي خطير" لابد من القبض عليه.

كانت هذه الشهادة الصادقة من المخبرين مناقضة تماماً للشهادة الكاذبة التي أدلى بها اللواء/ محمد إبراهيم إمام رئيس القلم السياسي آنذاك أمام المستشار، كما كانت مناقضة للتقرير الكتابي الذي عرضه اللواء على الأستاذ/ جمال العطيفى .

في التقرير والشهادة قال اللواء أن معلومات معينة وصلت للبوليس السياسي بأن المتهم "مبارك" سيتواجد في مكان معين في زمن محدد ومعه أوراق شيوعية خطية، وأنه كلف المخبرين بالقبض عليَّ بعد استصدار إذن القبض والتفتيش.

بعد أن انتهى اللواء من الإدلاء بشهادته الكاذبة طلبت من المستشار استدعاء من وقع إذن القبض والتفتيش لسؤاله في التحقيق.

في اليوم التالي جاء إلى التحقيق رجل ضخم، يميل للسمنة الشديدة، ويتكلم بوقار الرجل المسئول فقد كان نائب محافظة القاهرة، وحين سأله المستشار هل هناك دفاتر يسجل فيها أوامر القبض والتفتيش، كانت إجابته المفاجئة بالنفي، حينئذ ألقى المستشار عليه سؤالاً محدداً ومباشراً هو هل هناك احتمال أن يكون أمر القبض الخاص بي قد صدر بعد القبض، أجاب نائب المحافظ بمنتهى الصدق أن هذا الاحتمال وارد إذ أن هناك مئات أوامر القبض تصدر يومياً.

هنا اطمأن قلب القاضي المحقق وأصدر قراره بالإفراج عني دون كفالة، ومع هذا فان أمر الإفراج عني لم ينفذ، إذ قضيت عدداً من الأيام في المعتقل المؤقت بروض الفرج، ثم التحقت برفاقي في معتقل الهايكستب.

وقد استخلصت من واقعة التحقيق معي بعض الدروس، منها أن المناضل الشيوعي لابد أن يتثقف بالدراسة القانونية التي تؤهله لمواجهة رجال سلطات القبض والتحقيق، ومنها أن من الخطأ عدم إدراك الفروق بين رجال الأمن، فمنهم الصادق، ومنهم الكاذب، كما أن من الخطأ إلغاء التمايزات والصفات الشخصية لرجال التحقيق القضائي، وكانت هناك صورتان (جمال العطيفي والمستشار/ عباس بدر).

بضع شهور في معتقل الهايكستب:

قضيت عدة شهور في معتقل الهايكستب، ثم رحلت بعد ذلك إلى سجن مصر بناءً على طلبي، إذ كنت متهماً في عدة قضايا شيوعية، وفكرت في أن تكون أيام حبسي في سجن مصر مخصوماً من أي حكم بالسجن يصدر ضدي في هذه القضايا.

وخلال تلك الشهور القليلة في معتقل الهايكستب شاركت في بعض الحوارات السياسية التي دارت مع الشيوعيين في المنظمات الأخرى أساساً (الراية و د. ش)، كما شاركت في بعض الحوارات ذات الطابع التنظيمي التي دارت في صفوف القيادة المركزية لحدتو.

كانت الحوارات السياسية تدور حول عدد من القضايا السياسية، فبينما كانت "د. ش" تركز على اتهام " أحمد حسين " والحزب الاشتراكي بتدبير حريق القاهرة، كانت الراية تبرئ الحزب الاشتراكي من أية مساهمة ولو جزئية في عمليات الحريق، أما " حدتو " فكانت تركز اتهاماتها في الأساس ضد القوى الاستعمارية ومخابراتها والسراي ورجال القلم المخصوص.

وحين ظهرت أنباء عن احتمال إجراء انتخابات برلمانية جديدة دافعت "حدتو" عن موقفها في تأييد حزب الوفد في تلك الانتخابات دون أن يتعارض هذا مع تأييد المرشحين الشيوعيين في بعض الدوائر، بينما كانت " الراية " تروج لفكرة تأييد المرشح الذي يوافق على برنامجها الانتخابي دون اعتداد بالمظلة الحزبية التي ينتمي إليها المرشح، وكان هذا في الأساس موقفاً ضد حزب الوفد، بينما كان موقف "حدتو" نابعاً من شعاراته بعد حريق القاهرة، حيث تركزت تلك

الشعارات في إعادة البرلمان الوفدي والحكومة الوفدية، واستئناف الكفاح المسلح في القتال من جديد وإلغاء الحكم العرفي في البلاد.

ثورة يوليو ١٩٥٢

قامت ثورة يوليو ٥٢ وأنا محبوس في سجن مصر، وكان معي رفاق من مختلف المنظمات الشيوعية في مصر (حدتو-الراية-د. ش . م. ش. م) وكانت مواقفهم السياسية من الثورة تتحدد ـ وهذا طبيعي ـ بمواقف قياداتهم المركزية خارج السجن، من تأييد أو هجوم عليها.

وفي نفس الوقت كان معنا في سجن مصر (إبراهيم شكري) وكان يقضي فترة العقوبة في قضية صحفية، وكانت له علاقات جيدة وممتازة مع الشيوعيين المسجونين، في هذا المناخ فوجئنا ـ في السجن ـ بقيام الثورة، وقام رفاق حدتو- في السجن بتأييدها من خلال بيانات أرسلت للصحف، اتساقاً مع المنشور الحزبي الذي صدر في الخارج صبيحة قيام الثورة.

وكانت هناك لجنة تنسيق بين ممثلي المنظمات الشيوعية في سجن مصر كانت تهتم في البداية بتنسيق المواقف النضالية إزاء إدارة السجن، ولكنها تحولت بعد قيام الثورة إلى لجنة تهتم في الأساس بالإفراج عن الشيوعيين المسجونين، وتبنت صحف مصرية وبالذات جريدة الاشتراكي نشر بيانات هذه اللجنة، بحكم العلاقة التي كانت قد توطدت بين هؤلاء المسجونين وإبراهيم شكري وبعد صدور قانون العفو السياسي نشطت هذه اللجنة في عملها الإعلامي الموجه إلى خارج السجن بالمطالبة بتطبيق قانون العفو السياسي على الشيوعيين. إذ طبق القانون على الجميع ما عدا القضايا الشيوعية بحجة أنها جريمة اجتماعية وليست سياسية وأيدت المحكمة المختصة هذا الاستثناء من القانون.

أفرجت الثورة عن كل المعتقلين الشيوعيين ما عدا ١٤ أربعة عشر معتقلاً، احتفظت بهم في سجن الأجانب.

وكان هذا الاحتجاز عشوائياً، فلم يكونوا أخطر المعتقلين الشيوعيين بل كان هناك من هو أخطر منهم من الناحية السياسية في نظر البوليس السياسي والقسم المخصوص وأفرج عنه، وقد أثبتت الأيام بعد ذلك أن المجموعة المحتجزة

مجرد خميرة تشير إلى أن بعض الشيوعيين لم يفرج عنهم، وكان في هذا إرضاءً للأمريكان وللقوى الرجعية داخل الثورة وخارجها.

وكان استثناء القضايا الشيوعية من قانون العفو السياسي استمراراً لفكرة احتجاز ال ١٤ معتقلاً ويخدم نفس الأهداف.

عندما أغلق معتقل الهايكستب وتم نقل الـ ١٤ معتقلاً إلى سجن الأجانب، تقدمت بطلب للنظر في أمر حبسي بسجن مصر أمام غرفة المشورة، انعقدت الجلسة وتقرر الإفراج عني بكفالة عشرة جنيهات دفعتها في نفس اليوم.

خرجت من بوابة السجن السادسة مساء إلى مبنى المباحث العامة (الاسم الجديد للبوليس السياسي)، واستقر بي المقام في سجن الأجانب وأصبحت المعتقل رقم ١٥ ، وظللت معتقلاً ومسجوناً من فبراير ٥٢ حتى أغسطس أو ديسمبر ١٩٥٦، باستثناء فترة محدودة عشتها في الحرية في مايو ١٩٥٣ حينما هربت من معتقل روض الفرج مع ستة من الرفاق من أبناء حدتو، ولهذه العملية البطولية تفاصيل سأعود لها في صفحات قادمة.

وقد تزايد – على فترات – عدد المعتقلين الشيوعيين في سجن الأجانب بعد ذلك.

تحليل مواقف المنظمات الشيوعية المصرية من ثورة يوليو١٩٥٢

عندما قامت ثورة يوليو ٥٢ بادرت حدتو بتأييدها، بينما أدانتها وهاجمتها (الراية و د. ش).

منظمة الراية اعتبرتها انقلاباً فاشياً أمريكياً، بينما اعتبرتها د. ش ديكتاتورية عسكرية أمريكية.

ومن الواضح أنه ليس هناك فروق جوهرية بين الوضعين.

حدتو ناشدت الشعب بمساندة الثورة وتدعيمها أما منظمة الراية و د. ش فقد طالبتا الشعب بإسقاط الثورة والسلطة النابعة منها .

لقد أصدرت حدتو بيان التأييد بعد ساعات من نجاحها، وكانت على علم مسبق بقيامها ـ قبل ساعات ـ من خلال ضباطها الشيوعيين (أحمد حمروش وغيره).

والآن نطرح السؤال الجوهري وهو لماذا أيدت "حدتو" تلك الثورة، بينما هاجمتها المنظمات الماركسية المصرية الأخرى؟

بعد ما يقرب من أربعين عاماً على قيام تلك الثورة وبعد الإدراك والوعي الكاملين بنجاحاتها وإخفاقاتها يبدو ممكناً بل وضرورياً الإجابة على هذا السؤال بموضوعية كاملة، وخاصة بعد أن تبين صواب مواقف حدتو منها، وخطأ مواقف الآخرين من تلك الثورة.

يعود تأييد حدتو لثورة يوليو إلى مجموعة من العوامل والأسباب يمكن تلخيصها فيما يلي:-

أولاً: أن الحركة المصرية للتحرر الوطني (ح.م) ثم حدتو ــ فيما بعد ذلك ــ كامتداد لها، كانتا تمتلكان تقاليد ثورية، من ضمنها تقاليد العمل الثوري في الجيش، بل يمكن أن نقول باطمئنان شديد أنهما انفردتا بهذا التقليد منذ نشأت الحركة الشيوعية المصرية الوسطى قبيل وخلال الحرب العالمية الثانية .

كانت ح.م تعمل أساساً بين الفنيين الملتحقين بالجيش (ميكانيكيو الطيران) وكانت صلاتها بضباط الجيش ضعيفة في تلك المرحلة. وظل ميكانيكيو الطيران من أعضاء ح.م هم العصب الرئيسي لقسم الجيش في ح.م ثم حدتو بعد ذلك إلى أن اشتعلت حرب فلسطين في ٤٨ ودافع هؤلاء ــ علانية ــ عن سياسة "حدتو" المعادية لتلك الحرب مما أدى إلى نفيهم للواحات، ثم فصلهم من القوات المسلحة، واعتقالهم في معتقل الطور بعد ذلك.

في حدتو وبالذات بعد ١٩٥٠ توسع قسم الجيش الذي كان يضم الضباط الشيوعيين، وكان أحمد فؤاد (رئيس مجلس إدارة بنك مصر فيما بعد) هو المسئول عن قسم الجيش بصفته عضواً فى ل.م حدتو .

ثانياً: ومن خلال العمل الشيوعي المنظم داخل الجيش أدركت "حدتو" أهمية بناء تنظيم يجمع الضباط من مختلف الأيديولوجيات والعقائد والأفكار السياسية،

ويكون بمثابة فرع للجبهة الوطنية الديمقراطية داخل الجيش، ونتيجة هذا الإدراك الواعي استجابت حدتو لمبادرة جمال عبد الناصر بتشكيل تنظيم الضباط الأحرار.

ومن المعروف تاريخياً أن الضباط الشيوعيين من أعضاء حدتو لعبوا دوراً لا يستهان به في استكمال بناء تنظيم الضباط الأحرار، وامتد هذا الدور من المساهمة في بناء جهازه القيادي إلى صياغة برنامجه إلى اكتساب أعضاء جدد إلى صفوفه.

وفي هذا الإطار تمت عدة اتصالات ومقابلات بين جمال عبد الناصر وكل من أحمد فؤاد مسئول قسم الجيش في حدتو وسيد سليمان رفاعي المسئول السياسي لحدتو آنذاك.

ثالثاً: وقد توطد التعاون بين حدتو وتنظيم الضباط الأحرار في فترة الكفاح المسلح في القنال ضد جنود الاحتلال البريطاني بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ من خلال تسريب الأسلحة من مخازن الجيش إلى القوات الفدائية والقيام بعمليات التدريب في القتال للفدائيين.

وقامت حدتو وخاصة بعد حريق القاهرة بدعم مكثف لتنظيم الضباط الأحرار من خلال القيام بطبع بياناته في الجهاز الفني لحدتو، الذي كان يعمل عليه آنذاك (كمال الشلودي وملكون ملكونيان).

رابعاً: من خلال هذا التعاون المشترك، واللقاءات الشخصية بين جمال عبد الناصر وبعض قادة حدتو توثقت الصلة، وأصبح كل طرف يعرف الآخر معرفة معقولة تساعد على تكوين وجهة نظره، لذا لم يكن غريباً أو شاذاً أن تستشير قيادة تنظيم الضباط الأحرار، قيادة حدتو في ضرورة القيام بانقلاب عسكري في مارس ١٩٥٢ وكان رد حدتو أن هذا التاريخ غير موات على الإطلاق.

والثقة التي تولدت من خلال التعاون المشترك هي التي جعلت حدتو كإحدى القوى السياسية المصرية تعرف تاريخ قيام الثورة وذلك قبل الموعد المحدد بمدة معقولة.

غنية بالمقارنة بأسرتي، وتكفل بمصاريف زواجي وحياتي إلى أن أتخرج، ولم تحقق هذه المحاولة أيضا أية نتيجة.

ولجأ للأسلوب الأخير وهو طردي من المنزل عقابا على إصراري في السير في نفس الطريق بعد افتعال معركة لا مبرر لها بيني وبينه.

وعلى عكس موقف والدي مني، كانت والدتي كثيرة البكاء لبعدي عنها، وكانت تحاول دائما ان تراني وجها لوجه في منزل أقاربها من خلف ظهر أبي ودون ان يعلم هو بذلك، وكانت تبكي دائما وتتوسل لي ان أعود للمنزل، ورغم تمزق قلبي نتيجة بكائها كنت أرفض العودة للمنزل بما يعني ذلك من تخل عن الطريق السياسي الذي اخترته.

سنوات النضال الشيوعي

في الأزهر من ٤٥ ــ ١٩٤٨

في محضر النقاش الذي اجراه معي الدكتور رفعت السعيد وهو يستعد لاصدار كتابه (تاريخ التنظيمات اليسارية في مصر من ١٩٤٠ ــ ١٩٥٠) سجلت معلوماتي عن تاريخ الحركة الشيوعية المصرية في تلك الفترة، وبالذات عن الحركة المصرية للتحرر الوطني (ح.م) التي انضممت إليها في ١٩٤٥، وعن الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو).

وقد يكون هناك بعض التداخل في الأحداث بين ما جاء في محضر النقاش وهذه الصفحات. وخاصة في الفترة من ٤٨ ــ ١٩٥٠.

ومن أبرز الأحداث في حياتي عن تلك الفترة أنني ساهمت بنشاط في تدعيم (قسم الأزهر) بالحركة المصرية ثم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني بعد ذلك، كما ساهمت بنشاط في إنشاط (القسم النوبي) بالحركة المصرية ثم بالحركة الديمقراطية للتحرر الوطني مع الرفاق زكي مراد، ومحمد خليل قاسم، وتمسكت بعضويتي في حدتو أمام موجة الانقسامات التي إنطلقت في ١٩٤٨.

خامساً: وكانت قيادة حدتو أكثر إدراكاً وفهماً لدور الجيش المصري تاريخياً، من خلال دوره في تحركات الشعب المصري بعد الحرب العالمية الثانية، كما كانت حدتو تدرك الغليان الحادث في صفوف الجيش بعد حرب فلسطين، واستعداده للحركة ضد الاستعمار والقوى الرجعية بعد حريق القاهرة في يناير ١٩٥٢ .

لماذا هاجمت الراية و د. ش ثورة يوليو ؟

استعرضنا العوامل الخمسة التي ساعدت "حدتو" على اتخاذ موقف سليم من ثورة يوليو، ذلك الموقف الذى تجسد فى تأييدها معنا شدة الشعب بدعمها.

وكان من الصعب أن تتوفر لدى "حدتو" العوامل الخمسة لو أنها كانت جزءاً من التيار الإنتهازى فى الحركة الشيوعية المصرية مثل (الراية و د. ش).

"حدتو" كانت المكون الأساسى للتيار الثورى فى الحركة الشيوعية المصرية، لذا توفرت لديها العوامل الخمسة التى ساعدت على تحديد موقف ثورى سليم من ثورة يوليو ١٩٥٢.

وعلى العكس من ذلك فإن الراية و د. ش كانتا تفتقدان العوامل الخمسة، لأنهما جزء من التيار الإنتهازى فلم يكن لهذين التنظيمين عمل داخل الجيش سواء قبل إنتهاء الحرب العالمية الثانية أو بعدها، ونتيجة لإنعدام العمل المنظم داخل الجيش من قبلهما لم يحس هذا التيار الإنتهازى بأهمية تشكيل بناء حيوى داخله لإنعدام العمل المنظم ولفقدان الإحساس بالتيارات الوطنية داخل الجيش، لم يضع التنظيمان المشار اليهما أى أساس للتعاون بينهما وبين الضباط السياسيين.

فى ظل هذه العزلة الشديدة للتيار الإنتهازى عن الجيش، وهى إمتداد طبيعى لعزلتهم التاريخية عن الشعب كله لم يكن من الممكن أن يتخذ التيار الإنتهازى نفس الموقف السليم الذى إتخذه التيار الثورى (حدتو) ولذا هرب التيار الإنتهازى من أرض الواقع الحى إلى رفوف الكتب وصالونات المثقفين يستخرج نصاً من هنا وهناك يدين به مسألة الإنقلابات العسكرية دون إدراك أنه ليس هناك وجه شبه بين الجيش المصرى – كجيش بلد مستعمر – وبين جيش دولة

إستعمارية كإنجلترا وفرنسا، فى هذه الحالة قد يصدق النص الماركسي وقد يصبح واقعياً.

وها نحن نرى اليوم بعد مرور ما يقرب من أربعين عاماً أن ذلك النص الماركسي الذى إنتزعه الإنتهازيون لم يصدق فعلاً، بينما أثبت تحليل الواقع المصرى صدقه وثوريته.

كان منهج التيار الإنتهازى فى الحركة الشيوعية المصرية ــ دائماً ــ هو لوى عنق الواقع المصري ليتمشى مع فهمهم الجامد للنظرية، بينما كان منهج التيار الثوري "حدتو" هو إعتبار النظرية الماركسية اللينينية مرشداً للعمل، وفهم دور الثوريين على أنه الملاءمة بين الواقع والنظرية وليس لوى عنق الواقع ليتطابق مع النظرية.

دور عناصر "حدتو" فى إنجاح الثورة ليلة قيامها

ومما يكمل الصورة تماماً عن الموقف السليم والثوري الذى إتخذته "حدتو" من ثورة يوليو ١٩٥٢، أن رفاق حدتو من الضباط الشيوعيين لعبوا دوراً هاماً ليلة قيام الثورة، وهناك تفاصيل كثيرة، إستعرضتها الكتب التى أرخت للثورة، لكن تحضرنى واقعة محددة سمعتها، ويهمنى تسجيلها للتاريخ.

وتتلخص الواقعة فى أن المرحوم البكباشي (يوسف صديق) عضو "حدتو" كان مكلفاً بالتحرك مع قواته فى تلك الليلة، ولأمر ما ــ حدوث خطأ فى التبليغ ــ تحرك البكباشى قبل ساعة الصفر، وخلال تحركه المبكر، تمت عمليتان فى غاية الأهمية، لقيتا دوراً فى إنجاح الثورة

الأولى: إعتقال البكباشي يوسف صديق ــ وعلى مسئوليته الشخصية ــ لكل من قابله فى الطريق من قادة الجيش من رتبة اللواء فما فوق، باعتبارهم القادة اللذين خرجوا من منازلهم إلى وحداتهم العسكرية بعد أن تسرب نبأ الإنقلاب، وذلك للتحكم فى الوحدات وقمع الإنقلاب فى مهده.

الثانية: أنه إلتقى ــ فى الطريق ــ بجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، وأنهما ناقشاه فى التراجع باعتبار أن خبر الإنقلاب قد تسرب، وكان رده عليهما

أن التراجع خطأ ولن ينجى الثوار من العقاب الإنتقامى، وأن الموقف الأسلم هو الإستمرار، وأنه يتحمل شخصياً مسئولية هذا الاستمرار.

وفعلاً توجه إلى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة وإعتقل كبار الضباط، وبذا أنقذ الثورة من الفشل والهزيمة، بل وحقق لها الإنتصار، وأنقذ رقاب الثوار من الإعدام.

إن ما قام به البكباشي يوسف صديق تجسيد حي للشجاعة والجرأة تحسبان له، ولكن الأهم أنه إستخدم المنهج اللينيني ـ باعتباره عضواً فى "حدتو" ـ الذى يؤكد ما معناه "حتف العصاة فى التراجع ـ لا تلعبوا بالعصيان، وإذا بدأتموه فلا تتراجعوا، وعليكم الإستمرار فيه حتى النهاية".

....

كيف نقيم أعمال ثورة يوليو حتى يناير ١٩٥٣ ؟

كانت هذه الأعمال مزيجاً مختلفاً من إنجازات إيجابية وممارسات أخرى سلبية، وقد كان هذا أمراً طبيعياً من ثورة تقوم على قياداتها عناصر تنتمي للبرجوازية الوطنية والصغيرة فى الأساس، وهى عناصر "عسكرية" وليست مدنية، بكل ما تحملها العناصر العسكرية من سلبيات، وكان هذا طبيعياً من ثورة رائدة فى مجتمع مستعمر ومتخلف ولم تسبقها تجارب أخرى يمكن الاقتداء بايجابياتها والتخلي عن سلبياتها، وكان هذا طبيعياً من ثورة تقوم فى مناخ دولى ـ غير ملائم ـ الغلبة فيه للمعسكر الاستعماري والرأسمالي، وتعتبر فيه القوى الاشتراكية محاصرة، من ناحية، وضعيفة الإدراك لما يحدث فى مصر من تحولات هامة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.

إنجازات إيجابية لثورة يوليو

كانت هناك إنجازات إيجابية لثورة يوليو، تتلخص فى الافراج عن المعتقلين الشيوعيين وطرد الملك فاروق، وإصدار قانون الإصلاح الزراعي فى سبتمبر ٥٢ والسماح باصدار مجلة علنية للشيوعيين "حدتو" وكذلك إستئناف إصدار مجلة "الكاتب" الناطقة باسم حركة السلام المصرية.

هذه الإنجازات ـ رغم تفاوت أهميتها ـ إستحقت تأييد "حدتو" ومساندتها.

أما الراية و د. ش فكانتا تفسران بعض هذه الإنجـــازات تفسـيراً سـلبياً غريبـــاً بعيداً عن التحليل العلمي الموضوعي وبالتالى لم تلعبا دوراً فى تأييدها.

فطرد الملك فاروق ــ فى نظر هاتين المنظمتين ــ ليس إجراء ضد الملكية وتمهيداً للجمهورية، بل هو جزء من الصراع بين الإنجليز والأمريكان، باعتبار أن الإنجليز يساندون الملك فاروق، بينما الثورة تمثل الأمريكان ولـــذا تطـرد الملك.

وفى إعتقادي أن ثورية إجراء طرد الملك فاروق لا يقلل منها أن الثـــورة إحتفظت شكلاً بالأمير أحمد فؤاد الثانى نجل الملك فاروق ملكاً على مصر تحت وصاية لجنة ثلاثية لفترة من الزمن.

وقانون الإصلاح الزراعي إعتبرته "حدتو" إجراء موجهاً ضـــد العلاقـــات الانتاجية الاقطاعية فى الريف المصرى، أياً كانت الإنتقادات التى يمكن توجيهها إليه.

كانت "حدتو" بحكم علاقاتها بالريف المصري من خلال نشاطها المنظم بين الفلاحين، تحس بعمق الأثر الإيجابى للثورة فى الريـــف، مـــن خـــلال قـــانون الإصلاح الزراعى، كما كانت تحس بتطلعات الفلاحين من الثورة.

لذا كانت حريصة أن يقوم الزوار الأجانب من الشيوعيين بزيارة الريـــف المصرى، وفى هذا الإطار كانت زيارة الصحفى الفرنسى الشـيوعي (روجيـه فايان) لريف الدقهلية بصحبة عدد من كوادر حدتو (كمال عبد الحليم   طـــاهر البدرى ــ الفلاح أحمد سليم) ، وهى الزيارة التى إنتهت بالقبض عليهم جميعـاً وترحيلهم للقاهرة تحت الحراسة، والإفراج عنهم بعد ذلك.

أما منظمات التيار الإنتهازي فكانت تعتبره قانوناً على النمط الأمريكـــى لا يختلف فى قليل أو كثير عن الإجراءات التى إتخذها شاه إيران، والقصد منه كما كانوا يقولون هو تنمية طبقة برجوازية جديدة متعاونة مع الأمريكان.

الأمر الجوهرى ــ فى نظر هذه المنظمات ــ أنه لـــم يكـــن مقبـــولاً ولا مستساغا أن تقوم ثورة من خلال جيش، وبالتالى فكل الإنجازات الديمقراطية ــ أياً كانت نواقصها ــ لا يمكن أن تقوم بها ثورة جيش.

حدتو تتراجع وتهاجم الثورة :

أقدمت ثورة يوليو ٥٢ على مجموعة من التطورات الخطيرة منها إلغاء الدستور والأحزاب والمماطلة فى إجراء الإنتخابات البرلمانية.

وقد سبق هذه الإجراءات اللجوء إلى القمع العنيف فى مواجهة عمال كفر الدوار وصل إلى إعدام " خميس والبقرى " وإتساع حملة الإعتقالات للطلاب الوفديين والشيوعيين إثر تحركات هؤلاء الطلاب فى الجامعات.

أمام كل هذه الإجراءات قررت "حدتو" فى نهايات عام ١٩٥٢ مهاجمة الثورة وطالبت بإسقاطها صحيح أن "حدتو" لم تعدل عن تأييدها لخطوات طرد الملك فاروق وقانون الإصلاح الزراعى، ولكنها فى الواقع العملى وقفت فى خندق واحد مع "التيار الإنتهازى" فى الحركة الشيوعية المصرية.

وهنا يصبح ضرورياً دراسة العوامل التى أدت إلى تراجع "حدتو" عن موقفها السياسي من الثورة ؟

العوامل التى أدت للتراجع :

هناك مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية أدت إلى هذا التراجع ويمكن إيجازها فى :-

أولاً:- الخطوات والإجراءات التى إتخذتها الثورة فى معاداة صريحة للمناخ الديمقراطى الذى كان سائداً قبل الثورة - فى الفكر والممارسة - من حياة برلمانية وأحزاب ودستور ووطن بلا معتقلات إلا فى فترات من حكم وزارات الأقليات.

هذا المسلك المنافي للديمقراطية والحريات السياسية من قبل ثورة يوليو، جسد فى أذهان الرفاق فى القيادة المركزية لحدتو أن السلطة الجديدة تسير بخطوات سريعة نحو الديكتاتورية العسكرية.

وساعد على هذا الإعتقاد أن المناخ العام قبل الثورة كان الإيمان الشديد بالنظام الديمقراطى الليبرالى (البرلمان-الدستور-الأحزاب-حكم الأغلبية

الوفدية) وقد أثر هذا المناخ الديمقراطى على كافة القوى السياسية فى البلاد، باستثناء أحزاب الأقلية (السعدنيين - الدستوريين) إلى جانب بعض الجماعات السياسية ذات التوجهات الديكتاتورية (كالاخوان المسلمين والحزب الإشتراكى).

ولم يكن الشيوعيون المصريون خارج دائرة التأثر بهذا المناخ الديمقراطى الذى ترسخ فى البلاد كنتاج للكفاح الوطنى والديمقراطى العام وبشكل خاص بعد ثورة عرابى وثورة ١٩١٩ ، ولهذا تصور رفاق حدتو أن الأمر المنطقى هو أن يعود الجيش إلى ثكناته وأن يعاد البرلمان الوفدى ليمارس دوره وأن تعود حكومة الوفد التى أقالها الملك فاروق مساء ٢٦ يناير .

فى ظل المناخ الديمقراطى الذى كان سائداً قبل الثورة، أصبح ما أقدمت عليه ثورة يوليو صدمة قوية "لحدتو" وخاصة أن السلطة الجديدة للثورة سارت فى إتجاهين يتناقضان تماماً مع هذا المناخ الديمقراطى فمن ناحية كان الخوف الشديد من جانب السلطة الجديدة من الحركة الجماهيرية المنظمة وغير المنظمة مما دفعها إلى تقييد تلك الحركة بمختلف القيود وضربها بقوى الجيش والبوليس وقد وصل هذا الأمر إلى حد إعدام العمال.

ومن ناحية أخري كان لجوء السلطة الجديدة إلى هدم الأسس الراسخة للنظام الديمقراطى -كما كان مفهوماً وسائداً آنذاك.

وفى السلطة الجديدة للثورة لم تكن قادرة على مواجهة فكريات وممارسات المناخ الديمقراطى العام بشكل مباشر وسريع، ولذا لجأت إلى التحايل فى التمهيد لإجراءاتها، بالحديث عن تطهير الأحزاب وليس إلغائها، وإعادة تشكيل أحزاب بصورة جديدة، وليس هدم النظام الحزبي من أساسه.

ثانياً:- وكان العامل الثاني أن تجربة الإنقلابات العسكرية فى البلاد المستعمرة أو الشبه مستعمرة كانت تجربة جديدة، وبالتالى فرغم تأييد "حدتو" لثورة يوليو إلا أن هذا التأييد لم يكن عميقاً من الناحية الفكرية والسياسية.

كان التأييد نابعاً من إحساس مناضلين ثوريين لا يتصورون أن من قاموا بالثورة عملاء لأمريكا وخاصة أنه كانت هناك علاقات تعاون ونضال مشترك لفترة طويلة.

لو سبقت تجربة مصر تجربة أخرى فى بلد يشابه أوضاع بلادنا، لكان فى إمكان "حدتو" أن تتحصن بهذه التجربة وتستفيد منها.

لو كانت هناك تجربة ناضجة فى التعامل مع الإنقلابات أو الثورات العسكرية، لكان فى إمكاننا أن نتصور أن ما جرى فى الساحة السياسية المصرية من إلغاء للدستور والأحزاب وتعطيل للحياة البرلمانية وفتح للمعتقلات يمكن أن يكون من فعل قادة وطنيين، لا يخدش وطنيتهم عداء لهذا الشكل أو ذاك من أشكال الديمقراطية وخاصة أن هذا العداء كان صادراً من قادة يتصفون بصفتين سلبيتين هما أنهم من أبناء برجوازية وطنية وصغيرة، وتربوا فى نفس الوقت فى مدرسة عسكرية تقدس الأوامر العسكرية وتحتقر الحركة الجماهيرية وممارساتها.

ولاشك أن ثورة يوليو ٥٢، بتجاربها وممارساتها، بنجاحاتها وإخفاقاتها، وأخطائها، قد أفادت تماماً الحركة الثورية فى بلادنا بل وفى بلاد أخرى.

ثالثاً:- كان المناخ العام فى الحركة الشيوعية العالمية والعربية، وفى الحركة الديمقراطية العالمية التى نتأثر بها معادياً للإنقلابات العسكرية آنذاك.

تغذى هذا العداء للإنقلابات العسكرية، إما تأثراً بقراءات نظرية، أو بحكم معطيات بعض التجارب الجزئية والمحدودة التى لا يمكن إستنباط أحكام عامة منها صالحة للتطبيق فى العالم كله، كتجربة إنقلاب الشيشكلى وحسنى الزعيم فى سوريا، أو ما يقال عن تجربة إنقلاب عسكري فى بولندا.

فى هذا المناخ المعادي للإنقلابات والثورات العسكرية إتخذت الحركة الشيوعية العالمية بدءاً من الإتحاد السوفيتى وإنتهاء بالأحزاب الشيوعية العربية موقفاً معادياً لثورة ٢٣ يوليو منذ البداية.

وحتى المنظمات الديمقراطية العالمية كاتحاد النقابات العالمى إتخذت نفس الموقف، الحزب الوحيد الذى وقف إلى جانب "حدتو" فى تأييد ثورة يوليو كان هو الحزب الشيوعي السودانى الشقيق بحكم إدراكه أكثر من غيره لظروف الواقع المصرى ، وقريباً من هذا الموقف كان موقف الحزب الشيوعي الإيطالى فقد طالب الرفيق (بالميروتوليتى) السكرتير العام للحزب آنذاك بالتريث وعدم التسرع فى الإدانة، طالما أن الشيوعيين المصريين "حدتو" يؤيدون تلك الثورة.

ووصل التشنج فى بعض الأحزاب الشيوعية العالمية أن بعض الرفاق من أعضائها كانوا يفدون إلى مصر وبحكم المشاهدة للواقع ومناقشة "حدتو" كانوا يعودون إلى بلادهم فى حالة إقتناع بموقف حدتو من الثورة، ثم يجدون فى بلادهم موقفاً صعباً يجبرهم على نقد أنفسهم نقداً ذاتياً على قناعاتهم المتسرعة، حدث هذا "لإدريس كوكس" فى إنجلترا ، و "روجيه فيان" فى فرنسا .

رابعاً:- ومن العوامل تلك الحملة الشديدة التى كانت تشنها المنظمات الماركسية الأخرى ضد "حدتو" وموقفها السياسى من ثورة يوليو.

وقد إستقوت تلك المنظمات الماركسية من التأييد العالمى لموقفها الخاطئ، وإستفادت من الإجراءات الغير ديمقراطية التى إتخذتها ثورة يوليو، وفى هذا المضمار لم تكتف تلك المنظمات الماركسية بالعداء الفكرى والسياسي "لحدتو" فحسب، بل نسجت أقاصيص من خيالها مثل أن "جمال عبد الناصر" كان عضواً فى "حدتو" وأن إسمه الحركى كان "موريس" ومنها أن "حدتو" دعت عمال كفر الدوار إلى تأييد إعدام (خميس والبقري)، مع أن العكس تماماً هو الذى حدث.

....

ولا شك أن العوامل الأربعة التى أشرنا أثرت بدرجة أو أخرى على مواقف الرفاق فى حدتو ، سواء من القيادة المركزية أو الهيئات القاعدية ، مما دفع بهم دفعاً إلى التراجع عن الموقف الذى إتخذوه فى البداية .

لقد تراجعوا عن موقف التأييد، وإنتقلوا إلى موقف المطالبة بالإسقاط. لقد أحس رفاق حدتو آنذاك ــ بحكم العوامل الأربعة التى أشرنا إليها ــ (بأنهم وحدهم معزولون فى الميدان)، وكما نعرف فان الإحساس بالعزلة داء قاتل.

....

تطورات يناير ١٩٥٣

إتسمت تلك التطورات باتساع حملة الإعتقالات والسجن من قبل السلطة الجديدة.

فعدد المعتقلين فى سجن الأجانب الـ ١٤ معتقلاً ، كان يــتزايد تدريجيــاً، وفى يناير ٥٣ شنت سلطة يوليو حملة ضخمة إستهدفت الشـــيوعيين وبعــض الوفديين وأنصار السلام وشملت الحملة حتى بعــض العنــاصر التــى كــانت تتعــاون مع القوات الإنجليزية ــ كجواسيس ــ فى منطقة القنال ، وتم إعــدام بعضهم بعد ذلك ، وكان من أشهرهم (صبرى كنج).

تم تجميع المعتقلين فى معسكر للهجانة بعين شمس، لعدة ساعات، ثم رحلوا جميعاً للسويس، حيث أبحرت بهم الطرادة أو المدمرة (ابراهيــم) إلــى معتقــل الطور، وكان ترحيل مواطنين مصريين مدنيين بــهذه الطريقــة محــل أســى وإستهجان طاقم السفينة العسكرية التى إستدعيت من عرض البحر للقيام بمهمــة عاجلة إذ تصور الطاقم العسكرى أنه سيدخل فى معركة عسكرية مع الإنجليز أو إسرائيل، وإذا به يفاجئ بأنه ينقل مجموعة من المصريين المعتقلين إلى الطور.

وما حدث فى ذلك اليوم أصبح أمراً معتاداً فى ممارسات ســـلطة يوليــو، فالسجون الحربية أصبحت مفتوحة لإستقبال المدنيين وتعذيبـــهم، والمخــابرات الحربية والعامة أصبحت أماكن لإستجواب المدنيين، ورجال المباحث العســكرية الجنائية والشرطة العسكرية يقومون بعمليــات القبــض والإعتقــال والمحــاكم العسكرية المشكلة من الضباط تقوم بمحاكمة المدنيين ، باختصار شــديد إتســع نطاق إستخدام الجيش ومؤسساته العسكرية فى عمليات الإرهاب التى بدأت فــى الإتساع منذ يناير ١٩٥٣.

معاملة حسنة فى معتقل الطور

كنت من ضمن المعتقلين الذين رحلوا إلى معتقــل الطــور علــى ظــهر الطــراده (ابراهيم)، وحين تيقنت أننا ذاهبون إلى معتقل الطور، تخيلت حالتنــا البائسة، كمعتقلين فى الطور عام ١٩٤٨، وتصورت أننا سنواجه نفس الحالــة، ولكن الحالة فى ١٩٥٣ كانت مختلفة تماماً ، وعموماً فان المعاملــة للمعتقليــن كانت حسنة إلى درجة بعيدة.

وأصبحت أسأل نفسى هل سبب المعاملة الحسنة أن معنــا أشــخاص ذوى سمعة قومية، كيوسف الشريف عضو البرلمان الوفدى سابقاً أو كامل القــاويش الذى قام بالتحقيق مع الزعيم (أحمد حسين) بعد حريق القاهرة.

وإستقر بى التفكير إلى أن السبب الحقيقي وراء هذه المعاملة الحسنة هو أن حملة الإعتقال الحالية هى أول وأكبر حملة تقوم بها سلطة يوليو ، وبالتالى فهى لم تكتسب بعد تجربة المعاملة الرديئة للمعتقلين والمسجونين ومظاهر المعاملة الحسنة كانت عديدة ، فالإقامة كانت فى "عنبر الطيران" وهو العنبر المخصص لكبار الحجاج فى موسم الحج، اللذين يذهبون للحج ويعودون منه بالطائرات، وليس بالبواخر كبقية الحجاج الفقراء وكان كل إثنين أو ثلاثة من المعتقلين يسكنون غرفة واحدة نظيفة جداً بها أسرة وبقية مستلزمات الغرفة من دواليب ألخ ، كانت الغرف والعنبر كله مفتوحاً طوال الليل والنهار، وكان فى الإمكان أن يذهب أعداد من المعتقلين إلى البحر يومياً، يمارسون السباحة وصيد السمك ويعودون آخر النهار إلى العنبر بمحض إختيارهم، كما كانت هناك مستشفى وهيئة طبية وتمريضية لعلاج هؤلاء المعتقلين، وقوة الحراسة لم تكن ضخمة، فالهرب من هذه المنطقة شبه مستحيل ، وكان هناك مطعم مخصص للمعتقلين يقوم على الخدمة فيه "طباخون وسفرجية" يتقاضون مرتباتهم من "متعهد الطعام"، وكانت أدوات الموائد من ملاعق وشوك وسكاكين وأطباق كاملة.

وفى البداية كان تجهيز الأكل رديئاً، وقمنا بتحسينه من خلال لجنة تشكلت من المعتقلين لإستلام مواد الأكل وتجهيزها.

كان الشيوعيون المعتقلون وأغلبهم من حدتو - ينظمون دراسات وحلقات ثقافية وفكرية للرفاق وإلى جانب ذلك كان بعضهم يقوم بتدريس القراءة والكتابة واللغات والمواد العلمية لمن يحتاج إليها ومن المعروف أن الإستفادة الكاملة ثقافياً وسياسياً من فترات الإعتقال والسجن تقليد أصيل زرعه الشيوعيون المصريون.

وفى هذا المعتقل نمت العلاقات وتطورت بين رفاق حدتو ورجال حزب الوفد وبشكل خاص مع المهندس الوفدى "حنفى الشريف" ، الذى لعب دوراً هاماً فى إقامة الجبهة الوطنية الديمقراطية بين حدتو وحزب الوفد.

....

الفصل من الأزهر عام ١٩٤٨

فصلت من الأزهر عام ١٩٤٨ وكنت آنذاك في الثانوية الأزهرية بمعهد القاهرة الديني بالدراسة.

وكانت التهمة التي فصلت بسببها أنني " شيوعي " أما السبب المباشر للفصل أنني قاومت الترتيبات التي كانت تعد من إدارة الأزهر لاخراج مظاهرة طلابية أزهرية لتحية الملك فاروق في عيد ميلاده أو جلوسه.

وقد بذلت بالتعاون التام مع عناصر " حدتو " في المعهد وكنت مسئولا سياسيا عنهم، مع التحالف مع الطلبة الوفديين جهدا كبيرا للحيلولة دون خروج تلك المظاهرة طبقا للخطة الموضوعة من الإدارة ووصل نجاحنا إلى ان الطلبة لم يغادروا فناء المعهد، رغم ان الإدارة رفعت علم الأزهر ليكون في مقدمة المظاهرة، ورغم ان مدرسي المعهد وكان من ضمنهم الشيخ أحمد حسن الباقوري اصطفوا في مقدمة المظاهرة.

الفشل في إخراج المظاهرة كان صدمة للسراي ولإدارة الأزهر، وكانت تعدها فرصة مهمة للرد عى مظاهرات الطلاب في الجامعة والمدارس الثانوية ضد الملك فاروق.

بعد هذا النجاح بيومين، فصلت من الأزهر دون تحقيق أو مسائلة.

إضراب ٢١ فبراير ١٩٤٨:

رغم فصلي من الأزهر، ورغم الأوامر المشددة بمنع دخولي مبنى المعهد الديني بالقاهرة نجحت في أن أتسلل إلى فناء المعهد ٢١ فبراير وأن القي خطبة وطنية في تلك المناسبة وأن اقنع الطلبة بالخروج في مظاهرة وطنية.

ألقى القبض علي لهذا السبب وقدمت للنيابة وحبست على ذمة هذه القضية أربعة أيام، وكان هذا بداية تاريخي مع المعتقلات والسجون في ظل الملك فاروق؛ ثم في ظل ثورة ٢٣ يوليو والسادات ثم حكم على، فيما بعد بثلاثة أشهر

هروب سبعة رفاق من معتقل روض الفرج

كانت مدة إحتجازى بمعتقل الطور قصيرة جداً ، إذ فوجئت بترحيلى إلى معتقل روض الفرج، كان ذلك بسبب إستدعائى إلى حضور جلسة التظلم أمام المحكمة عن عدم تطبيق قانون العفو السياسى على قضية شيوعية كنت متهماً فيها، وقد رفضت المحكمة تظلمى وتظلم الكثير من الشيوعيين المصريين باعتبار أن القضايا الشيوعية جريمة إجتماعية وليست جريمة سياسية ينطبق عليها قانون العفو السياسى الذى أصدرته ثورة يوليو.

كان فى معتقل روض الفرج أثناء ترحيلى إليه مجموعة من الرفاق الشيوعيين ينتمون إلى حدتو ــ الراية ــ د. ش ومنظمات أخرى ، وكان فى المعتقل فى نفس الفترة الأمير "عباس حليم" الذى كان يحاكم آنذاك فى قضية الأسلحة الفاسدة ، وكان فى المعتقل مجموعة مصرية متهمة بالتجسس لحساب الإنجليز.

لم أكن أحلم بتطبيق قانون العفو السياسى على قضية الشيوعية الخاصة بى، وكنت أتوقع أن تكون فترة إقامتى بمعتقل روض الفرج قصيرة جداً ، إذ كان من المحتمل أن أرحل إلى معتقل آخر أكثر دواماً وإستقراراً ، ولذا فكرت جدياً فى أن أحقق خلال الفترة القصيرة لإقامتى هدفين ، **الأول:** تحقيق نوع من التراسل مع الرفاق المركزيين الطلقاء **الثاني:** أن أحقق مشروع هربى مع بعض الرفاق من المعتقل .

....

كان التراسل مع الرفاق المركزيين الطلقاء من قبضة البوليس يكتسب أهمية كبيرة فى تلك الفترة ، فلأول مرة كان هناك عدد كبير من الرفاق المركزيين خارج المعتقلات، يقومون بدورهم فى قيادة العمل الحزبى ، فقد كان من هؤلاء الرفاق (سيد رفاعى ــ زكى مراد ــ كمال عبد الحليم ــ أحمد الرفاعى ــ سيد ترك ــ يوسف مصطفى) وكان من الضرورى التشاور مع هؤلاء الرفاق فى شئون "حدتو" السياسية والتنظيمية .

وقد شكلت عملية التراسل هذه، قضية شيوعية ، فيما بعد، إذ كان "العسكرى" الذى يحمل الرسائل، متعاوناً مع المباحث العامة، وقد اعتبرت تحقيق الهروب من المعتقل، عملية نضالية ، تساعد على إلحاق كوكبة من المناضلين المعتقلين إلى الرفاق المناضلين فى أرض الوطن.

كنت أفكر فى عملية الهرب بحماس شديد ، ولكن مما أثار حماسى بشكل أكبر حادثة هرب (جمال غالى- عضو حدتو) وهو فى طريقه إلى معتقل روض الفرج ، وهرب معه (عبد الستار الطويلة) وكان عضواً فى د . ش .

إعتمدت فى تنفيذ عملية الهرب مع شلة من الرفاق على التنسيق الكامل مع الرفاق المركزيين فى الخارج ، والإستفادة من الإمكانيات المتوفرة لدى بعض الرفاق من أعضاء حدتو وكذلك (المعتقلين الآخرين ـ من غير الشيوعيين ـ إلى جانب إتباع معايشة مرنة هادئة وسليمة فى التعامل مع إدارة المعتقل.

المجموعة الشيوعية الوحيدة التى قررت الهرب من المعتقل هى المجموعة المنتمية "لحدتو" ، وكان هذا تعبيراً عن موقف نضالى ولم يكن بقصد الراحة والهدوء خارج المعتقل .

حدث هذا بينما كانت هناك مجموعات شيوعية أخرى ، بل وقادة فى بعض هذه المجموعات أذكر منهم (سعد زهران) أحد زعماء الراية .

ومن الرفاق الذين قدموا خدمات جليلة فى تنفيذ خطة الهرب كان الرفيق (صبحى زغلول) المحامى ، لقد رفض الهروب معنا، لأسباب شخصية تتعلق به، ومع هذا كان يقوم بنقل رسائل خطة الهرب للرفاق المركزيين فى الخارج بواسطة زوجته السيدة/حكمت الغزالى، وكانت رسائل شفوية خوف وقوعها فى يد الأمن فى حالة تفتيش دقيق، أما الرفاق المركزيون الذين لعبوا دوراً فى تسهيل مهمته فكانوا كثيرين ، لكن أبرزهم كان (سيد ترك) باعتباره يجيد قيادة السيارات التى لها أهمية خاصة فى مثل هذه الأمور ، وللحق فان (سيد ترك) كان يمتلك جرأة وشجاعة نادرة فى تنفيذ مثل هذه المهام ، أقول ذلك رغماً أن موقع (سيد ترك) وظروفه قد تغيرت الآن وقد أوكلت التفكير فى تذليل المصاعب الفنية للهرب للرفيقين (حليم طوسون والمرحوم الشهيد صابر زايد)، نظراً لمهارتهما الخاصة فى تذليل هذه المصاعب، كنت أنصت إليهما بشدة وهما

يشرحان لى الاقتراحات الفنية المختلفة المتعلقة بالهرب ، وعلى عاتقهما وقع جزء هام من تنفيذ الخطة .

وفى مرحلة إعداد الخطة ، إتضح لنا نحن الثلاثة أن الحصول على "منشار ومفك" ضرورى لتنفيذ الخطة، وكان من الصعب إدخالهما من الخارج عن طريق (صبحى زغلول) لأنه معرض للتفتيش عند بوابة المعتقل.

بعد تفكير طويل، قررت مفاتحة الأمير (عباس حليم) فى الأمر ، إتخذت القرار على مسئوليتى الشخصية والسياسية ودون التشاور مع أى أحد فى داخل المعتقل أو خارجه ، إخترت الأمير (عباس حليم) لأنه الوحيد الذى لا يتعرض للتفتيش، بل ووصل الإحترام له من إدارة المعتقل إلى حد تقبيل يده من قومندان وطاقم الإدارة.

لجأت إلى هذا الحل ، فقد إكتشفت من خلال المعايشة اليومية أن "الأمير" يمتلك قدراً عالياً من الشهامة والشجاعة ، وأنه لن يفشى السر حتى فى حالة إعتذاره ، وسعياً للإستفادة من أية أمكانية متاحة ، قررت مفاتحته وقلت لنفسى وما الضرر حتى لو إعتذر ؛

..... لم يخب ظنى فى "الأمير" فقد وافق دون تردد على إحضار "المفك والمنشار" حين فاتحته بنيتى فى الهرب ؟

وفى "الأمير" بوعده ـــ بعد أيام ـــ وأحضر المطلوب وإحتفظ بالسر حتى مات ، وهاأنذا أذيعه ـــ إنصافاً للتاريخ ـــ بعد موته .

كان قومندان المعتقل برتبة بكباشى وكان يدعى (محمد صالح) كان إنساناً طيباً ، لكنه كان عصبى المزاج ، ومتوتراً دائماً فقد كانت زوجته مريضة بالسرطان وتعانى آلاماً شديدة ، كنت أواسيه دائماً ، وأتجالس معه بعض الوقت، ومن خلال ذلك توطدت علاقتنا.

طلبت منه تجميع ٧ رفاق فى غرفة واحدة، وهى الغرفة التى كانت ملائمة لتنفيذ خطة الهرب من خلالها، وقد كانت تستعمل كمخزن للمعتقل.

وحينما سألنى القومندان ولماذا هؤلاء السبعة بالذات ؟ قلت له أنهم يـودون مواصلة المذاكرة للدخول فى الامتحانات طمعاً فى الحصـول علـى شـهادات دراسية.

وافق القومندان دون تدقيق فى الأمر، ولو تحرى الأمر لكان فى إمكانـه أن يكتشف أن بعض الرفاق من هؤلاء السبعة من كبار السن، ومن عمال النسيج أى فاتهم قطار التعليم (فكرى الخولى- الشهيد صابر زايد).

قبل ليلة الصفر بمدة كبيرة تجمعنا نحـن السـبعة فـى غرفتنـا الجديـدة وواصلنـا فيها حياتنا العادية.

ليلة الصفر:

بعد مراجعة تفاصيل الخطة الفنية للهرب مع الزميلين (حليـم طوسـون ـ وصابر زايد)، أبلغت الزملاء المركزيين فى الخارج، بموعد انتظارنا بـالقرب من معتقل روض الفرج، بعد أن حددت ليلة الصفر سارت أمورنا عادية فى تلك الليلة كالمعتاد، نفس المزاح مع الحرس، والسهر معهم على دفء كبايات الشاى وما تتخللها من مأكولات بسيطة، وفى الساعة المحددة للنوم، دخلنا جميعاً نحـن الرفاق السبعة غرفتنا المخصصة للهرب، بعد أن أغلقنا الباب من الداخل، وقـد كان هذا شيئاً معتاداً منذ أن انتقلنا إلى تلك الغرفة، كان رئيس القـوة المكلفـة بحراسة الغرفة يدعى عم (حمدى) وكان انساناً طيباً ودمث الأخلاق فى نفـس الوقت ، ولا أذكر أننى حزنت على شىء فى عملية هربى وهرب الزملاء الستة قدر حزنى الشديد عليه فقد عرفت ــ فيما بعد ــ أنه سجن سـتة أشـهر بعد محاكمة عسكرية.

بعد إغلاق باب الغرفة من الداخل، شرعنا فى إزالة النافذة الحديدية، وكانت محشورة حشراً فظيعاً من أركانها المختلفة، وإستغرقت الإزالة مدة كبيرة مـن الزمن لم نكن نتوقعها، فى نفس الوقت كانت هناك مجموعة أخرى من الرفـاق السبعة مسئولة بعمل الكوبرى الذى سنعبر عليه من غرفتنا للمبنى الذى أمامنا.

كان الكوبرى عبارة عن سرير إيديال، مربوط ومتصل بجـزء إضـافى، وعليه مرتبة قطن للعبور.

المبنى الذى أمام غرفتنا كان مكوناً من دور أرضى ويفصل بينه وبين غرفتنا "منور" ، وقد عبرنا إلى سطح المبنى بمد الكوبرى الذى صنعناه فى غرفة الهرب، كانت المشكلة التى فكرنا فيها قبل الهرب، هى كيف نقفز من سطح المبنى إلى الشارع مباشرة دون أن نمر بسلم المبنى، حيث إعتاد الناس فى مثل هذه الأحياء إغلاق باب المبنى من الداخل بشكل محكم خوف السرقات.

فى الجانب المطل على الشارع من سطح المنزل، كانت هناك أجزاء من (مراين خشب) بارزة، وقد علقنا عليها حبال طويلة صنعناها من ملايات السرير، لإستخدامها فى الهبوط على أرض الشارع.

حوالى الساعة الخامسة صباحاً تم الهرب وكان ذلك فى شهر مايو ٥٣ ، وكان الناس نياماً، وعلى بعد ٣٠٠ متر تقريباً كانت تنتظرنا السيارة وعليها سائقها (سيد ترك).

كان الهاربون الستة معى هم الرفاق (أسعد حليم ــ سعد عبد اللطيف ــ ضياء بدر ــ حليم طوسون ــ فكرى الخولى ــ صابر زايد).

تنسمت هواء الحرية:

كانت هناك فجوة وقت لا تعدو دقائق عشرة، بين هرب الرفاق الستة وهربى، إذ كنت آخر من يغادر غرفة الهرب ، كنت حريصاً باعتبارى المسئول الحزبى عن المجموعة الهاربة ــ أن أكون آخر من يغادر غرفة الهرب، إذ يتيح لى ذلك الإطمئنان على سلامة إجتيازهم منطقة الخطر.

عبرت الكوبرى، وإجتزت سطح المنزل، وقبضت بيدى على ذلك الحبل الموصل بين السطح والأرض، وفجأة إرتطمت بأرض الشارع، ومع صوت الإرتطام سمعت إمرأة تفتح نوافذ شقتها وتسأل من أنت ؟

فى ثوان قلائل، إكتشفت أن الحبل الذى قفز به الرفاق قد تمزق تماماً، متأثراً بالأوزان الثقيلة لبعضهم، وفى نفس الوقت قررت ألا أجيب المرأة التى تسأل عن هوية ذلك الرجل الذى إرتطم بالأرض.

تحاملت على نفسى، وسرت على قدمى، ينتابنى شعور بالفرح لأننى أستنشق نسيم الحرية لأول مرة منذ مدة طويلة، من خلال محاولة بطولية

وجسورة، وينتابنى القلق على من تركتهم ورائى فى قبضة السجان، وكنت أتساءل ماذا سيحدث لهم بعد أن هربنا نحن السبعة ؟

وصلت إلى مكان إنتظار السيارة المخصصة للهاربين، فلم أجدها ولم أجدهم، وتيقنت أنها غادرت المكان بهم، بعد أن أصابهم القلق، نتيجة تأخرى عنهم بضع دقائق.

لم أحزن لتصرف الرفاق، فالحذر واجب، والحيطة ضرورية، فمن يدرى ؟ ألم يكن من المحتمل أن أضرب بالرصاص وأنا اجتاز سطح المنزل إذا إستيقظ حارس أو أن يتكاثر علىَّ عساكر البوليس، حين سألتنى المرأة من أنت ؟

كان ألم رجلى اليمنى يتزايد علىَّ، إستنجدت بتاكسى، ووصلت إلى بر الأمان، فى منزل أحد الأصدقاء النوبيين بحى "بولاق".

يوم هربنا ـــ نحن السبعة ـــ كان يوماً صعباً على سلطة يوليو، وخاصة أن وزير الداخلية فى تلك الفترة كان (جمال عبد الناصر)، وقد إصطف طاقم إدارة المعتقل والحراسة فى طابور ذنب جزءاً كبيراً من يوم الهرب.

ومن جانب آخر، عاش المعتقلون الشيوعيون يوماً قلقاً، يتساءلون ماذا سيحدث لهم ؟

إنسان واحد كان يعيش جواً من السعادة والفرح والفخر هو "الأمير عباس حليم" فقد كان سعيداً وفخوراً بما قدمه للهاربين السبعة من مساعدة ضخمة.

وفى هذا الجو أطلق نكتة من نكاته، سمعتها فيما بعد كان يتجول فى المعتقل فرأى مجموعة من الحرس تقف عند النافذة التى هربنا منها والكوبرى الذى إجتزناه فقال لهم فى لهجة ساخرة (إيه ياجماعة إنتو واقفين كده ليه إنتو فاكرين أنهم هيرجعوا تانى من هنا).

وصلت بيت الصديق النوبى بحى بولاق، فوجىء بوجودى أمامه، عرف حقيقة هربى من المعتقل، شعر بالألم الذى أعانيه نتيجة الإرتطام بالأرض، كان من الصعب أن أعيش معه فى غرفته الوحيدة، إذ كانت شقيقته تعيش معه فى نفس الغرفة، إنتقلنا معاً إلى صديق آخر نوبى يعيش فى حى إمبابة، ولم تكن

لهذا الصديق إهتمامات سياسية ومع هذا قام بحمايتى وكأنه عضو أو صديق "لحدتو".

فى تلك الفترة كان الرفاق المركزيون فى الحرية فى قلق شديد فهم لا يعرفون مصيرى، وحتى لا يزداد هذا القلق أخطرتهم بوجودى سليماً فى الحرية، مع إبداء إستعدادى لمقابلة أى رفيق مركزى أو الإجتماع مع أية هيئة حزبية مسئولة.

كنت شغوفاً بهذا اللقاء بعد أن حرمت منه ما يقرب من عام ونصف، وفى نفس الوقت كنت أكثر ميلاً إلى أن أرتب شئون أمنى بنفسى، وبالذات تدبير أماكن إختفائى، كنت أشعر ــ دون سابق تجربة ــ أن الإختفاء عند عناصر صديقة عادية لا صلة مباشرة لها بالسياسة الحزبية أكثر أمناً، وخبرة الأيام القليلة بعد هربى من روض الفرج أكدت لى هذا الميل.

لكن الرفاق فى الخارج، كانوا ضد ميلى هذا، وكانوا حريصين على أن يتولوا بأنفسهم مسألة تدبير أماكن إختفائى بعد الهرب.

تناقض الميل مع الحرص، وأسلمت نفسى كاملاً للرفاق، وحدث ما سأرويه فى صفحات قادمة.

خبر محزن ومؤلم:

فى أيام هربى، وأنا فى قمة نشوة الفرح، بلغنى خبر محزن ومؤلم، بدد كل ما كنت أشعر به من فرح، كان الخبر، هو القبض على مجموعة من الرفاق تسير فى الشارع بصحبة الرفيق / سعد عبد اللطيف الهارب، وحدث هذا فى اليوم التالى لهربنا، كان المقبوض عليهم (كمال عبد الحليم ــ أحمد الرفاعى ــ محمد عباس فهمى ــ سعد عبد اللطيف)، ويبدو أن نشوة الفرح بهربنا أنستهم المحاذير الأمنية، فقد كان من المفترض أن تتكثف ــ بعد الهرب ــ الحملات الأمنية للبحث عن الهاربين، مما يستوجب عدم السير جماعة فى الطريق العام.

كانت عملية الهروب، عملية نضالية، ولكنها كانت خاسرة بالحسابات الهادئة، فقد هرب رفيق مركزى واحد، هو أنا، ومعه ستة من الرفاق غير المركزيين، فاذا بنا نفاجىء بالقبض على رفيقين مركزيين، وثالث قريب من

الأوضاع القيادية هو "محمد عباس فهمي"، وقد تعلمت من هذه الواقعة المؤلمة أن يكون الإنسان المناضل أكثر حرصاً وحذراً وهو يسجل إنتصاراته، وخاصة تلك الإنتصارات التى تستفز العدو الطبقى.

وفى الأحاديث الأولى ـ بعد الهرب ـ مع (سيد رفاعى وسيد ترك ـ وعبد المنعم الغزالى) أحسست برائحة التحضير لأنغام (التيار الثورى) عن حدتو ـ فيما بعد ، أحسست بهذا التحضير نتيجة الحملة التى شنها هؤلاء الرفاق على رفاق مركزيين آخرين هم (محمد شطا ـ كمال عبد الحليم ـ زكى مراد ـ أحمد الرفاعى) وكانت المقولة التقليدية هى أن هؤلاء الرفاق الأربعة ليسوا ثوريين، ولهذا الجانب المحزن من الأمر تفاصيل سوف أتعرض لها فيما بعد.

أيام قليلة فى الحرية :

عشت أياماً قليلة فى الحرية، فان إستجابتى لحرص الرفاق على تدبير أماكن إختفائى أدت إلى هذا المصير كيف ؟

إتصل الرفاق الثلاثة (سيد الرفاعى ـ ترك ـ الغزالى) بالرسام زهدى وكان عضواً فى حدتو، وطلبوا منه تدبير مكان إختفاء لى وللغزالى.

إنتقلنا نحن الثلاثة للمكان المحدد، وكان بمنطقة مصر الجديدة، وصلناه الساعة الحادية عشر مساء ، رحب بنا صاحب المكان وكان يقيم بمفرده.

وفى الصباح غادرنا صاحب الشقة لقضاء بعض المهام الخاصة (إحضار الفطار وكى الملابس) وعاد بعدما غاب ما يقرب من الساعة، وبعد عودته بربع ساعة، داهمت الشقة قوة بوليس سياسى ضخمة برئاسة (عبد الرحمن عشوب)، أودعونى قسم الخليفة، وإحتجز الغزالى بقسم مصر الجديدة.

وتؤكد مجريات الأمور أن صاحب المنزل إتصل بالمباحث العامة فى فترة غيابه، لأنه لم يحتجز مثلنا فى أى قسم من أقسام القاهرة، وهكذا فشلت "حدتو" فى تنظيم إختفائى، وثبت بالتجربة أن الإعتماد على الإمكانيات التى يدبرها بعض الأصدقاء من غير السياسيين ربما تكون أكثر نفعاً وأمناً فى نفس الوقت.

وقد إستفدت من هذه التجربة كثيراً فى سنوات أخرى من عمرى النضالى بعد ذلك.

مناقشة هزلية وتهكمية مع حكمدار القاهرة :

كنت حزيناً يوم القبض علىَّ، وبقيت أياماً دون أن أتناول أى طعام، باختيارى، فى هذا الجو الحزين، إستدعانى مأمور قسم الخليفة إلى مكتبه، وفتح حواراً واسعاً معى حول إسم قريتى فى النوبة وإسم عائلتى وعنوان أهلى فى القاهرة، وسرد لى أسماء عدد من العمد والمشايخ فى قرى النوبة، وقرر لى فى النهاية أنه خدم كضابط بوليس عدداً من السنين فى بلاد النوبة، وأنه يعرف بحكم معايشته لأهالى تلك البلاد وأنهم صادقون ولا يكذبون، وأنهم أمناء ولا يخونون الأمانة، وأنهى حديثه بأن ناشدنى ألا أهرب من القسم، فأسبب له ضرراً جسيماً.

أكدت له أننى لن أهرب، إذ كنت أعرف أن هذا مستحيل، إذ كنت محتجزاً بغرفة واسعة، نوافذها عالية ولن أطولها، وبابها سميك وتحرسها قوة هائلة.

بعد هذا الحديث بيوم تقريباً، فوجئت بحكمدار القاهرة يستدعينى لغرفة المأمور وطلب منى الحكمدار الجلوس أمامه، وقال نحن نعرف أنك الرأس المدبرة لعملية الهرب من المعتقل، وها أنت أمامنا مقبوض عليك، ولا ضرر من الإدلاء لنا بأية معلومات مفيدة عن حادثة الهرب، وحدد بعض الأسئلة التفصيلية.

من الذى أدخل لكم المفك والمنشار ؟

من الذى ساعدكم من خارج المعتقل ؟

هل ساعدكم أحد من قوة الحراسة ؟

أين يختفى زملاؤك الهاربون معك ؟

.... بعد إلقائه لهذه الأسئلة تأكدت أنه رجل تافه وقليل الخبرة فى التعامل مع الشيوعيين المصريين، وقررت أن أبرز تفاهته أمام مرؤوسيه من الضباط وكانوا جميعاً يجلسون حوله.

بدأت حوارى معه وقلت (حضرتك عايز الجد وللا إبن عمه)، رد بجدية وقال طبعاً "الجد مش إبن عمه".

بعد فترة صمت، فاجأته وقلت، أنا جعان وعايز آكل، وخرمان وعايز شاى، وبردان وعايز بطاطين وأفهمته أن مأمور القسم يضطهدنى، وأفهمته أننى سأقول الحقيقة كاملة بعد تلبية هذه الطلبات.

أصدر أوامره السريعة والحاسمة بتلبية كل طلباتى، وفعلاً حضر الأكل والشاى وجهزت البطاطين وتيقنت أكثر أنه رجل تافه.

لم أتردد فى إلتهام الأكل وإحتساء الشاى، ثم سردت له وللمجموعة التى تجلس حوله كل المعلومات المعروفة عن جغرافية المعتقل ونوع الحراسة، وأسماء من كانوا فى الغرفة معى ٠٠ ألخ وختمت حديثى بالجملة التالية

"صباح يوم الهرب، إستيقظت من النوم متأخراً، وجدت نفسى وحيداً فى الغرفة، تيقنت أن الآخرين جميعاً هربوا إذ كانت الغرفة مغلقة من الداخل، وجدت أدوات الهرب موجودة كما هى، أحسست أننى سأكون إنساناً جباناً لو ظللت فى الغرفة، قررت أن أكون شجاعاً مثل رفاقى وهربت".

ثم لم أزد كلمة واحدة، صمت الرجل وتأكد أننى أتهكم عليه، وكان الضباط الآخرون من حوله يكتمون الإبتسام والضحك.

بعد فترة صمت، قلت له "أليس عيباً أيها الحكمدار أن توجه لى مثل هذه الأسئلة وأن تتوقع منى إجابة"

تشتيت المعتقلين الشيوعيين فى سجون الصعيد:

بعد حادث الهرب من معتقل روض الفرج (مايو ١٩٥٣) تقرر تشتيت كل المعتقلين الشيوعيين فى سجون الصعيد (بنى سويف ــ المنيا ــ أسيوط ــ قنا).

أغلق معتقل الطور نهائياً، وأصبح معتقل روض الفرج مجرد ترانزيت ليوم أو يومين، نقلت من قسم الخليفة إلى ترانزيت روض الفرج، ومن هناك رحلت إلى سجن أسيوط، حيث وجدت هناك من عناصر حدتو (كمال عبد الحليم ــ فوزى حمزة المحامى ــ إسماعيل جبر ــ عبد المنعم الغزالى)، وكان هناك معتقلون شيوعيون آخرون وبعض الجواسيس الإنجليز.

حبس في قضية المظاهرة هذه وقد نقلت من معتقل الهايكست إلى سجن مصر لقضاء فترة العقوبة.

ورغم قرار الفصل من الأزهر كنت أعيش حياتي الكاملة وسط الطلبة الأزهريين في معاركهم الجماهيرية، وكان يساعدني في ذلك انني كنت المسئول الأول عن قسم الأزهر في حدتو وكان لهذا القسم نشاط كبير في المعهد الثانوي وفي الكليات الأزهرية الثلاثة في القاهرة (الشريعة ــ أصول الدين ــ اللغة).

وقد احتفظ قسم الأزهر بمجمل نشاطه بعيدا عن التيارات الانقسامية في ١٩٤٨، ويرجع هذا إلى ان قسم الأزهر (حتى قبل انضمامي إليه) تشكل في حضن الحركة المصرية للتحرر الوطني، ولا أنكر دوري ــ مهما كان متواضعا ــ في ان المحاولات الانقسامية لم تمتد إلى الأزهر.

كانت المنظمات الانقسامية، تلوك الأسانيد النظرية الواهية وتستشهد بتجارب البلدان الأخرى للتدليل على خيانة قيادة (حدتو) وكانوا يقولون ان الخط السياسي لتلك القيادة (خط قوات وطنية ديمقراطية) وليس خطا ثوريا ولا اشتراكيا، وبالتالي فان حدتو كانت في نظرهم منظمة لا تمثل الطبقة العاملة، والاغرب من ذلك انهم كانوا يسوقون الأدلة على سلامة الموقف الانقاسمي لتلك المنظمات.

وقد لعبت هذه الاطروحات دورا في حشد العناصر وبالذات تلك التي تنتمي إلى البرجوازية الصغيرة وراء تلك المنظمات الانقسامية، وخاصة في ظل ضعف الوعي النظري، وقلة الخبرة باضرار الانقسامية.

ولكن بالنسبة لي لم يكن الموقف هو موقف المفاضلة بين أسانيد هؤلاء وهؤلاء، في المجال السياسي أو التنظيمي، بل كان اختيارا إلى جانب حدتو ضد الانقساميين على كافة فصائلهم باعتبار ان من بقى في حدتو بعد الانقسام كانوا أساسا هم عناصر (ح.م) أكثر نضالية وأكثر شعبية، بينما عناصر (اسكرا) التي شكلت القلب الأساسي للانقسام كانت عناصر (في مجموعها) أقل نضالية ومنحدرة من طبقات وفئات غنية ومنتعشة ماديا.

وفى مرحلة لاحقة تم نقل جميع الشيوعيين المعتقلين من سجن أسيوط إلى سجن بنى سويف، حيث كان هناك عدد أكبر من الشيوعيين وخاصة من "حدتو"، كانت المعاملة ـ بشكل عام ـ حسنة وبشكل خاص داخل سجن أسيوط.

فالنقود كانت فى جيوب المعتقلين وليست موضوعة فى أمانات السجن، مما كان يسهل للمعتقلين شراء إحتياجاتهم من الخارج مباشرة بواسطة إدارة السجن، وكانت وجبات الأكل جيدة وتقدم من خلال (متعهدين) فى عواصم المحافظات المختلفة، وكان مسموحاً للمعتقلين باقتناء الكتب والصحف والأوراق والأقلام وزيارات الأهالى كانت مسموحة ومريحة فى نفس الوقت، وتمكث مع أبنائها المعتقلين مدداً طويلة نظراً لأن رحلة السفر كانت محددة بطول المسافة، وكانت الرسائل السياسية وغيرها تهرب للخارج من خلال تلك الزيارات.

ومعاملات إدارات السجون مع المعتقلين كانت جيدة، ولا شك أن العلاقات بين تلك الإدارات والمسجونين الشيوعيين فى فترات سابقة تركت أثراً طيباً إنعكس بدوره على معاملات تلك الإدارات مع معتقليها.

وقد تمركز المعتقلون الشيوعيون بعد ذلك فى "أوردى أبى زعبل" حيث ظلوا هناك حتى الإفراج عنهم فى يونيو ١٩٥٦.

من يناير ٥٣ وحتى يونيو ويوليو ٥٣ إتخذ الإرهاب من جانب سلطة يوليو فى الأساس طابع الإعتقال، ومنذ النصف الثانى من عام ٥٣ إتخذ الإرهاب طابع "القضايا الشيوعية"، وقد تمركز المسجونون الشيوعيون فى عنبر خاص بهم فى سجن مصر، وفى نهايات ٥٤ تمركز فى سجن طره المحكوم عليهم بأشغال شاقة، ثم تمركز هؤلاء مع أصحاب الأحكام الطويلة فى سجن الواحات أما الأحكام القصيرة فكانت تمركز فى سجن القناطر ، ويمكن أن يقال أن جزءاً كبيراً من الكوادر الشيوعية وجزءاً لا يستهان به من العضوية العادية كان فى السجن أو المعتقل، وبالتالى ليس غريباً أن تكون هناك أحداث وتطورات تلك الفترة من نضال ضد الإنقسامية والسعى للوحدة الشيوعية قد صنعت فى سجون تلك المرحلة التى جمعت الكوادر والعضوية الشيوعية، وهى بالترتيب (سجن القناطر ـ أبو زعبل ـ الواحات).

الإنقسامية فى الحركة الشيوعية بعد ١٩٥٢ :

إستعرضنا فى صفحات سابقة مظاهر الإنقسامية فى الحركة الشيوعية المصرية خلال عام ٤٨ وأوضحنا ظروفها وقوانينها.

وبعد ثورة يوليو ٥٢، يطل شبح الإنقسامية من جديد، وكان هذا طبيعياً، فان الثورة كانت حدثاً هاماً وتحولاً خطيراً، وفى العادة فان الخلافات فى السياسة والتنظيم تبرز مع الأحداث الهامة والتطورات الخطيرة، وتصل إلى حد الإنقسام إذا لم تعالج بحوار ديمقراطى واسع.

فى ظل كل الظروف التى صاحبت ثورة يوليو ١٩٥٢ إنسلخت مجموعتان صغيرتان من حدتو، وإتهمتا قيادة حدتو بالإنتهازية والخيانة، وهما مجموعة (و.ش أى وحدة الشيوعيين) بزعامة "إبراهيم فتحى" ومجموعة (نحشم الجديدة) بزعامة "جمال النجارى.

هاتان المجموعتان شكلتا حلقتين جديدتين، ويلاحظ فى تلك الفترة أن عدداً قليلاً من الزملاء تركوا "حدتو" وإنضموا إلى د. ش مثل "فوزى فام" وعدداً آخر إنضم للراية (حمدى أبو العلا وزوجته إنجى أفلاطون).

وقد تصور هؤلاء جميعاً أن الراية و د. ش كانتا فى الموقع الصحيح فى تحديد الموقف السياسى من ثورة ٢٣ يوليو ودعم تصورهم الخاطئ للجوء السلطة الجديدة إلى مجموعة من الإجراءات غير الديمقراطية ضد الحركة الجماهيرية إلى جانب الهجوم المركز من الحركة الشيوعية على موقف "حدتو" من الثورة.

هذه الإنسلاخات المحدودة لم تؤثر على "حدتو" كثيراً، لكن الإنقسام الذى هز كيان "حدتو" وإن لم يقض عليها، فكان إنقسام التيار الثورى والهزة التى أصابت "حدتو" نتيجة إنقسام التيار الثورى، لم تكن لأن الكثيرين من أعضائه قد إنحازوا للإنقسام، هذا لم يحدث فقد ظل البناء الحزبى لحدتو فى القاهرة وإسكندرية وبحرى وقبلى سليماً، وكان هذا نتيجة الخبرة المكتسبة للعضوية الحزبية فى حدتو ضد الإنقسام.

إنما كان سبب الهزة أن سكرتيرها العام يقود هذا الإنقسام.

إنقسام التيار الثورى :

قام هذا الإنقسام على أكتاف "سيد رفاعى" المسئول السياسى لحدتو آنـذاك، وعاونه فى ذلك بنشاط (حمدى عبد الجواد ـ فؤاد عبد الحليم ـ سيد خليل ترك ـ يوسف مصطفى ـ رفيق سودانى كان إسمه "المجذوب").

وهناك ملامح تميز هذا الإنقسام:

أولاً- أن إنقسام التيار الثورى هو أول إنقسام يتزعمه السكرتير العام للتنظيم، ففى العادة كانت تجرى الإنقسامات السابقة ضد السكرتير العام والقيادة المركزية المتعاونة معه وهذا يعكس أن نفوذ (سيد رفاعى) كان يتضاءل لا فى جسم التنظيم فحسب بل كان يتضاءل حتى فى صفوف القيادة المركزية لحدتو.

ثانياً- أن الإنقسام قد حدث والجزء الأكبر من القيادة المركزية "لحدتو" كانت مشتتة فى أكثر من سجن ومعتقل كان (إبراهيم عبد الحليم ـ محمد على عامر ـ أحمد الرفاعى ـ طاهر البدرى) بسجن قنا وكان (كمال عبد الحليم وأنا) فى سجن أسيوط وكان (فؤاد حبشى ـ يوسف مصطفى ـ وكمال الشلودى) فى سجن مصر، وكان بالخارج آنذاك (زكى مراد ـ شطا ـ شريف حتاتة ـ محمد خليل قاسم ـ أحمد طه ـ سيد رفاعى ـ سيد ترك).

ومع هذا التشتت، فان غالبية هؤلاء الرفاق، بعد أن إستعرضوا قضايا الصراع السياسى والتنظيمى، وعرفوا محاولات الإنقسام وقفوا مع "حدتو" ضد "سيد رفاعى"، وباختصار وقف من مركزيين السجون والمعتقلات يوسف مصطفى إلى جانب (سيد رفاعى)، ووقف من مركزيين الخارج "سيد ترك" إلى جانبه.

ثالثاً- كان هذا الإنحسار التنظيمى لإنقسام التيار الثورى دليلاً جديداً على أن مجموع الحركة الشيوعية المصرية وخاصة "حدتو" قد إستفادت ـ قيادة وقاعدة ـ من تجارب الإنقسام المرة فى ١٩٤٨ ، وأصبحت محصنة ضد العمليات الإنقسامية حتى ولو قام بها المسئول السياسى للتنظيم (سيد رفاعى) الذى كان محبوباً لدى عدد كبير من الرفاق المركزيين وخاصة ممن إحتوتهم المعتقلات والسجون من بدايات ١٩٥٣.

لقد كنت من ضمن هؤلاء الرفاق المركزيين الذين تربطنى صلة صداقة قوية ومحبة شديدة "بسيد رفاعى"، بحكم أننا عملنا معاً فى هيئة مركزية واحدة طوال عامى ٥٠، ٥١ ومع هذا لم أكن أسمح لنفسى ، ولا يسمح غيرى أن يطغى هذا النوع من العلاقة على المبادئ التى تربينا عليها، وهى معاداة العمليات الإنقسامية والتكتيكية أياً كانت الحجج التى تتسربل بها.

رابعاً- نجحت القيادة المركزية الموجودة بالخارج آنذاك فى تعبئة التنظيم كله وبالذات قيادته المركزية المشتتة فى السجون والمعتقلات ضد الإنقسام وقد شهدت تلك الفترة نشاطاً فائقاً فى المراسلات بين الرفاق المركزيين خارج الأسوار وداخلها ، وفتحت النشرة الداخلية لحدتو (الطليعة) صفحاتها لمجموعة من المقالات من داخل السجون ضد الإنقسام وأذكر أننى ساهمت بمقال باسمى الحركى آنذاك (داوود) وأعتقد أن آخرين غيرى قد ساهموا.

خامساً- وفى داخل السجون عقدت إجتماعات موسعة شملت كل الرفاق لإدانة الإنقسام، فى سجن أسيوط، عقدت أنا وكمال عبد الحليم إجتماعاً موسعاً مع كل الرفاق من أعضاء "حدتو"، أحطناهم علماً بالإنقسام، وإستصدرنا قراراً من الإجتماع بادانته.

كان حاضراً فى هذا الإجتماع (عبد المنعم الغزالى) أحد أركان التحضير للإنقسام قبل إعتقاله معى فى مايو ٥٣ وقد دارت مناقشة حامية معه إنتهت بادانته للإنقسام ولكن دون عمق وقناعة كاملة، ثبت ذلك من أنه لم يدل بمعلومات كافية عن العمليات التكتيكية والإنقسامية التى شارك فيها قبل إعتقاله.

لم أفاجئ بموقف "الغزالى"، فقد تيقنت من تجربتى فى الحركة الشيوعية المصرية أن بعض العناصر شغوفة بالتكتل والإنقسام شغفها بالحياة.

كان "الغزالى" من هؤلاء ، وكان قاسماً مشتركاً فى كثير من الإنقسامات، خرج مع (شهدى عطية) فى التكتل الثورى، ثم أصبح أحد أركان (م. ش. م) ثم خرج مع إنقسام "النجم الأحمر" من العمالية الثورية، وختم ذلك كله بشروعه فى الإنقسام مع (التيار الثورى).

سادساً– إرتكز إنقسام التيار الثورى على عدد من الرفاق المثقفين من أبرزهم (فؤاد عبد الحليمحمدى عبد الجواد)، وباعتبارهما من جيل الأربعينات أصبحا مفكرين ومنظمين للإنقسام ، وكانا يعيشان فى ظروف معينة هى أنهما كانا جزءاً من الكادر القيادى المركزى " لحدتو" والذى تولى تلك المسئولية بعد إعتقال الصف الأول من حدتو فى ١٩٤٨، وبالتالى رسب فى إعتقادهما أنه من الضرورى شن هجوم على ذلك الصف الأول المركزى (كورييل ــ سيد رفاعي ــ كمال عبد الحليم ألخ) لتدعيم مركزهم كصف ثانى فى حدتو يتطلع للمستقبل ومن تلك الظروف أنهما غابا فى السجون مدة طويلة، فكلاهما كان محكوماً عليه بخمس سنوات وخرجا من السجن فى فترة سلطة يوليو، وربت هذه العزلة فى نفسيهما إتجاهات سياسية وتنظيمية ذات طبيعة يسارية حادة، تفاعلت بحكم الضرورة مع الظروف الموضوعية السيئة التى كانت تعيشها الحركة السياسية آنذاك.

من هذا الأمر وذاك تهيأ لهما وتصورا أن فى إمكانهما أن يكونا القادة الحقيقيين لحدتو بعد ١٩٥٣ منتهزين فى ذلك، الإدانة الدولية لموقف حدتو السياسى لثورة يوليو، ومن جانب آخر إنقسام "حدتو"، وضعف (سيد رفاعى) الذى جعله أسيراً فعلياً لهما .

ومن هنا فقد كان القائدان الفعليان لإنقسام التيار الثورى هما (فؤاد عبد الحليم– وحمدى عبد الجواد) البرهان على ذلك هو أنه عندما تشكلت وحدة "الموحد" فى ١٩٥٥، والتى إندمج فيها "التيار الثورى" كان الممثلون الثلاثة له فى اللجنة المركزية لحدتو هم (فؤاد عبد الحليم ــ حمدى عبد الجواد ــ عيد سيد أحمد)، وإستبعد تماماً من هذا التمثيل (سيد رفاعي ويوسف مصطفى) أما "سيد ترك" فكان قد إستقال من التيار الثورى ، وإنضم "لحدتو" من جديد.

سابعاً– بدايات الخلاف بين "سيد رفاعى" وبقية الرفاق المركزيين ظهرت عام ١٩٥١ ، منذ أن شن "سيد رفاعى" حملاته على الرفاق الآخرين همساً، مدعياً أنه وبعض الرفاق العمال يمثلون التيار الثورى فى حدتو ، بينما الآخرون المثقفون يمثلون التيار الإنتهازى وكان المظهر الخارجى والملموس للخلاف، هو أن "سيد رفاعى" ومن معه يهتمون فى الأساس بقضايا البناء التنظيمى

الداخلى لحدتو ، بينما يهتم الآخرون بقضايا العمل الجماهيرى من (حركة سلام ونقابات ألخ)، وكانا طرفا الخلاف هما ("سيد رفاعى" من ناحية و"كمال عبد الحليم" من ناحية أخرى).

والحقيقة أن خلق هذا التناقض بين العمل الجماهيرى للتنظيم والعمل البنائى الداخلى لم يكن له أى مبرر، فكلا العملين مكمل للآخر ومدعم له.

وتبلور الخلاف بعد ذلك، حسبما سجلتها تقارير إنقسام "التيار الثورى" كان فاقداً الأمل فى أية إمكانية ولو محدودة للعمل العلنى فى ظل الديكتاتورية العسكرية، وبالتالى كان يدافع عن الفكرة الوحيدة للعمل ـ فى نظره ـ وهى "اللجان الثورية السرية"، بينما حدتو لم تكن ترى ذلك.

إن "التيار الثورى" كان لا يؤمن باقامة أى شكل من أشكال الجبهة الوطنية الديمقراطية مع رجال الأحزاب الأخرى بما فيها "حزب الوفد" وعلى العكس من ذلك كانت "حدتو" تمارس وتدافع عن العلاقة النضالية مع رجال الوفد آنذاك، وكانت هناك جبهة قائمة ولو بشكل جنينى بين حدتو والوفد وكان يمثل حزب الوفد فى هذا التشكيل (الوفديان بكر سيف النصر، حنفى الشريف).

وكان "التيار الثورى" يتبنى فكرة الدفاع عن إتمام توحيد المنظمات الشيوعية المصرية دون أى إرتكاز على مفهوم التنسيق فى العمل الجماهيرى بين تلك المنظمات، وأطلق "التيار الثورى" على سياسة حدتو فى الوحدة أنها "مجرد نمو ذاتى".

ثامناً– ولأول مرة فى تاريخ الشيوعيين المصريين يتوزع الكادر الذى يعيش فى القاهرة على أكثر من تنظيم شيوعى مصرى.

كانوا أعضاء حدتو دائماً فى ح. م ثم بعد ذلك فى "حدتو" كامتداد لها ولكن بانقسام "التيار الثورى" بزعامة "سيد رفاعى" وكانت له سمعة طيبة بين السودانيين، ظهرت ظاهرة جديدة هى تشتت السودانيين فى مصر بين "حدتو" وبين "التيار الثورى" وقد نجح "التيار الثورى" فى إستقطاب الجزء الأكبر من العضوية السودانية الشيوعية التى كانت منتظمة فى "حدتو" قبل الإنقسام إلى صفوفه.

كان هذا بسبب سمعة (سيد رفاعى) بين السودانيين، وبسبب وجود (السوداني المجذوب) في القيادة المركزية للتيار الثوري، وبسبب أن هؤلاء السودانيين كانوا طلبة مما يسهل جذبهم إلى التيارات الانقسامية في غياب بعض العوامل الايجابية الأخري.

وهناك احتمال ـ لهذا الانحياز ـ وهو أن تكون قيادة الانقسام قد اختلقت اشاعة أو اكذوبة مفادها أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوداني تنصح الرفاق السودانيين في القاهرة للانضمام إلى التيار الثوري، وخاصة أنه كان يعاني ضمورا شديدا في العضوية المصرية.

والرفاق السودانيون الذين استمروا في عضويتهم بحدتو كانوا (فتحي داود من الاسكندرية) ومن القاهرة (يوسف عبد المجيد ـ وحسين إبراهيم ـ وبابكر سليم وآخرون من الطلبة) واستمر في حدتو كذلك (عبد القيوم سعد) وكان محكوما عليه بسبع سنوات سجن.

ونتيجة انحياز غالبية العضوية السودانية في مصر إلى انقسام "التيار الثوري"، ونتيجة احساسي بحيرة الحزب الشيوعي السوداني من الوضع المتفجر في حدتو، أرسلت نداء باسمي الحركي (داوود) للحزب الشيوعي السوداني ناشدتهم الوقوف مع "حدتو" باعتباره التنظيم المعادي للانقسام، ضد "التيار الثوري" كانقسام وضد زعيمه (سيد رفاعي) كزعيم للمنقسمين، وقد سمعت أن النداء قد نشر، أو أن الحزب الشيوعي السوداني أرسل ردا عليه إلى مصر.

وللحق والتاريخ فأنا لا أتهم الحزب الشيوعي السوداني بأنه آزر انقسام "التيار الثور" ولا زعيمه (سيد رفاعي).

ولكن المؤكد أن حالة من الحيرة قد انتابت الحزب الشيوعي السوداني لفترة من الزمن، نتيجة الأوضاع في "حدتو" بعد مايو ١٩٥٣.

في هذه المرحلة صدر قرار الحزب الشيوعي السوداني بأن ينسحب أعضاؤه من المنظمات الماركسية المصرية، وأن ينخرطوا في شكل تنظيمي بالقاهرة أطلقوا عليه (فرع الحزب الشيوعي السوداني في مصر).

نضال من أجل وحدة

الحركة الشيوعية المصرية

التنظيمات الشيوعية المصرية التي تواجدت في الساحة السياسية في سنوات ٥٤،٥٣ كانت (حدتو ــ التيار الثوري ــ النجم الأحمر ــ نواة الحزب ــ طليعة الشيوعيين ــ وحدة الشيوعية ــ الراية ــ د.ش).

غالبية هذه التنظيمات كانت موجودة قبل قيام ثورة يوليو، ولكن اثنتان منها تواجدتا بعد الثورة، وهما (التيار الثوري ووحدة الشيوعيين).

وقد تواجدت تلك التنظيمات بدرجات مختلفة من الكثافة العددية في السجون والمعتقلات التي امتلأت بها البلاد منذ يناير ١٩٥٣.

وكانت الظروف السياسية العامة، من احساس بالمطاردة الشديدة للشيوعيين من قبل ثورة يوليو، إلى جانب آلاف السنين من السجن تنتظر الشيوعيين بعد محاكمات سريعة أمام المجالس والمحاكم العسكرية، إلى شعور قوي بأن سنوات الاعتقال لن تنتهي قريبا، دفعت الشيوعيين المصريين دفعا إلى البحث بجدية في سبيل توحيد منظماتهم الماركسية، مع الادراك بأن هناك صعوبات كثيرة أمام تحقيق هذا الهدف النبيل.

قبلت غالبية المنظمات التي أشرنا إليها مبدأ الوحدة فيما بينها وقبلت الدخول في مناقشات حولها، وانفردت بالرفض ثلاثة منظمات هي (الراية ــ ود.ش ــ ووحدة الشيوعيين).

وكان منطق الرفض مؤسسا بالنسبة للراية في أنها هي الحزب الشيوعي الوحيد، وكل من يرغب في مواصلة الكفاح عليه أن يتقدم بطلب عضوية فردية إلى قيادتها المركزية، ووصفت الراية كافة المنظمات الأخرى بالانتهازية، واتهمت بعض أعضائها بالخيانة.

أما د.ش فكانت تردد حججها التاريخية التي طالما رددتها منذ نشأة الحركة الشيوعية الوسطى.

أما وحدة الشيوعيين، فقد كانت حلقة صغيرة من المثقفين المنعزلين وبالتالي لم يكن لحجمها أو وزنها أية قيمة تذكر.

وكانت مباحثات الوحدة بين التنظيمات التي قبلتها تدور في بداية الأمر خارج السجون والمعتقلات وداخلها وبالذات في سجن مصر ثم في القناطر.

وفي مرحلة متقدمة من المباحثات حددت تلك المنظمات أن لجنة الوحدة المتواجدة في سجن القناطر هي اللجنة الرئيسية المنوط بها حسم المناقشات والوصول إلى قرارات محددة بشأنها.

وكان السبب وراء ذلك هو أن غالبية القيادات المركزية لمنظمتي طليعة الشوعيين، النجم الأحمر ــ كانت موجودة بسجن القناطر، وكذلك مجمل القيادة المركزية للتيار الثوري، أما "حدتو" فان جزءاً هاما من قيادتها المركزية كان موجودا بنفس السجن، وفوجئت الأجزاء الأخرى من القيادة المركزية المتواجدة في سجن الواحات وأبي زعبل والخارج الرفاق المركزيين من حدتو في القناطر باتخاذ القرار المناسب في عملية الوحدة.

منظمة النواة هي الوحيدة التي لم يكن لها مندوبون مركزيون في السجن، إذ كان الرفيقان (محمود أمين العالم ــ حسين غنيم) بالخارج وكان بسجن أبي زعبل كلا من (فوزي جرجس ــ بهيج نصار).

وقد جرت مباحثات الوحدة، في تلك الفترة في مناخ سياسي وتنظيمي غير موات أو ملائم "لحدتو"، وعلى العكس من ذلك كانت ملائمة ومواتية للتنظيمات الأخرى التي اتحدت مع "حدتو".

ولذا فقد كانت هناك نتائج ومكاسب سياسية وتنظيمية لتلك المنظمات حتى وان كانت نتائج ومكاسب مؤقتة. وبالتالي الحقت بعض الخسائر المؤقتة بحدتو، قياسيا لم تكن الظروف مواتية لحدتو، فثورة يوليو التي أيدتها حدتو كانت مدانة محليا وعربيا وعالميا واشتركت حتى "حدتو" نفسها في ادانتها في مرحلة لاحقة والادانة التي لحقت بالثورة امتدت إلى "حدتو" نفسها وهذا أمر طبيعي آنذاك.

ورسخ من ادانة الثورة وحدتو أن أعمال سلطة الثورة في تلك الفترة وبالذات الممتدة من يناير ٥٢ إلى إبريل ٥٥ اتسمت بالسوء، وبمنظار تلك الأيام كانت أكثر سوءاً.

فالعلاقات الأمريكية المصرية كانت تمر بمرحلة غزل شديد، والنقطة الرابعة الأمريكية تجد رواجا فعليا واعلاميا، والأحلام في الحصول على المساعدات العسكرية الأمريكية لم تكن قد قبرت بعد، وصدر قانون الاستثمار الأجنبي لجذب رؤوس الأموال الأجنبية وبالذات الأمريكية.

ووقعت السلطة الجديدة اتفاقية السودان مع الاستعمار البريطاني، ودخلت معه في مفاوضات (نجيب هانكي) و(جمال هيد) وهي التي انتهت بمعاهدة مصرية انجليزية تتضمن كثيرا من التنازلات للمستعمر البريطاني.

وفي الميدان الداخلي، كانت الحركة الجماهيرية تقمع قمعاً شديداً، بدأت بالمعتقلات الواسعة وباعدام خميس والبقري وبآلاف السنين للشيوعيين داخل السجون وباعدام الاخوان المسلمين وعشرات الآلاف من السنين سجنا لهم، والتشبث الشديد بكراسي الحكم رغم هبة مارس ٥٤، ورغم التطاحن والتناقضات الشديدة فيما بينهم.

وللحقيقة فان بعض هذه الأعمال والممارسات السياسية لسلطة يوليو تحتاج إلى دراسة تحليلية عميقة، وإعادة تقييم عام لها.

ولكن ما يجب الاقرار به أن تلك الأعمال والممارسات ــ بمقاييس تلك الفترة ــ نسجت صورة قاتمة جدا للوضع العام، ونقصد هنا وضع ثورة يوليو ووضع "حدتو" التي أيدتها منذ البداية.

وبفعل هذا التأييد كانت "حدتو" تتحمل في نظر هؤلاء مسئولية أصيلة وفعلية عن الآثار السلبية لتلك الأعمال والممارسات.

وكانت "حدتو" بالتالي محاصرة سياسيا من قبل تلك المنظمات التي تتحاور معها من أجل الوحدة، كما أنها كانت محاصرة من الحركة الشيوعية العربية والعالمية.

ظللت أعمل في قسم الأزهر التابع لحدتو إلى جانب المعاونة في أعمال أخرى بمنطقة القاهرة، وساعد على ذلك انني لم اعتقل في مايو ١٩٤٨ (حرب فلسطين) شأن كثير من كوادر حدتو آنذاك.

وفي النصف الثاني من ١٩٤٨ بدأت مرحلة جديدة من حياتي الثورية، هي حياة الثوري المحترف في منظمة شيوعية مناضلة.

بداية التفرغ الحزبي كثوري محترف

في المرحلة الأولى من حياتي الثورية ١٩٤٨/٤٥ لم أكن ثوريا محترفا في الحزب، بل كنت مجرد عنصر حزبي انتمي للصف الثالث من كوادر حدتو.

وكان يساعدني في القيام بالنشاط الحزبي آنذاك انني كنت اتقاضى من الأزهر منحة شهرية، كنت أصرف منها على حياتي المعيشية وعلى نشاطي الحزبي في نفس الوقت، إلى جانب انتظامي في دفع الاشتراك المالي الحزبي شهريا.

بعد خروج المنظمات الانقسامية من حدتو (العمالية الثورية ـ صوت المعارضة، نحو منظمة بلشفية) ناقشني الرفاق المسئولون في حدتو (فؤاد عبد الحليم ـ حمدي عبد الجواد ـ محمد خليل قاسم ـ مصطفى طيبة ـ الأخوين عبد الفتاح وأحمد الهنيدي) وكانوا ينتمون جميعا إلى الصف الثاني من حدتو، وكانوا يتولون المسئولية في قيادة العمل الحزبي بعد إعتقال (هنري كورييل ـ سيد سليمان رفاعي ـ كمال شعبان ـ كمال عبد الحليم .. إلخ).

ناقشني هؤلاء الرفاق في أن أكون ثوريا محترفا بالحزب، في منطقة بحري وأن أترك القاهرة تماما.

كنت سعيدا بهذا التقدير لدوري، وأحسست آنذاك انني أدخل مرحلة ثورية جديدة في حياتي النضالية، ومازالت هذه السعادة تعيش في أعماقي حتى هذه اللحظة.

ورغم ان خبرتي النضالية على تواضعها كانت في المدن (القاهرة) فقد قبلت دون أي تردد العمل في منطقة بحري.

لم تكن "حدتو" محاصرة سياسيا فحسب، بل كانت تعاني من متاعب تنظيمية شديدة، منها:

ــ أن وجود نسبة كبيرة من كوادر "حدتو" المركزية وغير المركزية في السجون والمعتقلات، إلى جانب نسبة لا يستهان بها من العضوية العامة، جعلها في حالة عزلة عن الحركة الجماهيرية العامة للشعب المصري، وبالتالي فان هذه العزلة أضعفت "حدتو" التي كانت تشعر دائما بأن قوتها وفعاليتها تنبع من قلب الحركة الجماهيرية. وتجسد هذا الوضع في ذهن الرفاق بالسجون والمعتقلات في نمو الاحساس بأن السعي للوحدة مع التنظيمات الأخري هو الذي سينقذهم ــ كمناضلين ــ من هذا الوضع الردئ، وكانوا يشعرون أن الاستمرار باستقلالية حدتو سيسوق الجميع إلى وضع أكثر رداءة.

ــ وإلى جانب ذلك، فان تشتت قيادة حدتو المركزية في أكثر من مكان أضعف من التخطيط المركزي السليم الموحد في معالجة قضية الوحدة، فقد كانت مباحثاتها تدار في سجن القناطر، حيث كان الرفاق المركزيون به أكثر حداثة من الناحية النضالية وبالتالي أقل خبرة، بينما الرفاق المركزيون الآخرون ممن هم أقدم في العمر النضالي والأكثر خبرة، كانوا في سجن ابي زعبل والواحات، وكان (كمال عبد الحليم) في القاهرة، وهنري كورييل في (باريس).

***

أكتب هذه الصفحات على عجل وفي سباق مع الزمن، ورغم ظروف المرض، وأوامر الأطباء بالراحة الكاملة. واعتمد في تسجيلها على الذاكرة فليست أمامي مراجع عن ذلك ولذا لن يكون أسلوب الصياغة منمقاً وجميلاً، فالصياغة الجميلة تحتاج وقتاً أكبر وهذا ما لا أملكه.

قبل عودتي للقاهرة، والإنغماس في روتين العمل اليومي والإنخراط إلى ضغوط الحياة الاجتماعية والأسرية.

ولابد من الإنتهاء من صياغة هذه الصفحات، فقد لا تكون الإمكانية متاحة في القاهرة. ورغم كل النواقص فعزائي أنني أسجلها بموضوعية كاملة، آملاً تقديمها للدكتور/ رفعت السعيد ليكمل بها سلسلة مؤلفاته في تاريخ الحركة الشيوعية المصرية. بعد هذه المقدمة الضرورية أدخل في صلب الموضوع.

١ــ المنظمات الشيوعية من ١٩٥٥ ــ ١٩٥٧

كان في الساحة الماركسية المصرية منذ فبراير ١٩٥٥ ثلاثة منظمات رئيسية هي الحزب الموحد الذي تشكل من عدد من المنظمات في التاريخ المشار إليه. والحزب الشيوعي المصري (الراية) كما تعودنا أن نسميه، وحزب العمال والفلاحين (د.ش) كما أطلق عليهم على إمتداد التاريخ وكانت هناك مجموعة صغيرة جدا ــ وهي مجموعة وحدة الشيوعيين (إبراهيم فتحي) وفي نهاية ١٩٥٦ ظهرت مجموعة ليست جديدة هي مجموعة (فوزي جرجس) التي أحيت " النواه " من جديد كانقسام عن الموحد.

واستمر هذا الوضع حتى منتصف ١٩٥٧.

وكان عام ١٩٥٦، هو عام المعارك الكبرى في مصر. ففيه تم تأميم قناة السويس، ودارت فيه انتخابات رئاسة الجمهورية وفيه حدث العدوان الثلاثي وتصدى الشعب المصري لذلك العدوان تحت قيادة عبد الناصر. وعن أوضاع الشيوعيين المصريين، في ذلك العام تم الإفراج عن كل المعتقلين الشيوعيين كما تم الإفراج عن الشيوعيين الذين كانوا يقضون فترات سجن ليست طويلة (٣ سنوات فأقل) وفي نفس الوقت، بقى في سجن الواحات، أولئك الرفاق الذين

كانت فترات سجنهم طويلة (أكثر من ٣ سنوات ووصلت بالنسبة للبعض إلى عشر سنوات).

ومع نهاية عام ١٩٥٦، وبداية ١٩٥٧ واجه الشيوعيون المصريون وضعاً جديداً، هو البحث من جديد وبقوة دفع أكبر عن وحدة الشيوعيين المصريين.

بعد أن كانت المحاولة توقفت جزئياً. وبعد تشكيل الحزب الموحد، أي ما يقرب من عامين كاملين. حيث كان الشيوعيون في السجن والإعتقال في الجزء الأكبر من هذين العامين، وفي الشهور الثلاثة الأخيرة كان الشيوعيون وبالذات رفاق الحزب الموحد مشغولين بمعركة ضد العدوان الثلاثي على بور سعيد.

٢ــ عام ١٩٥٧ كان مكرساً للوحدة

بعد الإفراج عن عدد كبير من الشيوعيين المصريين الذين قضوا مدد العقوبة (٣ سنوات فأقل) في ١٩٥٦، وبعد الافراج عن المعتقلين الشيوعين المصرين كلهم. ارتفعت موجة ضخمة من أجل الوحدة بين الموحد وتنظيمي الراية ود. ش بحيث يمكن أن نقول أن عام ١٩٥٧ كان مكرساً في الأساس لإنجاح قضية الوحدة.

ساعد على إرتفاع هذه الموجة. معارك الشعب الوطنية في ١٩٥٦، ١٩٥٧ ووضوح سياسة عبد الناصر الوطنية التي كانت تتطلب مساندة كاملة من الحركة الشيوعية المصرية كلها، وقد غدى هذه الموجة نجاح توحيد عدد من المنظمات الشيوعية في الحزب الموحد بما يحمله من أثر إيجابي.

وفعلاً تمت الوحدة في المحاولة الجديدة على مرحلتين ــ الأولى كانت في منتصف عام ١٩٥٧ بين الموحد والراية اللذان شكلا معاً الحزب المتحد، والثانية كانت بين المتحد وحزب العمال والفلاحين (د. ش) وتمخض عنه الحزب الشيوعي المصري المعروف في تاريخ الشيوعيين المصريين بحزب (٨ يناير) بإعتباره قد تأسس في يناير ١٩٥٨. وفي الصفحات القادمة سوف نحكي ما نتذكره من تفاصيل تلك الوحدات. ولكن الأهم هو أن هذه الوحدة فشلت في منتصف عام ١٩٥٨.

وانفرط عقدها، وواجه الشيوعيون حملة ناصر في يناير ١٩٥٩ وهم ممزقون ومنقسمون.

ومادامت الوحدة قد فشلت فلها أسبابها التي سنذكرها فيما بعد، ولكن الأمر الجوهري هو السؤال هل كان توقيت الوحدة سليماً. أي هل كان من المفروض أن تتم في ١٩٥٧ في عجلة أم كان المفروض تأجيلها لبعض الوقت، بحيث تتم مناقشة كافة المسائل التي قد تحمل خطراً على مستقبل تلك الوحدة. لابد أن نقرر أنه كان هناك استعجال لا مبرر له لاتمام الوحدة في أسرع وقت بين التنظيمات الثلاثة.

إن دراسة مسألة التعجل الشديد في إتمام الوحدة يحتم علينا أن نعود بالذاكرة إلى الخلف. أي بالتحديد بين عامي ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ ففي هذين العامين نبتت بعض الظواهر التي شجعت على تبني سياسة (التعجل) في اتمام الوحدة. في هذين العامين المشار إليهما، تم إعلان الحزب الشيوعي المصري الموحد، وتدعيم أوضاعه السياسية والتنظيمية.

٣ــ كان الحذر ضروريا بعد تشكيل الحزب الموحد

كما هو معروف فقد تشكل الحزب الموحد من عدد من المنظمات في فبراير ١٩٥٥. وكان أهم هذه التنظيمات وأكبرها (حدتو).

وقد رفضت الراية ود. ش الإنضمام لتلك الوحدة سواء في مرحلة المفاوضات التي بدأت في ١٩٥٣ أو في مرحلة الإنجاز في ١٩٥٥. كان الرفض بمختلف الحجج التي سبقت في حينها وكلها حجج مرفوضة وغير مقبولة.

وعكس هذا الرفض الموقف المعادي للوحدة من جانب هذين التنظيمين. وهو موقف أصبح ثابتاً ومعلناً حتى بدايات عام ١٩٥٧، حيث أصبحت اللهجة المعادية لوحدة الشيوعين أقل حدة.

ومن هنا كان الحذر ضرورياً في التعامل معهما من جانب الحزب الموحد، في قضايا الوحدة، فلم يكن من المنتظر أن يتحول أعداء الوحدة طوال تاريخهم إلى أنصار لها، فجأة خلال الشهور الأولى من ١٩٥٧.

هناك فرق بين الحذر والعداء للوحدة

حين أتحدث عن الحذر الذي كان مطلوباً في معالجة قضية الوحدة، قد يتهم البعض قائلاً إن الحذر مطابق للعداء للوحدة، وأنا أنفي ذلك تماما.

الحذر بالمعنى الذي أعنيه، إتجاه توحيدي وثوري في نفس الوقت، وهو يستهدف السعي إلى وحدة أمتن وأقوى تتعرض لكافة المحاولات الانقسامية. ولا تنهار خلال شهور ستة كما حدث لحزب ٨ يناير الحذر بالمعنى الذي أقصده. كان يتطلب وضع الأسس الحقيقية سياسياً وتنظيمياً لنجاح الوحدة المطلوبة.

الحذر كان يعني إتخاذ الاحتياطات الكافية التي لا تسمح لأولئك الذين عادوا الوحدة الشيوعية لسنين طويلة، إمتدت من عشرين سنة من قبل (د. ش) ثمانية سنوات من قبل الراية وعبثهم بتلك الوحدة وتكريس الانقسام من جديد.

وعلى أي حال، فلا يمكن اتهام الحزب الموحد بأنه كان معادياً للوحدة، بل على العكس، يمكن أن نقرر بمنتهى الثقة أن الحزب الموحد كان استمراراً للتيار الثوري التوحيدي. فقد بنى بعد مفاوضات وحدوية شاقة، واستمر على خطه التوحيدي بعد إعلانه ولم يحاول أن يغلق الباب أمام التنظيمات الشيوعية الأخرى.

وعلى العكس من ذلك كان تنظيما (الراية ود. ش) هما المعاديان للوحدة وتاريخهما الطويل دليل على ذلك، وليس هنا مجال استعراض هذا التاريخ.

في سبيل وضع الحدود الفاصلة والواضحة بين أصدقاء الوحدة ودعاتها من ناحية وأعداء الوحدة من ناحية أخرى كان الحزب الموحد هو المطالب جدياً أكثر من غيره في البحث عن الأسس القوية والمتينة للوحدة الجديدة وهذا باختصار ما نطلق عليه كلمة (الحذر).

ما السبب في فقدان الحذر؟

فقدت اللجنة المركزية للحزب الموحد، حذرها، وأنا أعني هنا بالضرورة — كتلتها الرئيسية التي كانت ممثلة في الرفاق الذين كانوا ينتمون إلى حدتو سابقا قبل تشكيل الحزب الموحد.

كما أعني بنفس الدرجة أولئك الرفاق المركزيين من التنظيمات الصغيرة الأخرى الذين انصهروا خلال النضال المشترك مع رفاق (حدتو) في مسار واحد هو مسار الحزب الموحد.

يكمن السبب في فقدان الحذر، إلى ذلك الغرور الذي صاحب نجاح وحدة الموحد سياسياً وتنظيمياً، مما أفقد تلك القيادة المركزية الحذر المطلوب في معالجة قضية الوحدة.

ليس هناك مجال استعراض تاريخ الحزب الموحد، وبخاصة في عمله السياسي والجماهيري. فقد سبق استعراض ذلك التاريخ في الكتاب الأخير للدكتور/ رفعت السعيد (١٩٥٠ ١٩٥٧) ولكن ما نسعى إليه، هو استعراض ذلك الجانب الجوهري الذي أفقد اللجنة المركزية للموحد حذرها في معالجة قضية الوحدة مع التنظيمين المشار إليهما.

بدلا من الحذر، كان هناك الغرور ـ والثقة الزائدة عن الحد في نجاح قضية الوحدة رغم كافة المصاعب والعقبات حتى (الراية ـ ود. ش) المعاديتين للوحدة تاريخياً.

ماذا كان مبعث الغرور ـ الذي أفقدنا الحذر؟

كما هو معروف، تمت وحدة الموحد في ١٩٥٥ بهزيمة كاملة لحدتو في السياسة والتنظيم، وكانت الكفة الراجحة سياسياً وتنظيمياً في بداية تلك الوحدة، للتنظيمات الصغيرة التي اتحدت مع حدتو، فقد تمت الوحدة على أساس الوثائق التي تمثل أفكار تلك المنظمات الصغيرة وقد كان لتلك المنظمات الصغيرة غالبية المقاعد في اللجنة المركزية.

وقد تصور البعض من ممثلي المنظمات الصغيرة في اللجنة المركزية للحزب الموحد. أن هذا الوضع الذي تمت فيه الوحدة يدوم إلى الأبد.

ولكن ما تصوره كان وهماً. فمع التغيير في الوضع السياسي في البلاد (صفقة الأسلحة التشيكية ـ الاعتراف بالصين الشعبية ـ مؤتمر باندونج ـ تأميم قناة السويس ـ الخ ..) تغير كل شيء في داخل الحزب الموحد نفسه.

فحدتو المهزومة سياسياً في بدايات تشكيل الموحد تحولت إلى منتصره فمن ناحية كان رفاق حدتو في اللجنة المركزية هم الذين قادوا في الأساس حملة التغيير في الموقف السياسي للحزب: كان ذلك في سجن القناطر والواحات، والوضع في سجن أبي زعبل وفي الخارج يعرفه رفاق آخرون غيري (أحمد الرفاعي ـ بهيج نصار) وتلك الحملة من أجل تغيير الموقف السياسي أكتسبت حتى بعض الرفاق من ممثلي المنظمات الصغيرة في اللجنة المركزية للحزب الموحد.

وإن كان البعض منهم ظل على إصراره في التمسك بالموقف القديم، أذكر من هؤلاء الآخرين على وجه التحديد عدلي جرجس (النجم الأحمر)، وعبد الله كامل (طليعة الشيوعيين). الخلاصة أن غالبية اللجنة المركزية للحزب الموحد من رفاق حدتو وغيرهم أقرت السياسة الجديدة للحزب، وكان هذا الإقرار يعني المراجعة الكاملة لتلك الوثائق السياسية التي تمت على أساس وحدة الموحد.

لم تعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ديكتاتورية عسكرية أمريكية. كما ورد في وثائق الحزب الموحد (التاكتيك) بل أصبحت حسبما معطيات الواقع السياسي المحسوس والذي لا يمكن إنكاره حلقة من حلقات الثورة الوطنية الديمقراطية. كما قالت ـ حدتو ـ في وثائقها أثناء إندلاع ثورة يوليو ١٩٥٢. وكان مستحيلاً فصل هذا الواقع الجديد عن الماضي. إذا كان من الضعف أن يتصور أحد، أن القادة العسكرية الأمريكان بل والفاشيست ـ كما ـ تقول (د. ش والراية والمنظمات الصغيرة الأخرى ـ قد تحولوا فجأة إلى رفاق وطنين معادين للاستعمار بعنف ووضوح في ١٩٥٥. وإذا كان تاكتيك الموحد قد نص على إسقاط الديكتاتورية وإقامة حكم الجبهة الوطنية الديمقراطية. فقد أصبح الواقع السياسي الجديد يتطلب تأييد الحكم الوطني لعبد الناصر، ولم يكن من الممكن تصور افتقاد الصلة بين التأييد الحالي المطلوب والتأييد السابق الذي منحته (حدتو) لثورة يوليو ١٩٥٢ عند قيامها.

لم يحدث تغيير في الموقف السياسي للموحد فحسب، بل وحصل تعديل بالضرورة في الوضع التنظيمي وبالذات داخل اللجنة المركزية للحزب الموحد. فمن ناحية إنضم للجنة المركزية للموحد رفاق كانوا مستبعدين منها عملياً أثناء

إقامة الوحدة (كمال عبد الحليم) ومن جانب آخر كان عدد من الرفاق المركزيين من ممثلي المنظمات الصغيرة في الموحد يتعاملون بود ورفاقية عالية المستوى مع عناصر حدتو في القيادة المركزية للموحد أذكر من هؤلاء الرفاق (محمود أمين العالم ــ بهيج نصار ــ حسين غنيم) الثلاثة من النواه ــ وأحمد خضر من (النجم الأحمر) وفخري لبيب (طليعة الشيوعين). وكان الأخيران مسجونان بسجن الواحات مع الرفاق المركزيين من حدتو.

وبهذا التغير في الوضع القيادي المركزي أصبحت غالبية اللجنة المركزية جزءاً واحداً، وتياراً حزبياً متنامياً يصون وحدة الحزب. ويكفي في هذا الإطار أن اسوق مثلاً واحداً وهو أن الرفاق المركزيين الثلاثة (من النواه) الذين ذكرت أسماءهم فيما سبق، قد رفضوا كل محاولات (فوزي جرجس) لاحياء مجموعة النواة من جديد كانقسام عن الحزب الموحد وطبيعي أن هذا الصهر والإندماج تم عبر نضالات مشتركة سواء خارج السجن (الواحات) وداخله، بين من كانوا في حدتو أو خارجها.

هذا التحول في حالة الهزيمة السياسية لحدتو في الموحد إلى انتصار لها وانتقل أنصار حدتو في قيادة الموحد من وضع أقلية إلى وضع أغلبية، خلال شهور قليلة ــ غرس في نفوس الرفاق المركزيين في قيادة الحزب الموحد. وبالذات في الرافاق المركزيين الذين كانوا ينتمون سابقاً لحدتو، غرورا شديدا وثقة زائدة عن الحد، وتصوراً خياليا لا يستند إلى أي أساس مادي.

تصور هؤلاء أن ما جرى في الموحد بعد تكوينه، سيجري بالتمام والكمال حين تتم الوحدة بين الموحد والتنظيمين الآخرين. تصوروا أن الوحدة الجديدة في عام ١٩٥٧ سوف تنجز في النهاية كما نجحت وحدة الموحد، وأن ثلوج الكراهية من جانب التنظيمين الآخرين لرفاق حدتو (القلب الأساسي للموحد) سوف تذوب في النهاية. كما ذابت بعض تلك الثلوج داخل الموحد نفسه ــ هذه النظرة الخاطئة لم تدرك أن هناك فروقاً كثيرة بين تلك المنظمات الصغيرة التي إتحدت مع (حدتو) وبين تنظيمي الرايه ود. ش المعاديين للوحدة طوال تاريخهما.

٤ـ ما هي هذه الفروق؟

أولاً: كانت التنظيمات الصغيرة التي إتحدت مع حدتو في فبراير صغيرة العدد وهذا لا يشكل خطراً كبيراً في الموحد. حيث كانت عناصر حدتو في الموحد كاسحة عددياً. ولكن هذا لم يكن شأن الراية ود. ش فمهما قلنا عن قلة عناصر الراية، فقد كانت أكبر في مجموعها عن كل المنظمات الصغيرة. أما بالنسبة لـ د. ش فكانت أقدم عمراً، وأكبر عدداً بالطبع، وبالتالي فإن تفاوت الحجم كان يستدعي حذراً أكبر في معالجة قضايا الوحدة. فالوحدة مع مجموعات صغيرة لا ترتقي في خطورتها مع الوحدة مع مجموعات كبيرة العدد عضوياً، لما لهذه المجموعات من أثر سلبي في قضية صيانة الوحدة. إذ إختطت قيادتها السابقة، خطة معادية لوحدة الحزب تسعى إلى تقسيمه وتفتيته، كما جرى لوحدة ٨ يناير.

ثانيا: لم تكن للتنظيمات الصغيرة التي إتحدت مع حدتو في ١٩٥٥ نفوذ جماهيري وسياسي يذكر. فغالبية هذه التنظيمات أو العناصر المؤثرة فيها كانت في السجن أو المعتقل.

ومن هنا فالوحدة التي أنتجْت الموحد، تمت في السجن بالأساس ومن هنا فإن قضايا التنسيق في العمل الجماهيري لم تكن مطلوبة آنذاك، ولم تكن متاحة في الواقع العملي. ولابد أن نذكر كحقيقة أن بعض الرفاق من التنظيمات الصغيرة كان لهم دور جماهيري (محمود أمين العالم) في مجال المثقفين والأدباء، و(بهيج نصار) وسط العاملين في الإذاعة، وعلى عكس التنظيمات الصغيرة، فإن حدتو كان لها نفوذ جماهيري وسياسي، كميراث لذلك النضال الجماهيري من منتصف الأربعينيات وحتى أحداث مارس ١٩٥٤ وليس هنا مجال استعراض هذا التاريخ.

ماذا كان الوضع الجماهيري للرايه ود. ش ؟

طبيعي أن الراية لم تكن لها علاقات جماهيرية منذ تكوينها في ١٩٤٩ وحتى في سنوات الإزدهار ـ في مجال الحريات السياسية (١٩٥٠ ـ وحتى ٢٦ يناير ١٩٥٢) في ظل حكم الوفد، كانت الراية ترفع شعار التشكيلات السرية في السلام والحركة النقابية (لجنة سلام سرية، ونقابة سرية بينما كان واضحاً أن

الظروف السياسية تسمح بعكس ذلك، أي تسمح بالتشكيلات العلنية وهذا ما حدث فعلاً، فقد تأسست في تلك الفترة حركة سلام علنية وواسعة، ولجنة تحضيرية لاتحاد نقابات عمال مصر بتأثير ونشاط حدتو.

أما د. ش فكانت لها علاقات جماهيرية في مجال الحركة النقابية ووسط الطلاب ومع الطليعة الوفدية. صحيح أن هذه العلاقات لم ترتفع في تقييمها العام إلى مستوى العلاقات الجماهيرية لحدتو، ولكنها كانت أكبر بكل المقاييس عن علاقات تلك التنظيمات الصغيرة.

ان هذا الفقدان الكامل لأية علاقة جماهيرية كما هو الحال بالنسبة (للراية) ووجود بعض العلاقات الجماهيرية لـ د. ش، كان يتطلب قياس المسائل بدقة.

أي الحذر في معالجة قضية الوحدة مع هذين التنظيمين. وهنا سنترجم الحذر، في أنه كان من الضروري الحرص على إقامة علاقات تنسيق في العمل الجماهيري بين الحزب الموحد وهذين التنظيمين. كانت هذه العلاقات سوف تسمح في مسارها العام، إما ببناء علاقات جماهيرية ـ إيا كانت مستواها. بين الراية والجماهير وفي نفس الوقت كانت ستسمح بتصحيح تلك المفاهيم الخاطئة في العمل الجماهيري التي سادت في هذين التنظيمين. مما يؤدي إلى وحدة في الفهم، أو في مستوى أدنى ـ تقارب في الفهم المشترك لقضايا العمل الجماهيري بين الموحد وهذين التنظيمين وهذا ما لم يحدث، لفقدان الحذر. نحن نقول هذا رغم أننا لا نود في هذه الصفحات أن نتعرض بالتفصيل لتلك المفاهيم الخاطئة في العمل الجماهيري التي سادت صفوف هذين التنظيمين والتي أخرت مسار حزب ٨ يناير.

ثالثاً: لم تكن للتنظيمات الصغيرة التي إندمجت في الموحد، تقاليد راسخة ومقولات كاملة في تنظيم وتبرير المواقف السياسية الخاطئة والانتهازية التي كانت تتبناها، بحكم حداثة نشأتها، فغالبية هذه المنظمات الصغيرة تشكلت بعد عام ١٩٥٠، ونستثني هنا (النواة) التي كانت امتداداً للعصبة الماركسية التي تشكلت في ١٩٤٦.

لم تكن لهذه التنظيمات تلك التقاليد الراسخة والمقولات الكاملة، وهذا جعل بعضها يسير عملياً في فلك سياسات د. ش كالنجم الأحمر والنواة. هذا الوضع

ساعد على قبول هذه الأوضاع الجديدة في حياتي بعض العوامل، منها فصلي من الأزهر، وانقطاع صلتي بوالدتي واسرتي، بعد ان ساءت العلاقات بيني وبين أبي بسبب تمسكي باستمرار النشاط السياسي، كما ساعد عليه أنني كنت شابا (٢١ سنة آنذاك) ولم أرتبط بعد بحياة زوجية).

وأذكر هذه العوامل، لأن وجود ما يخالفها ويعاكسها كالحياة الأسرية التقليدية والمستقرة، وكبر السن، والارتباط بوظيفة برجوازية عوامل تثير التردد عند البعض في قبول الانخراط في سلك الثوريين المحترفين في العمل الحزبي.

وقد اكتشفت ذلك من تجربتي مع الكثيرين ممن كنت اجري معهم نقاشات في قبول مهمة (الثوري المحترف).

فترة قصيرة في بحري ثم اعتقلت:

كان المسئولون عن عملي في منطقة بحري هما (فؤاد عبد الحليم وحمدي عبد الجواد) وكانت بداية صلتي بهما هو ذلك العمل الجديد الذي أقوم به تحت اشرافهما.

وكانت هناك لجنة قيادية واسعة تشرف على العمل في بحري تحت إشراف (فؤاد عبد الحليم وحمدي عبد الجواد)، كنت عضوا في هذه اللجنة، وكان معي حسبما أذكر (فهمي زغلول والعسكري " رزق " جندي المطافي بالزقازيق).

وكانت مهمتي الحزبية أن أشرف على العمل الحزبي في المحلة ودمنهور، وكنت أحس أن هذا النشاط في المدينتين لا يلبي رغباتي الثورية المليئة بالحماس، فقد كان صغر سني يعطيني طاقة هائلة للعمل الثوري.

لكن الزمن لم يمهلني لأعيش هذه التجربة في بحري بشكل كامل، وقبل ان أسرد وقائع القبض علي أن أسجل تجربة شخصية عشتها مع الرفاق في دمنهور.

كان عدد الرفاق في مدينة دمنهور قليلا، وكان منهم موظف شركة الكوكاكولا (عبد المنعم مكي) والأديب القصاص (محمد صدقي) وبقال لا أذكر اسمه، وكان هناك آخرون وكانت تلك المدينة بعيدة عن التيارات والمنظمات

أتاح إمكانية تصفية الخلافات السياسية داخل الحزب الموحد بين سياسات حدتو التي كانت تمثل التيار الثوري وبين سياسات تلك التنظيمات وحدد مسار هذا الصراع بإنتصار حدتو، كما سبق وأشرنا. وعلى العكس من ذلك، كانت تقاليد د.ش ومقولاتها الإنتهازية راسخة رسوخ منظمة شيوعية تكونت في الاربعينيات يكفي أن نقرر أنها كانت القطب الرئيسي المعادي لحدتو طوال التاريخ، ومن هنا فإن د. ش في الحقيقة كانت طوال تاريخها قائدة التيار الانتهازي في الحركة الشيوعية المصرية، وهذه القدرة سمحت لها بأن تقود (الراية) في الخط الانقسامي بعد تشكيل حزب ٨ يناير .. لم تكن الراية قديمة، كـ د. ش ــ فقد تكونت، كبداية في عام ١٩٤٩، وتشكلت كحزب رسمي ومعلن في ١٩٥٠ ولكن الراية رغم حداثة تكوينها، صاغت مواقفها السياسية في شكل وثائق (الاستراتيجية)، وكانت منتظمة في إصدار مجلة راية الشعب، وكل هذه الكتابات عبرت ورسخت مقولات سياسية خاطئة وانتهازية وكلنا نذكر أن عناصر الراية ــ في الخمسينيات ــ كانت تفتخر بأن تنظيمهم حدد قوله الذي لا يقبل الجدل في كل شيء، حتى بما في ذلك القول في تقييم الأدب المصري. حيث قرروا أن الشعر الثوري والأدب الثوري هو ذلك الذي ينشر في مجلة راية الشعب. وتفضلوا بإسباغ تلك الثورية على قصيدة عبد الرحمن الشرقاوي. (من أب مصري إلى ترومان) ورثاء خالد محمد خالد في وفاة ستالين ومادون ذلك ليس أدباً ثورياً، سواء في تاريخه الحديث بعد الأربعينيات أو ما سبق ذلك.

ان هذا الفرق في وصفية التقاليد والمقولات النظرية بين التنظيمات الصغيرة من ناحية والراية ود. ش من ناحية أخرى. كان يستدعي الحذر من جانب قيادة الموحد في قضية معالجة الوحدة مع هذين التنظيمين.

رابعاً: لم تكن غالبية المنظمات التي اتحدت مع حدتو وكونت الموحد معادية لقضية الوحدة الشيوعية الشاملة. كما كان الأمر بالنسبة للراية ود. ش. ونحن نستثني من هذه التنظيمات ــ تلك المجموعة التي كانت وثيقة الصلة بفوزي جرجس في تنظيم النواه. وهذه المجموعة هي التي إنقسمت عن الموحد في عام ١٩٥٦ وأحيت النواه من جديد. مصداقية هذا التقييم تنبع من أن هذه المنظمات الصغيرة دخلت مفاوضات الوحدة مع حدتو عامي ١٩٥٣، ١٩٥٤ ونتج عنها تشكيل الموحد في ١٩٥٥. بل وفي بعض الأحيان كانت هذه

التنظيمات الصغيرة مستعجلة في إتمام وحدة الموحد، بدوافع عديدة منها. وجود غالبيتها داخل السجون دون امتدادات في الخارج. والرغبة في الاستفادة التنظيمية من استغلال النزعة السياسية لمواقف حدتو من ثورة يوليو ١٩٥٢ بالحصول على الأغلبية في ل. م الموحد وهذا ما حدث. وعلى العكس من ذلك كله، كان التنظيمان (الراية ود. ش) معاديان للوحدة طوال تاريخهما فـ د. ش وهي الأقدم كانت ترفض الإنضمام لمفاوضات أية وحدة شيوعية وإذا أضطرت للانضمام كانت تنسحب منها بسرعة شديدة، وكانت تعتبر أن مهمتها المقدسة، هي إفشال أية وحدة شيوعية تظهر في الطريق، وكلنا يذكر سعيها إلى تشكيل جبهة معادية لحدتو في بداية تكوينها. كانت هذه الجبهة بقيادة د. ش وانجرت إليها منظمات صغيرة كانت موجودة في حينها. وفي الفترة الحديثة من ١٩٥٣ وحتى ١٩٥٥ رفضت د. ش الإنضمام لمفاوضات الوحدة، وشنت حملة واسعة من العداء حين تكون الحزب الموحد. وبالنسبة للراية، فإن مقولتها السياسية المعادية للوحدة كرستها العبارة التي أطلقتها وهي (لا شيوعية خارج الحزب) والمقصود هنا حزب الراية، وظلت تدافع عن هذه المقولة طوال الفترة من بداية الخمسينيات وحتى نهايات ١٩٥٦. وكان التنظيمان يشيعان معاً اتهامات بوليسية بالنسبة لعناصر المنظمات الأخرى. وبالذات ضد عناصر حركة حدتو.

ومن هنا كان انجرار هذين التنظيمين إلى الوحدة عام ١٩٥٧ كان محاولة لإحناء الرأس أمام عاصفة التيار التوحيدي الذي تصاعد في الحركة الشيوعية المصرية مع تشكيل الحزب الموحد، ولم يكن اقتناعاً كاملاً بقضية الوحدة.

وهذا ما سهل لهما تحطيم وحدة الحزب الذي تشكل في يناير ١٩٥٨ .. هذا العداء الشديد لوحدة الشيوعيين من قبل هذين التنظيمين كان يتطلب الحذر من القيادة المركزية للموحد. إذا لم يكن منطقياً أن يتحول بهذه السرعة الشديدة — أعداء الوحدة بالأمس إلى أنصار لها اليوم إلا إذا كان الهدف تكريس الإنقسام تحت شعارات وأعلام الوحدة وفعلاً فإن العداء الحقيقي والجوهري للوحدة، والذي تغذى ونما عبر سنوات عديدة. كشف عن أنيابه بعد شهور قليلة من الوحدة، ونجح في تسديد خناجره واحداث الانقسام في منتصف عام ١٩٥٨.

خامساً: حين تمت وحدة الموحد كانت حدتو منهزمة سياسياً وكانت مضطرة إلى تقديم تنازلات كبيرة في المسائل التنظيمية. وبالذات في تكوين

اللجنة المركزية للحزب. ولكن في عام ١٩٥٧ كان الموقف قد تغير تماما، في الوضع السياسي العام وفي داخل الحزب الموحد نفسه. وحتى الراية ود. ش أصبحتا تؤيدان سياسة عبد الناصر في الكفاح ضد الاستعمار الأنجلو ــ أمريكي، وأصبحتا لا تجهران بسلامة موقفيهما السياسي عند قيام ثورة يوليو ١٩٥٢.

هذا التغير في الموقف السياسي لصالح " الموحد " وبالذات للكتلة الرئيسية "حدتو" كان لابد أن يربطه نوع من التشدد في سياسة " الموحد " في قضية الوحدة مع التنظيمين الأخرين ولا نعني بالتشدد هنا رفض الوحدة من حيث المبدأ. بل كان الأمر يتطلب نوعاً من الوقفه السياسية الحازمة إزاء الاتجاهات السياسية الخاطئة والانتهازية لهذين التنظيمين. وكان من الصعب طبعاً المراجعة الكاملة لتلك السياسات منذ نشأة التنظيمين. ولذا كان من الضروري ــ على الأقل ــ مراجعة تلك السياسات بدءاً من ٢٣ يوليو ١٩٥٢. وكان لابد من مطالبتهما ــ قبل تمام الوحدة ــ بنقد معلن لموقفهما السياسي الخاطئ من تلك الثورة سواء القول بالفاشية من قبل الراية. أو ديكتاتورية عسكرية من قبل د.ش. وكان لابد من انتزاع اعتراف منهما بانها كانت حلقة من حلقات الثورة الوطنية الديمقراطية كما قالت حدتو. ولو حدث هذا لكان من الضروري والحتمي التعرض للأسباب الحديثة والقديمة التي أدت بهما إلى انتهاج هذا الموقف الانتهازي من الثورة. وقد يسأل سائل **وما السبب من وجهة نظري؟** في اعتقادي أن خطأهما القاتل من ثورة يوليو ١٩٥٢. كان مرتبطاً وناتجاً عن هذا النهج السياسي العام الخاطئ طوال تاريخهما.

وهذا ناتج عن عزلتهم عن حركة الضباط الأحرار والعمل السياسي والتنظيمي داخل القوات المسلحة. مما أدى بهما إلى تحليل أحداث تلك الثورة من خلال البحث السطحي في فقرات من هذا الكتاب أو ذاك. قد لا تتلاءم مع الواقع المتغير في وطننا.

ان فقدان الحذر، في توضيح وتحديد من هو المنتصر سياسياً ومن هو المنهزم إدى إلى نتائج خطيرة وأضر في النهاية بقضية الوحدة.

النتيجة الأولى: تمت الوحدة في مرحلتيها، دون أن يتضح من هو المهزوم ومن هو المنتصر واختلط الأمر وبدا وكأن المنتصر الكل كان منتصراً، الا يؤيد

الجميع الآن سياسة عبد الناصر الوطنية. هذا بالنسبة للحاضر، وفيما يتعلق بالماضي فقد بدا لكل طرف من الأطراف التي دخلت الوحدة أنه المنتصر. من كان يؤيد ثورة يوليو ١٩٥٢ عند قيامها منتصر ومن كان يهاجمها بالفاشية منتصر. كما أن من كان يتهمها بالديكتاتورية العسكرية منتصر. وهذا الغموض في تحديد الأوضاع السياسية ضار جدا.

النتيجة الثانية: إن قواعد الراية ود. ش ظلت على قناعتها بقيادتها المركزية الحزبية سياسياً. رغم أنها كانت مخطئة وبشكل خاص في تحليل أحداث ثورة يوليو ١٩٥٢.

وأية مناقشة حقيقية للأوضاع كانت ستضع الأمور في نصابها أمام تلك القواعد بحيث تكتشف الأخطاء. وتكون أقل انسياقاً وراء تلك القيادات في أي تحول سياسي أو تنظيمي جديد.

النتيجة الثالثة: ان فقدان الحذر، ساعد على أن تعود قيادات حزب ٨ يناير، من العناصر المنتمية لـ د. ش (أبو سيف يوسف ورفاقه) والمنتمية للراية (فؤاد مرسي ورفاقه) إلى إتهام عبد الناصر وقيادة يوليو بالعمالة لأمريكا. وخدمة الرأسمالية المصرية الكبيرة بعد أحداث يناير ١٩٥٩ ـ حين شن عبد الناصر حملة على العراق والاتحاد السوفييتي والشيوعيين العرب.

بينما كان الأمر المنطقي والسليم هو التمسك بوطنية عبد الناصر مع تخطئته سياسيا في هجومه الشامل في تلك الفترة. إذ من الطبيعي، كما أثبتت الأحداث أن ينتهج أي قائد وطني أو أية قوة وطنية سلوكاً خاطئاً يخدم في النهاية موضوعياً الاستعمار والقوى العميلة. ولو كانت أحداث الماضي نوقشت لما سلكت الراية ود. ش نفس المسلك في ١٩٥٩. فإن من يعترف بخطئه من الصعب عليه أن يعود إليه مرة أخرى.

والنتيجة الرابعة الخطرة، هي أن القياديين من د. ش والراية في حزب ٨ يناير. استقبلوا الوقائع السياسية التي حدثت بعد وحدة مصر وسورية في تضليل قواعدهما. وصوروا الأمر على أن عناصر حدتو تعود إلى نفس سياستهم القديمة تأييد ثورة يوليو، وبهذا التضليل. مهدوا لعملية الانقسام في حزب ٨ يناير.

ان عدم إدراك الفروق التي أشرنا إليها. كفروق جوهرية بين مرحلتي ١٩٥٥ حيث تشكل الحزب الموحد، ومرحلة ١٩٥٧، ١٩٥٨ حيث تشكل المتحد. فالحزب الموحد هو الذي أفقدنا الحذر، الذي ساهم بشكل أو بآخر في إفشال المحاولات التوحيدية في ١٩٥٧. حيث انفرط في النهاية حزب يناير.

٥ ــ تشكيل المتحد. في ١٩٥٧

وحدة (المتحد) تمت في منتصف ١٩٥٧، بعد عدة جلسات للجنة المفاوضات ــ من أجل الوحدة، بين الموحد والراية. لا أذكر بالدقة كل أعضاء تلك اللجنة من الجانبين وان كنت أظن أن محمود أمين العالم وأنا كنا نمثل الموحد، بينما سعد زهران وعادل سيف النصر كان يمثلان الراية.

كانت تلك اللجنة في عجلة من أمرها لاتمام الوحدة بسرعة شديدة تمشياً مع الاتحاد العام الذي كان سائدا آنذاك حول قضية الوحدة في ١٩٥٧ هي أهم قضية يجب التصدي لها. فكانت قيادة الراية أكثر عجلة، دافعها في ذلك هو انقاذ نفسها من التصفية التي كانت ستواجه تلك القيادة. إذا طرح الموقف السياسي أمام قواعدها ذلك السؤال الجوهري. وهو هل كانت الراية على صواب في تحليل أحداث يوليو ١٩٥٢: وفي ارتباط مع ذلك هل كانت الراية على صواب في مجمل سياساتها بعد ١٩٥٠.

دمج مجموعة من م. ش. م إلى صفوفها، حتى ولو فرضنا أن الراية لم تسعى إلى ذلك فإنها على الأقل رحبت باستقبال هؤلاء الرفاق في صفوفها. معلوماتي ليست دقيقة في هذا الصدد، إنما يمكن الرجوع إلى الرفاق الذين عاصروا تلك الفترة، وكانوا جزءاً من عناصر م. ش. م (نبيل الهلالي ــ فاطمة زكي ــ محمد عباس سيد أحمد ــ بولس لصف الله ــ المهندس محمود المستكاوي).

ولكن الشيء المؤكد، أن هذه المجموعة لم تكن تشكل فيما بينها حزباً أو تنظيماً. انما كانت شلة فيما بينها بعض الارتباطات التاريخية. كلها كانت في م. ش. م. قبل تصفيتها عامي ١٩٥٠، ١٩٥١. (حسب اختلاف الروايات في تاريخ حدوث التصفية). وقد تكون هناك عوامل شخصية ساعدت على هذا الدمج في الراية، وإلا فما السبب في أن هذه المجموعة لم تتجه للدمج في الموحد. ويبدو

أن محمد عباس سيد أحمد ومحمود المستكاوي كانا ممثلي هذه المجموعة في ل. م الراية، فقد فوجئنا بهما في اللجنة المركزية للمتحد ضمن ممثلي الراية. وقد أنشأ محمد عباس سيد أحمد دار نشر بالقاهرة تحت اسم (دار الديمقراطية) وتم نشر كتاب أو كتابين في هذه الدار، ولا يمكن مقارنة فعالية هذه الدار في النشر بفعالية دار الفكر التي كان يحتشد فيها أكبر عدد من الكتاب والفنانين الذين كانوا أعضاء في الحزب الموحد أو على علاقات به ورغم أية ملاحظات سياسية على مجموعة م. ش. م التي اندمجت في الراية. فإن تكوين دار الديمقراطية والجهد المتواضع الذي قامت به كان إضافة للعمل الثوري بشكل عام.

وللحقيقة لا أعرف هل تم تكوين هذه الدار قبل إندماج المجموعة في الراية أم بعدها؟ وهل كان جهدا فردياً من محمد عباس سيد أحمد ومبادرة منه أم كان جهداً جماعياً، على أي حال هذه الحقيقة يمكن أن يسأل عنها محمد عباس سيد أحمد وكانت هناك في الراية من حيث علاقتنا به عملية أكثر غرابة وهي المفاجأة في ل. م المتحد بأن الدكتور عبد العظيم أنيس ضمن ممثلي ل. م المتحد وسوف نتحدث عن هذه المسألة حين التعرض للمشاكل التي حدثت داخل المتحد.

لم يحدث تنسيق في العمل الجماهيري:

نتيجة التعجل في إتمام الوحدة. لم يجر أي تنسيق حقيقي في العمل الجماهيري وخاصة أن الراية كانت لا تقيم أي علاقات مع الجماهير وكان هذا حصاد سياستها الانعزالية اليسارية وبالتالي لم يكن مندوبو الراية في لجنة المفاوضات متحمسين لقضية التنسيق في العمل الجماهير.

كان هذا خطأ سياسيا من رفاق الموحد. فقد أثبتت الأحداث دائماً أن أية وحدة في الحركة الشيوعية يسبقها تنسيق في العمل الجماهيري يكون عمرها أطول وعلاقات رفاقها احسن إلى جانب فرز الأفكار السليمة عن الخاطئة خلال العمل.

ولم يكن الأمر هكذا بالنسبة للحزب الموحد، فقد كانت له علاقات جماهيرية، تأثرت بشكل أو بآخر بعاملين:

الأول: قصر عمر الحزب الموحد (١٥ شهر فقط) في وقت كان فيه عـــدد هام من قادته الحزبيين والجماهيرين في السجن (الواحات).

الثاني: أن الموحد كان يعتبر الهدف الرئيسي له هو إتمام الوحدة ــ وكـــان هذا خطأ بالتأكيد ــ ونتيجة لهذا الخطأ لم يول الاهتمام الكاف للعمل الجماهيري، لتوسيع نطاقه كميا ونوعياً. لقد تواجدت علاقات جماهيرية للموحد. فمن خــلال المشاركة الايجابية في المعركة المسلحة لصد العدوان في بور سعيد، تشـــكلت لـــه علاقات سياسية مع عدد من الضباط الأحرار (كمال رفعت / محمــد أبــو نار) وفي مسار بناء اتحاد عام لنقابات عمال مصر. والاتحاد الدولـــي للعمـــال العرب ــ تشكلت علاقات قوية بين الموحد وبعض العناصر القيادية في الحركة النقابية المصرية (فتحي كامل ــ أحمد فهيم ــ كامل العقيلي ــ عبـــد العزيـــز مصطفى). وساعد على هذا الدور الذي كان يمارسه مكتب نشر الثقافة العماليـــة الذي كان يشرف عليه الزميل (محمد على عامر) ويعاونه فيه (نـــور سـليمان جاسر/ عبد المنعم الغزالي ــ سيد عبد الوهاب، والاستاذ/ عبد العزيز بيومـــي المحامي).

ومن ناحية أخرى، كان هناك الدور البارز الذي تمارسه (دار الفكر) التـــي كان يشرف عيها الزميل/ إبراهيم عبد الحليم، في نشر الثقافة الوطنية والتقدميـــة وفي تنشيط حركة المثقفين المصريين من الكتاب والفنانين.

وكان للموحد بعض التواجد في المناطق العمالية وكـــان هـــذا اســـتمراراً للصلات القديمة التي تكونت بين عناصر حدتو، تلك المناطق (شبرا الخيمـــة ــ النقل بالاسكندرية). وعلى أي حال، هذه الصفحات ليست مكرسة لسرد جوانـــب العمل الجماهيري للحزب الموحد. انما كان الهدف هو إبراز أن الراية لم تكـــن تمتلك علاقات جماهيرية. بينما كان للموحد بعض هذه العلاقات. إبـــراز هـــذا الجانب بشكل عام هام حتى لا يقول أحد أن عدم وجـــود تنسـيق فـــي العمـــل الجماهيري قبل الوحدة. هو أن الموحد لم تكن له علاقات جماهيريـــة كالرايـــة تماما.

الوضع التنظيمي لكل من الراية والموحد قبل الوحد:

كما قلنا سابقا، فإن الراية قبل الوحدة، كانت مهددة بالتصفية، ولذا حـــاولت تقوية نفسها، ورفع معنويات رفاقها، بضم مجموعة م. ش. م أو كسب بعـــض

الشخصيات الماركسية القديمة (د. عبد العظيم أنيس) وفعلاً، كان التواجد التنظيمي للراية محدوداً، سواء من ناحية الكم أو الانتشار الجغرافي، حيث كانت تتواجد بأعداد قليلة في القاهرة والاسكندرية. وكان لها مندوب في مدينة الزقازيق بالشرقية هو المهندس/ محمود المستكاوي، الذي انضم مع مجموعة م. ش. م إلى الراية وكان متواجدا في الزقازيق بحكم عمله البرجوازي الذي يتعيش منه. وكان للراية في سجن الواحات عدد لا بأس به من الرفاق (مصطفى طيبة ــ داود عزيز ــ طوسون كرولس ــ مجدي فهمي وآخرين).

هذا الوضع زاد من ضعف الراية تنظيميا في الخارج. إذ يبدو أن هذه العناصر هي التي كانت أكثر فاعلية في الراية قبل الضربات التي تلقتها. ويعكس ضعف الراية قبل الوحدة انها لم تكن تمتلك محترفاً ثورياً واحداً، بل أصبح ــ كما سيتضح فيما بعد ــ تنظير كامل لقضية عدم الاحتراف في الحزب.

والراية حين دخلت الوحدة. لم تقدم جهازا فنيا واحداً للحزب المتحد، والحقيقة ليست واضحة للآلاف ويمكن يسأل عنها قادة الراية. فليس واضحا هل كانت تمتلك جهازا فنيا واخفى عن الحزب المتحد. حسابا لطوارئ المستقبل أم كانت لا تمتلك أي جهاز. باختصار شديد، دخلت الراية في المتحد وهي في منتهى الضعف التنظيمي. عدد قليل من الأعضاء. تواجد جغرافي محدود جداً، لا محترفين ثوريين، لا أجهزة فنية، وقبل هذا أو ذاك لا عمل جماهيري على الاطلاق. وعلى العكس من ذلك، كان وضع الحزب الموحد الذي تميز بقوته، فكان متواجداً في عدد من محافظات قبلي وبحري، إلى جانب التواجد التنظيمي في المدن الكبرى (القاهرى ــ الاسكندرية ــ بور سعيد) وكان عدد العضوية كبير. وكان للموحد عدد من الثورين المحترفين قبل الوحدة أذكر منهم (صاحب هذه الصفحات ــ محمد علي عامر ــ سعد رحمي ــ عبد المنعم شتله ــ عدلي جرجس ــ حسين غنيم ــ محمد عباس فهمي ــ فؤاد حبشي ــ سيف الدين محمد صادق ــ كمال عبد الحليم ــ طاهر البدري ــ شحاته عبد الحليم ــ أحمد سليم وآخرين لا أذكر أسماءهم الآن. وكان العدد الهائل للثورين المحترفين من الموحد ــ تثير الفزع لدى رفاق الراية بعد الوحدة وقد تعاونوا مع لا شيء في حزب ٨ يناير ضد سياسة الاحتراف والمحترفين. وهذا أمر

سنعود إليه فيما بعد. كان سر فزع الراية من قضية الاحتراف الثوري بشكل خاص يعود إلى المنهج النضالي الذي يتصور أن حزباً ثوريا يمكن أن يقوم في بلد، وينجح في إقامة سلطة الشعب. بدون ثوريين محترفين. وتطبيقا لهذا المنهج كان أهم قادة الراية مرتبطين بأعمال برجوازية ذات أهمية في المجتمع المصري فالدكتور/ فؤاد مرسي (سكرتير عام الراية) كان استاذاً بكلية الحقوق ــ جامعة الاسكندرية، والدكتور/ إسماعيل صبري كان مسئولاً هاما في المؤسسة الاقتصادية التي كانت تتولى إدارة المشروعات التي أممت بعد العدوان الثلاثي على مصر. إذن كيف يمكن أن يستقيم هذا الوضع مع تبني سياسة الإحتراف الثوري في حزب ما.

إذا كانت الراية فزعه من عدد من المحترفين الثوريين في الحزب الموحد. فإن السلطة المصرية كانت تشاركها هذا الفزع، أذكر واقعة ذات مغزى هي أن مطلب الإفراج عن المسجونين الشيوعيين في الواحات كان قد تصاعد بعد صد العدوان الثلاثي على مصر. وخاصة بعد مساهمة الشيوعيين المصريين بدور بطولي فيه، وكان منهم بعض القادة من الثوريين المحترفين (أحمد الرفاعي ــ سعد رحمي ــ عبد المنعم شتله)، في هذا الوقت قال زكريا محيي الدين وكان وزيراً للداخلية قولته المشهورة " لا يمكن الإفراج عن سجناء الواحات لأن فيهم عددا كبيراً من الثوريين المحترفين" والحزب الموحد هو الذي قدم الأجهزة الفنية للحزب المتحد لاصدار جريدته وبياناته السياسية.

الوثائق السياسية والتنظيمية للحزب المتحد:

حالة التعجل في إتمام الوحدة، التي سادت مرحلة المفاوضات والتي جرت بين الراية والموحد، أثرت سلباً بشكل عام. كما سبق أن أشرنا. وإمتد هذا التأثير ــ بالطبع ــ على الموقف من الوثائق السياسية والتنظيمية. فلم يكن هناك إهتمام كاف بمسألة الوثائق لدرجة أنني شخصياً ــ لا أذكر الآن ــ على وجه التأكيد ــ هل تم الاتفاق قبل وحدة المتحد على وثائق سياسية وتنظيمية أم لا؟ وإن كنت أرجح أنه تم الاتفاق على وضع لائحة للحزب توضح مساره. ويمكن التأكد من خلال ملفات القضايا الشيوعية أو من بعض الرفاق الذين عاصروا تلك الفترة من حقيقة الاتفاق على وثائق سياسية وتنظيمية وإذا افترضنا وهذا ــ ما سيثبته المستقبل ــ أن كانت هناك وثائق سياسية وتنظيمية، فأنا أذكر على وجه القطع

أنه لم تحدث خلافات حولهما. كان السبب في ذلك أن قضايا سنوات ١٩٥٦، ١٩٥٧ لم تكن محل خلاف. كان الخلاف سيثار حتما لو أثيرت قضايا سياسية في الماضي وبالذات قضية الموقف من ثورة يوليو ١٩٥٢، وهذا ما لم يحدث في جو التعجل الذي ساد تلك المرحلة.

تشكيل اللجنة المركزية للمتحد:

كانت رغبة الراية ــ خلال المفاوضات ــ هي تشكيل اللجنة المركزية للمتحد بالمساواة بين ممثلي الموحد والراية. ولكن هذه الرغبة رفضت بالكامل من جانب الرفاق في الموحد. أو لم تكن رغبة الراية مبنية على أساس مادي أو واقعي ــ فكما عرضنا سابقا ــ كان هناك تباين كامل بين التنظيمين في كل الجوانب ــ في حجم العضوية في مدى الانتشار الجغرافي وفي العلاقات بالجماهير، في إنعدام الثوريين في الراية. ووجودهم يكثر في الموحد.

وأخيرا تخلت الراية عن رغبتها وتشكلت اللجنة المركزية للمتحد بعدد أكبر للموحد. وإن كان الفرق لم يكن كبيرا بين ممثلي التنظيمين في القيادة المركزية الجديدة. وهناك واقعة هامة وذات مغزى حدثت في تلك الفترة توضح الفرق بين تفكير الرفاق في الموحد وتفكير الرفاق في الراية. كانت هذه الواقعة تتعلق بقضية هل يكون الرفاق المسجونين وضع في القيادة المركزية الجديدة أم لا؟

كان تفكير الرفاق في الموحد، أن يكون الرفاق المسجونون ضمن القيادة الجديدة، وعلى هذا الأساس كان من ممثليهم في تلك القيادة الرفاق (زكي مراد ــ محمد شطا ــ فخري لبيب ــ أحمد خضر) رغم أن هذا كان يقلل من نسبة الأصوات التي يملكها الحزب الموحد في القيادة المركزية خارج السجن. وكان هذا مصدر سرور لرفاق الراية. كانت وجهة نظر الرفاق في الموحد مؤسسة على أن عزل الرفاق القادة عن مراكزهم في القيادة لمجرد أنهم دخلوا السجن أو الاعتقال موقف غير ثوري. معناه أن العدو الطبقي الذي يملك سلاح السجن أو الاعتقال، هو الذي يحدد مصائر الأمور بالنسبة للرفاق القادة. ولم يكن هذا الأمر جديدا أو طارئا بالنسبة لرفاق الحزب الموحد. فمنذ الخمسينيات كان هذا هو التقليد الثوري السائد، وكانت هذه القضية محل صراع حاد في حدتو في ٥٣، ١٩٥٤، حين تولت اللجنة المؤقتة (محمود توفيق ــ عبد الجابر خلاف ــ صلاح حافظ .. الخ) مهام وقيادة حدتو في الخارج بعد اعتقال وسجن قادتها

الانقسامية ولكن الرفاق في تلك المدينة، كان يشوب نشاطهم نوع من الخوف والتردد، وخاصة بعد ان اتسعت الحملات البوليسية ضد الشيوعيين من إعتقال أو سجن.

وقد تجسد هذا الخوف في واقعة لا أنساها وأرددها دائما أمام من ينتمون لتلك المدينة، والبطل الأساسي في تلك الواقعة كان (عبد المنعم مكي).

نزلت دمنهور ومعي قرش صاغ واحد في جيبي، ويجسد هذا الحياة القاسية للثوريين المحترفين آنذاك، وكنت أتوقع أن أغادر دمنهور ومعي بعض القروش القليلة في جيبي من (الاشتراكات ـ ثمن مجلة كفاح العمال التي كانت تصدر آنذاك).

بعد إقامة أربعة أيام في منزل (عبد المنعم مكي) وقبيل ساعات المغادرة، طلبت منه أن يعطيني بعض القروش، لأواصل سفري إلى طنطا فالمحلة الكبرى، وفوجئت باعتذاره عن إمدادي بمليم واحد من الاشتراكات وثمن المطبوعات، أو كسلفة شخصية أردها إليه، وخاصة أنه يعرفني جيدا باعتباره من أبناء النوبة المصرية.

وبدا الأمر واضحا، فتصرفه لم يكن بخلا، بقدر ما كان خوفا ورسالة منه، بأن لا أعود إلى دمنهور مرة أخرى، والرسالة كانت للمنظمة (حدتو).

كنت مطلوبا للاعتقال، ولذا لم أغامر بركوب القطار دون أن يكون في جيبي مليم واحد، غادرت دمنهور في الصباح وسرت على قدمي حتى وصلت كفر الزيات (حوالي ٦٠ كيلو)، وأشفق على جندي مرور في الطريق الزراعي بعد مدينة كفر الزيات وتوسل إلى سائق سيارة نقل أوصلتني مدينة طنطا.

القبض علي في أغسطس ١٩٤٨:

كان السبب المباشر للقبض علي هو ان مباحث المحلة الكبرى اكتشفت أحد عناصر حدتو في مصنع المحلة الكبرى وكان شخصا حديث العضوية، وبممارسة نوع من الضغط اعترف لهم بموعد لقائي معه ومكانه.

المركزيين. كانت اللجنة القيادية المؤقتة، تحاول انتزاع السلطة الحزبية من الرفاق المركزيين في حدتو. أو على الأقل تحاول تقليص سلطاتهم إلى أبعد الحدود، وفي النهاية انتصرت السياسة المبدئية التي تقول أن وضع الرفيق في قيادة الحزب لا يتغير بدخوله السجن أو الاعتقال. وفعلاً سارت حدتو ثم الموحد بعد ذلك على هذه السياسة التنظيمية السليمة وكان هذا هو السبب في احتفاظ الحزب الموحد بالرفاق المركزيين (زكي مراد ــ محمد شطا ــ أحمد خضر ــ فخري لبيب) ضمن ممثليها في القيادة المركزية للمتحد. وعلى العكس من ذلك تصرفت قيادة الراية. وأقل ما يقال عن هذا التصرف هو أنه انتهازي وغير مبدئي إذا أخذت الراية ــ واقعياً ــ بسياسة أن القائد المسجون أو المعتقل لا مكان له في القيادة المركزية. كان هناك عدد من القادة الذين ينتمون للراية في سجن الواحات. مع هذا لم تتقدم الراية بأي واحد منهم في القيادة الجديدة، وليس من المعقول أن يقال أن كل الرفاق المركزيين في الراية. أو في الخارج أفضل ممن في السجن. كان في السجن داود عزيز، الذي كان أحد القادة الثلاثة الأساسيين في الراية قبل سجنه، وكلنا يذكر الهتاف الذي كان يردده رفاق الراية في السجن (عاش خالد/ عاصم/ غالب) إشارة إلى الأسماء الحركية للدكتور/ فؤاد مرسي والدكتور/ إسماعيل صبري وداود عزيز (غالب) ومع هذا لم يقدم غالب هذا إلى القيادة المركزية الجديدة. بينما قدمت الراية (إلهامي سيف النصر، وقريبه عادل سيف النصر) وبمقاييس الراية لاشك أن داود عزيز كان أفضل من إلهامي سيف النصر. وكان السبب في تجنب أي تمثيل للراية من داخل السجن هو الاحتفاظ بأكبر عدد من الأصوات في القيادة المركزية بالخارج. إلى جانب الإقتناع التقليدي بأن من دخل السجن لا دور له في القيادة المركزية. وقد سبب هذا الوضع ــ فيما بعد ــ مشاكل في مجموعة الراية، في حزب ٨ يناير وخاصة بعد يناير ١٩٥٩ حيث تجمع من كانوا في الخارج والداخل في مكان واحد (سجن الواحات). لا أذكر بالدقة الآن كل أسماء ممثلي الموحد والراية في ل. م المتحد حيث مضى على تلك الواقعة التاريخية أكثر من ربع قرن ولكن حسبما أذكر فإن ممثلي الموحد في تلك اللجنة كانوا (زكي مراد ــ شهدي عطية الشافعي ــ محمود أمين العالم ــ أحمد الرفاعي ــ محمد الجندي ــ كمال عبد الحليم ــ فخري لبيب ــ مبارك عبده فضل ــ أحمد خضر ــ علي عامر ــ عدلي جرجس ــ عبد المنعم شتله ــ سعد رحمي. ولا أذكر بالدقة هل كان

الرفيقان (بهجيج نصار ــ حسين غنيم) في تلك اللجنة أم لا ؟ أما ممثلو الراية في تلك اللجنة فكانوا (الدكتور/ فؤاد مرسي ــ الدكتور/ إسماعيل صبري ــ الدكتور/ عبد العظيم أنيس ــ الدكتور/ شكري عازر ــ سعد زهران ــ عادل سيف النصر ــ إلهامي سيف النصر ــ محمد عباس أحمد ــ المهندس/ محمود المستكاوي). وهناك مفارقات عجيبة، تبدو للوهلة الأولى في المقارنة بين القائمتين. قائمة الموحد تتكون من ثوريين محترفين في غالبيتها العظمى ومن عائلات فقيرة (عمالية أو برجوازية صغيرة) وتضم ثلاثة من الرفاق العمال ومن ضمنها رفاق من داخل السجن. وعلى العكس من ذلك فإن قائمة الراية خالية تماما من الثوريين المحترفين ومن داخل السجن وتضم بعض أبناء صفوه البيوتات في مصر. وهكذا فإن هذا أكبر شاهد على حقيقة واضحة، هي أي تنظيم ثوري نضالي فعال كان يمثله الموحد، وأي تنظيم انتهازي كان يمثله الرايه.

٦ــ بعض المشاكل التي ظهرت داخل الحزب الموحد

ظهرت بعض المشاكل في الطريق ــ خلال الستة أشهر هي كل عمر الحزب المتحد، وذلك قبل الوحدة مع د. ش.

المشكلة الأولى: تباين الطرق في دراسة المشاكل وحلها. منذ أن ظهرت الحركة الشيوعية المصرية منذ الأربعينيات. كان هناك ذلك التباين في النظرة لوسائل دراسة المشاكل وحلها. كانت هناك نظرة التيار الثوري في تلك الحركة التي كانت ترى أن دراسة المشاكل تبدأ من الواقع ــ وحلها كذلك يجب أن تبنى على الواقع دون تجاهل للخبرة العالمية للشيوعية. أما نظرة التيار الانتهازي فكانت تقوم على أساس دراسة المشاكل بعيداً عن الواقع الحي أو من خلال بعض فقرات الكتب أو من المناقشات في الصالونات المنعزلة بطبيعتها. وكل نظرة من تلك النظرتين كانت تعطي نتائج مختلفة الأولى تعطي نتائج إيجابية والثانية تعطي نتائج سلبية وتحليل المواقف والوقائع في تاريخ الحركة الشيوعية المصرية هو في النهاية صراع بين هاتين النظرتين وكافة مواقف الراية خلال تاريخها تنبع من تلك النظرة التي تدرس المشاكل وتحلها من خلال الواقع الانعزالي (الصالونات والكتب) وكان من الصعب أن يتخلى الرايه عن هذا النهج والنظرة داخل المتحد ولذا كان لابد من وقوع التصادم بين هاتين النظرتين منذ

البداية بينما كان رفاق الراية يرون العكس. وتحضرني هنا واقعة محددة أسوقها كمثل بارز عن تلك النظرة التي كانت تتبناها الراية. كان الرفيق محمد عباس سيد أحمد عضوا في السكرتارية المركزية للمتحد، كأحد ممثلي الراية. وكان يتولى مسئولية الدعاية المركزية. بينما كنت أتولى المسئولية التنظيمية. وفي أحد الإجتماعات إقترح الدكتو/ فؤاد مرسي ضرورة إعداد تقريرين عن الدعاية والتنظيم، وكان رأيي أن هذه التقارير – رغم أهميتها – لا يمكن أن تعد إلا بعد فترة تدرس فيها المشاكل الحقيقة من خلال الواقع الفعلي – وأبديت اعتذاري عن كتابة التقارير، ورفض الدكتور/ فؤاد مرسي ومعه كل ممثلي الراية وجهة نظري. وفعلاً تحمس الرفيق محمد عباس سيد أحمد لكتابة التقرير وبعد أيام قليلة إنتهى من كتابة تقرير مطول عن الدعاية. عرض محمد عباس التقرير على الدكتور/ فؤاد مرسي فأبدى اعجابه بشدة. وقال ان هذا أو تقرير في الدعاية يعجب به. بعد ذلك بأيام عرض محمد عباس التقرير عليّ وكانت تربطني به علاقة صداقة قوية، إلى جانب عضويتنا في هيئة حزبية، تصفحت التقرير وقلت أنه " تقرير (بلجيكي) فإنزعج من هذا التعبير الصادر عني وقال ماذا تقصد بهذا التعبير قلت له أنه تقرير يصلح لأي مكان في العالم، ولكنه لا يصلح لمصر ولا يعالج مشاكل حزبها، حاول أن يعترض على تقييمي مستنداً إلى تقريظ الدكتور/ فؤاد مرسي. قلت فليرى الدكتور/ فؤاد ما يرى ولكنني مصر على تقييمي. وفي الحقيقة كان تقرير الرفيق/ محمد عباس مليئاً بالفقرات المنقولة من هنا وهناك. ولم يكن تقريراً يعالج مشاكل الحزب الدعائية سواء في صفوفه أو بين الجماهير. لم يكن من المجدي تماما أن نتناطح بالعبارات في تقييم هذا التقرير الذي كان تعبيراً مجسداً عن عدم الواقعية في دراسة المشاكل. فكرت في الأمر بسرعة وطلبت من الصديق محمد أن يتمهل لبعض الوقت في عرض التقرير للمناقشة العامة في الهيئات الحزبية. في ذلك الوقت كان هناك إعداد جيد لعقد كنفرنس حزبي لعدد من الرفاق الفلاحين في وجه بحري (كانوا جميعا من الحزب الموحد) وكان هذا الإعداد يجري تحت إشراف الرفيق الشهيد سيف الدين محمد صادق دبرت الأمر معه وطلبت منه أن يستضيف الرفيق محمد عباس مسئول الدعاية في هذا الكنفرنس، الذي اقتنع بحضوره بعد مناقشة ثنائية بيننا طلبت منه أن يحضر المناقشات كمستمع فقط مع حقه في توجيه الأسئلة حول الأمور التي يراها غامضة في ذهنه.

... ور الكونفرنس الفلاحي ـ وعاد مذهولاً منه
... ري عن مواضيع لم تخطر على باله وبأسلوب شعبي
... ون من أمثاله، وقرر بعد ذلك أن التقرير الذي كتبه بلجيكي
... ضرورة كتابة التقارير الدعائية والتنظيمية بشكل واقعي
... هذه الواقعة رغم صداقتي واعتزازي بالرفيق/ محمد عباس سيد
... ل هجر طبقته وانضم إلى صفوف الطبقة العاملة. وهذا مثال على
... الأمور في صفوف الشيوعيين المصريين.

هناك النظرة الواقعية التي رسمتها مدرسة حدتو في العمل السياسي والتنظيمي والجماهيري والنظرة الانعزالية المكتبية التي انتهجتها كافة الفصائل الانتهازية في الحركة الشيوعية. حتى في علاج هذه الظاهرة الانعزالية. فإني كواحد من الذين تعلموا في مدرسة التيار الثوري (حدتو) لم ألجأ إلى مناقشة تقرير محمد عباس بشكل نظري لاقناعه. بل سحبته إلى أرض الواقع، لكي تكون مقنعة له وهذا ما كان فعلاً في هذه الواقعة بالتحديد.

المشكلة الثانية: الموقف من مرشحي الاتحاد العام للعمال في الانتخابات النيابية عام ١٩٥٧. كانت الراية منذ تكوينها لا ترتبط بحركة الطبقة العاملة المصرية. وهذا هو المصدر الحقيقي لتبنيها شعار بناء نقابات عمالية سرية في ١٩٥٠/١٩٥١ حين كان حزب الوفد في الحكم ولم يكن هذا الشعار واقعياً على الإطلاق وعلى العكس منه رفعت حدتو شعار بناء الاتحاد العام لعمال مصر من خلال اللجنة التحضيرية التي بدأت عملها. بعدد محدود من النقابات العمالية وتزايد العدد إلى أن وصل إلى أكثر من مائة نقابة. وكانت على وشك عقد مؤتمر عام لاتحاد العمال في يناير ١٩٥٢ لولا حريق القاهرة الذي نسف كل شيء آنذاك وأسوق مثالاً بارزاً ليدلل على التناقض والتصارع في النظرة تجاه الطبقة العاملة وحركتها.

في عام ١٩٥٧ كان الاتحاد العام للعمال في مصر قد تشكل. وكان الرفاق بحزب الموحد على علاقات ببعض قادة هذا الاتحاد.

وكان من الطبيعي أن نقف إلى جانب هذا الاتحاد وخاصة أنه في نشأته لم تكن السلطة الحاكمة وضعت يدها عليه كما هو الحال الآن. في نفس العام تقرر إجراء الانتخابات لمجلس الأمة (مجلس الشعب حاليا) وتقدم الاتحاد العام للعمال

بعدد من مرشحيه في بعض الدوائر الانتخابية، وكان عبـد
مرشح الاتحاد العام للعمال في دائرة الوايلي بالقاهرة.

كان رفاق الموحد في الحزب المتحد، يرون تأييد عبد العزيز مصطفى
تلك الدائرة. بينما كانت الراية ترى تأييد الدكتور/ عبد العظيم أنيس أحد ممثلي
الراية في اللجنة المركزية. وانبنى موقف الرفاق ممثلي الحزب الموحد على
الأسس التالية:

أن عبد العزيز مصطفى مرشح إتحاد العمال وهو بـهذه الصفـة وحدها يستحق التأييد. لأن هذا الموقف من إتحاد العمال وهو في بداية تكوينه يريد أن يكتسب نوعاً من الشخصية المستقلة ولو بشكل نسـبي – بـدلاً مـن الذوبـان الكامـل في السلطة. لأن الموقف في النهاية هو موقف من الاتحـاد العـام أو ضده. ومن الخطأ السياسي القاتل أن يبدو الحزب الشيوعي المتحد. وكأنه يقـف بموقفه العملي ضد الاتحاد العام وهو في بداية تكوينه. ان عبد العزيز مصطفـى شخصيا له علاقات طيبة بالحركة الشيوعية المصرية ليس هو وحده بل ومعـه عدد من الزملاء في شركة الترام (سيد مصطفى ومحمود فرغلي وآخرين) ومن الخطأ أن نقف في موقف متناقض مع كل هؤلاء، وحتى وان لم يكن عبد العزيز مصطفى مرشحاً للاتحاد العام. ان عبد العزيز مصطفى رئيـس نقابـة عمال الترام، ولهؤلاء العمال دور بارز في حي الوايلي. باعتبار أن الكتلة الرئيسـية من هؤلاء العمال تسكن حي الوايلي وتعمل فيه. وبالتالي فإن وقوفنا ضد عبـد العزيز مصطفى هو موقف ضد عمال الترام أيضا إلى جانب أنه موقـف ضـد الاتحاد العام، إن عبد العظيم أنيس يمكن ترشيحه في دائرة أخـرى باعتبـاره شخصية سياسية عامة. وذلك لتلافي كافة النتائج السلبية فـي حالـة التمسـك بتأييـده بإعتباره شخصية سياسية عامة. ومعارضة عبد العزيز مصطفى. المهم حدث التصادم ولم نتمكن من الاتفاق على موقف موحد في هذا الشأن والحقيقـة أنه كان هناك موقف سري تم الاتفاق عليه بين الدكتور/ عبـد العظيـم أنيـس والراية ولم يعلن إلا في وقت متأخر. وهو أن يكون الدكتور/ عبد العظيم أنيس أحد ممثلي الراية في ل. م المتحد تحت وهم أنه سيكون نائباً فـي البرلمـان .. مجلس الأمة. إذا قال لنا الرفاق في الراية في بداية نشأة المتحد أن هناك رفيـق ممثل للراية في اللجنة المركزية ولكن لم يعلن إسمه إلا فـي وقـت متـأخر.

وفوجئنا بأن هذا الرفيق هو الدكتور/ عبد العظيم أُنيس ولكن بعد أن سقط في الانتخابات في الجولة الثانية. كان من الصعب الاتفاق على موقف موحد كما قلت وكان الحل العملي الذي توصلت إليه بقيادة المتحد هو إعطاء الحرية لأعضاء الحزب في تلك الدائرة لتأييد من يرونه من المرشحين الذين يدور حولهما الصراع (عبد العزيز مصطفى ــ وعبد العظيم أنيس).

وهذا ما كان فعلاً، فكل رفاق الموحد في القاهرة، وقفوا إلى جانب عبد العزيز مصطفى، بينما وقفت الراية ومعها عناصر د. ش إلى جانب عبد العظيم أنيس وللتأثير على موقف رفاق الحزب الموحد رددت الراية وعبد العظيم أنيس شخصياً من أنه مؤيد من جمال عبد الناصر شخصياً إذ انه بارك ترشيحه وكان في ذلك الوقت يعمل محرراً بجريدة المساء القاهرية اليسارية. وأيا كانت حقيقة موقف عبد الناصر فقد وقف رفاق الموحد بكل قوتهم إلى جانب عبد العزيز مصطفى كمرشح للاتحاد العام للعمال. كانت معركة تأييد عبد العزيز مصطفى تدور تحت إشراف (عبد المنعم الغزالي ــ ومحمد عماره) " الدكتور/ عمارة حاليا " وفي الجولة الثانية تم اسقاط عبد العظيم أنيس ونجاح عبد العزيز مصطفى.

في الحقيقة لم يكن موقف الراية ومعهم د. ش موقفا من عمال الترام، والاتحاد العام لعمال مصر بل وموقفا ضد اتحاد العمال العرب (فتحي كامل وآخرين) وأذكر أن الرفاق السودانيون وإتحاد عمال السودان واتحاد العمال العرب كانوا يناصرون علانية عبد العزيز مصطفى في تلك المعركة وزار بعضهم الدائرة الانتخابية وظهروا في سرادقات عبد العزيز مصطفى. وقد فهم البعض أن موقف الحزب الموحد موقف غير مبدئي. إتخذه هؤلاء الرفاق كمجرد موقف ضد عناصر الراية وضد عبد العظيم أنيس شخصياً. وهذا تقييم غير دقيق بل وفهم خاطئ أيضا. لقد كان هذا الموقف التأييدي لمرشحي العمال موقفا تاريخيا للتيار الثوري (حدتو) ففي انتخابات ١٩٥٠ حددت حدتو موقفها من إنتخابات مجلس النواب على النحو التالي:

* تأييد مرشحي العمال حتى ولو كان مرشحاً ضد حزب الوفد.

* ولو لم يكن هناك مرشح للعمال فعلينا تأييد مرشح حزب الوفد ضد المستقلين وأحزاب الأقليات.

* ولكن الراية لم تتخذ مثل هذه المواقف المبدئية طوال حياتها.

وبالتالي كان لابد أن يتورط ممثلوها في المتحد في مثل هذا الخطأ القاتل، ونظراً لأن التيار الانتهازي ــ بغض النظر عن أسماء فصائله ــ مدرسة واحدة وتيار واحد، فقد وقفت د. ش بكل ثقلها الجماهيري والتنظيمي مع الدكتور/ عبد العظيم أنيس ورغم كل هذا سقط في الجولة الثانية لانتخابات مجلس الأمة (الجولة الثانية) حقيقة أخرى لابد أن نذكرها للتاريخ، هي أن عبد العزيز مصطفى حضر كشاهد نفي أمام محكمة (هلال عبد الله هلال) التي كانت تحاكم القضية الشيوعية في ١٩٦٠ بالاسكندرية وهي المعروفة بقضية حدتو وأدلى بشهادة جيدة لصالح الرفاق العمال الذين كانوا يحاكمون في القضية (محمد علي عامر، نور سليمان جاسر) وكان شجاعا أمام المحكمة العسكرية.

المشكلة الثالثة: النظرة لدور الثوريين المحترفين في الحزب كما قلنا سابقاً، لم يكن في المتحد، ثوريون محترفون، إطلاقاً وكانت تتزعج من عدد هؤلاء الثوريين من رفاق الحزب الموحد ولذا كانت نظرتها نظرة عداء تختفي أحيانا وتظهر أحيانا أخرى ولم تكن هذه النظرة صالحة للتطبيق العملي في ظل الحزب المتحد، نظراً لأن ميزان القوى ــ وخاصة في قضية هامة وحساسة كهذه. كانت في يد الرفاق ممثلي الموحد في القيادة المركزية ولكنها وجدت التطبيق العملي في ظل حزب ٨ يناير بالتعاون مع الراية ود. ش وهذا ما ستشرحه الصفحات القادمة.

كانت وجهة نظر الحزب الموحد ــ كإمتداد للتيار الثوري في الحركة الشيوعية المصرية ــ هي أنه لا يمكن بناء حزب شيوعي ثوري بدون الثوريين المحترفين، بإعتبارهم قلب الحزب النابض ونواته.

ولم يكن نظرة الموحد ضيقة لدور الثوريين المحترفين بمعنى أنهم أولئك المخصصون للعمل السري البحت (أجهزة فنية ــ اتصال) بل هو دور أوسع من هذا بمعنى أن يكون الثوري المحترف مكرساً للعمل في أي مجال آخر (الجماهيري ــ السياسي ــ التنظيمي ــ الدعائي .. الخ) وكانت تلك النظرة ترى أنه من المفيد والواجب توسيع عدد الثوريين المحترفين باستمرار حسب مقتضيات ومتطلبات العمل الحزبي بشكل عام، كما كانت ترى ضرورة الارتفاع بالمستوى الفكري والتنظيمي لهؤلاء الرفاق. وكان التطبيق العملي لهذه السياسة

هو أن الحزب الموحد دخل الوحدة بعدد لا بأس به من الثوريين المحترفين، مما أفزع قادة الراية. وعلى العكس من رأي رفاق الحزب الموحد، كانت الراية ترى (وقد جرت مناقشات طويلة بيني وبين بعض رفاقهم القادة في الحزب الموحد) أن الثوري المحترف لا ضرورة له في الحزب. إلا إذا كانتْ هناك مطاردة قمعية للحزب (سجون معتقلات تفتح أفواهها دون توقف وفي الحالات الاستثنائية ــ كما كانوا يرون ــ لا مانع من توظيف ثوري محترف واحد أو اثنين في شئون العمل الفني (الاجهزة الفنية ــ الاتصال ــ الخ ..) وما عدا ذلك من الثوريين المحترفين لابد من البحث لهم عن عمل برجوازي في المجتمع يرتزقون منه وهم بهذا الفهم الانتهازي كانوا يصورون الثوري المحترف وكأنه عاطل عن العمل، أو غير قادر عليه، ويبحث عن لقمة عيش داخل الحزب الشيوعي، وأنا أعترف، كم كان هذا التصور جارحا وإلى أبعد حد للرفاق الثوريين المحترفين الذين وهبوا حياتهم لقضية الحزب والشيوعية. ونسى رفاق الراية، أن منطقهم هذا لا يقوم على أساس نظري من الماركسية اللينينية أو من الواقع الحي.

ففي مجال النظرية أوضح الرفيق لينين في كتابه (ما العمل) أهمية الثوري المحترف في الحزب الشيوعي، وفي مجال الواقع فإن قضية الثوري المحترف لا ترتبط بمناخ المطاردة. وان كان المطلوب منهم أكثر في حالة المطاردة لتعويض أولئك الرفاق الذين يقفون في قبضة الأجهزة الأمنية، الدليل على ذلك أن كافة الأحزاب الشيوعية العلنية التي لا تعيش مناخ المطاردة تمتلك عدداً هائلاً من الثوريين المحترفين.

وليست الأحزاب الشيوعية وحدها ــ علنية كانت أو سرية ــ هي التي تمتلك ثوريين محترفين، بل وحتى الأحزاب البرجوازية والنقابات تمتلك من يطلق عليهم بالمتفرغين كاملاً لعمل الحزب أو النقابة. وفي النهاية فإن التوسع في العمل الجماهيري وكل جوانب العمل الحزبي الأخرى، يرتبط في النهاية بمدى ضيق أو إتساع عدد الثوريين المحترفين. ولذا لا يبدو الأمر غريبا إذا قارنا حالة الموحد بحالة الراية عند إتمام الوحدة.

وكما قلت سابقاً فإن إبرز قادة الراية (فؤاد مرسي ــ إسماعيل صبري) كانا يرتبطان بالدولة ويعملان فيها ومن هنا لم يكن في إمكانهما الدفاع عن قضية الثوريين المحترفين، وكما يقولون في بلادنا فان (فاقد الشيء لا يعطيه).

العمل الجماهيري في الحزب المتحد:

كان أهم مجال عمل جماهيري حدث في الحزب المتحد، هو المشاركة في المعركة الانتخابية التي دارت عام ١٩٥٧، في دائرة الوايلي في القاهرة، حدثت مشاكل عديدة سبق أن شرحتها، وعلى النقيض كانت هناك معركة وناجحة في نفس الوقت. في إحدى دوائر شبرا بالقاهرة حيث كان الدكتور/ فائق فريد (عضو الحزب الموحد) آنذاك مرشحا قوياً وقد نجح الدكتور فائق فريد وأصبح عضوا بمجلس الأمة والحقيقة التاريخية أن عدداً من الرفاق بالراية سابقا لعبوا دوراً هاما في هذه الدائرة. إذا كانو من سكان الدائرة أولا. ومسيحين ثانيا وهذان العنصران لعبا دوراً كبيراً في الانتخابات فالدائرة ذات طابع مسيحي، والمرشح كان مسيحياً أيضاً.

وتضافرت العوامل كلها وأنجحت المرشح وكان ذلك مكسباً كبيراً في ذلك الحين. وكان للحزب المتحد مرشحون في دوائر انتخابية أخرى، إلا أن الاتحاد القومي اعترض على ترشيحهم وبالتالي لم يتمكنوا من خوض المعركة أذكر من هؤلاء الرفاق (أحمد الرفاعي) دائرة طناح والرفيق المرحوم (خليل الآسي) في أسوان وفي دوائر أخرى قام رفاق الحزب المتحد بدور كبير في تأييد بضع العناصر المتقدمة من مرشحي السلطة الناصرية أذكر من ذلك (كمال الحناوي) الدرب الأحمر أبو الفضل الجيزاوي (الجيزة) ومحمد أبو نار (الاسكندرية) وأحمد فؤاد (الدقي) وفي الشرقية (كمال رفعت ولطفي واكد) وفي الغالب لم ينفذ العمل الجماهيري الواسع أكثر من هذا النطاق فمن ناحية كان عمر الحزب المتحد نفسه قصيراً " ستة " أشهر تقريباً. كما أن الترتيبات الداخلية التي تصاحب كل وحدة جديدة. من ناحية تسكين القوات الحزبية في هيئاتها. وتشكيل الأجهزة القيادية وتوزيع الاختصاصات بين أعضائها، إلى جانب مواجهة الآثار السلبية الناتجة عن المشكلات الثلاثة التي أثيرت في الجزء المتحد، كل هذه العقبات استهلكت وقتا كبيرا من جهد الحزب المتحد، وكان هذا الوقت خصما من الطاقات المطلوب بذلها في العمل الجماهيري.

ولكن الجانب الأخطر والأهم هو ذلك الانشغال بقضية إتمام الوحدة مع (د.ش أو ع ف) قبل إرساء وضع الحزب المتحد على قدم ثابتة وكان هذا خطأ

شديداً. كان سببه أن خط التعجل في إتمام الوحدة الشيوعية. كان مازال سائداً حتى هذه اللحظة.

٧ــ كان من الضروري أن نتوقف

بعض الوقت بعد وحدة المتحد

لقد فشلت وحدة ٨ يناير، وهذا يطرح سؤالاً هو هل من الضروري أن تفشل وحدة المتحد بالحتم؟ طبعاً الاجابة على هذا السؤال أمر صعب. ففي رأيي أن الاحتمال الأرجح كان نجاح وحدة المتحد في النهاية. إذا لم يكن هناك تعجل في الوحدة مع (ع. ف) وإذا ما إستمرت الوحدة فترة من الزمن.

صحيح أن وحدة المتحد لم تتم بطريقة سليمة تماما. فقد كان الشرطان الجوهريان المطلوب توفرهما قبل الوحدة مفتقدان وهما مطالبة الراية بعد مناقشة سياسية عميقة لإعلان نقد واضح حول سبب الخطأ الرئيسي من ثورة يوليو ١٩٥٢. وإجراء تنسيق في العمل الجماهيري في المجالات المتاحة للطرفين.

هذان الشرطان لم يتوافرا فيهما فعلاً. ولكن رغم هذا كان من الممكن نجاح تلك الوحدة إذا أخذت فرصتها الكاملة للنضج قبل الإقدام على أية وحدة جديدة.

الدرس المستفاد من وحدة الموحد أنها استمرت حوالي سنتين كاملتين، قبل الإقدام على وحدة المتحد وهذا أعطاها فرصة النجاح. وهو ما بث في الرفاق تلك النظرة المغرورة. قد يقال أن وحدة المتحد واجهت عوامل ومشاكل عديدة ذكرناها في الصفحات السابقة ولكن من قال لنا ان وحدة الموحد لم تواجه مشاكل وأن كانت نوعيتها مختلفة عن مشاكل المتحد، بل في بعض جوانبها كانت أخطر كالهزيمة السياسية التي لحقت بحدتو وترتبت عليها هزيمة تنظيمية وإن كانت الهزيمتان لم تدوما ــ لحسن الحظ ــ لفترة طويلة. المهم أن المشاكل الموجودة أخذت فرصتها الزمنية الكاملة للذوبان. لقد كان الضمان الأساسي في نجاح وحدة المتحد هو أن ميزان القوى كان في مصلحة الموحد فالغالبية التنظيمية كانت في يدهم، ولم تكن هناك خلافات أساسية في تحليل الموقف السياسي في حينه، وكانت الغالبية العظمى من الرفاق في القواعد ممن انتموا إلى الموحد قبل الوحدة، إلى جانب أن الغالبية العظمى من الرفاق في القواعد

في المكان والزمان المحددين، تم القبض علي ورغم الضرب والتهديد والاغراء لم تنجح المباحث في انتزاع اعتراف مني رغم خبرتي الضئيلة في مواجهة أول حادث قبض بتهمة الانتماء لتنظيم شيوعي (حدتو).

بعد التحقيق بمعرفة النيابة تم ترحيلي إلى سجن طنطا العمومي، عشت هناك مع العامل الذي اعترف علي، ومع فهمي زغلول عضو منطقة بحري، وكانت أول مرة أرى فيها الحياة في السجون المصرية رأي العين.

كانت الحياة في سجن طنطا كنموذج للسجون الاخرى رديئة جدا وكانت ظروفنا نحن الثلاثة المتهمين في القضية الشيوعية أكثر رداءة وقسوة.

كنا نقضي بضع دقائق في دورة المياه صباحا وعصرا، وفيما بين الفترتين كنا نحبس طوال النهار وبطاطين مهلهلة بالليل، وكان يتخلل هذا الحبس الطويل طابور لمدة نصف ساعة في اليوم، وكان نحن الثلاثة نسير حفاة الأقدام ونلبس ملابس السجن، داخل السجن وخارجه حين نذهب للنيابة للتحقيق وللمحكمة حين نظر المعارضة في حبسنا.

وكنا نعيش على أكل السجن الردئ (قليل من الخبز مع بعض الملح والفلفل في الفطار ــ فول أو عدس في الغداء ــ خضار لا قوام له بعض الأيام في الاسبوع في المساء).

رغم رداءة الاصناف المقدمة من الأكل كنا نلتهمها في ثوان لجوعنا الشديد، فطعام السجن لم يكن يكفينا في ظل البرد القارس ولم تكن لنا أية قدرة مالية تساعدنا على شراء أكل اضافي من أكل السجن الذي يبيعه المسجونون العاديون.

وكان الحمام يتم مع بقية المسجونين معا يبللون اجسامهم بالماء مع كمية قليلة من الصابون السائل، تزعم إدارة السجون انها بدل الصابون.

وبين الحين والحين كان حلاق السجن وهو أحد المسجونين يأتي إلى الحمام لازالة شعر الرأس والعانة حتى لا تكون مخابئ للقمل الذي كان ينتشر بكميات رهيبة بين المسجونين.

ممن انتموا إلى الموحد قبل الوحدة إلى جانب غالبية المستويات الفعالة في يد الثوريين المحترفين وكانوا جميعاً من الموحد.

أخلص إلى النتيجة التالية وهي أن السعي إلى وحدة المتحد لم يكن خطا من ناحية المبدأ الوحدوي. وإن كان الخطأ في التوقيت المتعجل دون توفر الشروط اللازمة. ومع هذا ورغم كافة العقبات والنقائص كان من الممكن نجاح وحدة المتحد لو أخذت الفرصة الزمنية الكافية لإنجاحها قبل الدخول في وحدة مع (ع.ف) كتلك الفرصة التي أتيحت لوحدة الموحد. خلال الزمن المطلوب كان من الممكن مناقشة القضايا السابقة والخروج منها بدروس مستفادة. تحول دون وقوع الخطأ السياسي في المستقبل، وكان من الممكن إيجاد لغة مشتركة أو متقاربة بين رفاق الموحد والراية. في فهم قضايا العمل الجماهيري والتنظيمي واستيعاب طرق حلها من خلال الممارسات العملية صهر رفاق التنظيمين في كل واحد كما حدث لرفاق التنظيمات المختلفة. أو غالبيتهم داخل الحزب الموحد لافتقاد الزمن المطلوب، لم يحدث كل هذا، وبالتالي انتقلت سلبيات وحدة المتحد إلى وحدة ٨ يناير وتحالفت مع سلبيات أخرى لـ د. ش ومزقت وحدة ٨ يناير التي كانت هدفا منشوداً للشيوعيين المصريين.

وعند هذه النقطة نتوقف تمهيداً للانتقال إلى دراسة وحدة ٨ يناير نفسها.

٨ـ وحدة المتحد مع ع. ف

في الصفحات السابقة ذكرت أن وحدة المتحد كان من الممكن أن تعيش وتدوم وتتوطد ــ لو لم يرتكب الخطأ القاتل وهو الاستعجال والتسرع في الوحدة مع ع. ف وهذا الاستعجال هو الذي أدى إلى تحطيم وحدة يناير وبالتالي وحدة المتحد التي لم تكن قد انصهرت بعد. وفي تقديري أن ذلك الاستعجال والحماس في صفوف الرفاق في الموحد كان متأثرا بعده عوامل هي:ــ

العامل الأول: كان هذا المناخ قد نما بعد ١٩٥٣ وبعد الزج وبالذات بالقادة منهم في سجون ومعتقلات ثورة يوليو ١٩٥٢ واكتسب هذا المناخ الحماس دفعة أكبر لوحدة الموحد ونجاحها وتوج بوحدة المتحدة في ١٩٥٧، وهذا الحماس لم يحجمه سياج مادي وعلمي يحول دون الإنهيار ولم تظهر عقبات أساسية تفوق هذا الحماس العاطفي للوحدة.

ولذا إمتد هذا الحماس إلى خلق وحدة يناير التي سريعا ما انهارت.

العامل الثاني: الأثر السلبي للمشاكل التي ظهرت في وحدة المتحد اعتقد البعض وأنا منهم ــ من أن تلك المشاكل قد يكون لها علاج في الوحدة مع ع. ف.

وبدلاً من أن ننتظر بعض الوقت حتى تحل تلك المشاكل داخل المتحد بحكم الإنصهار في العمل السياسي والجماهيري بحيث رضى الجميع بالوحدة مع ع. ف دون مشاكل. وكان المحرك الأساسي هو الحماس الذي يحيط بنا في تلك الفترة.

العامل الثالث: فمن المعروف أن ع. ف وكان يضم في صفوفه عدداً من العمال النقابيين والجماهيرين أمثال (العسكري ــ المدرك ــ محمد بدر ــ أحمد سالم وآخرين غيرهم) ممن لهم دور جماهيري ونقابي. وحتى العناصر غير العمالية في ع. ف بحكم احتكاكنا بهم. كانت عناصر ذات طابع شعبي من أبناء البرجوازية الصغيرة المطحونة.

وهذا التركيب الطبقي في ع. ف كان قريبا من التركيب الطبقي لدى رفاق الموحد.

بينما كان التركيب الطبقي في الراية متباينا مع ما هو في الموحد فالمعروف أن الراية دخلت وحدة المتحد ومعها عناصر عمالية ونقابية لا تجاوز أصابع اليد الواحدة وغالبيتها ان لم تكن كلها معزولة عن العمل النقابي والجماهيري والعناصر الأخرى في الراية كانت من المثقفين وأبناء الذوات في المجتمع خاصة في القيادة المركزية.

وقد تصور الرفاق في الموحد ــ وقد كان هذا خطأ ــ أن التماثل في التركيب الطبقي مع (ع. ف) سوف يخلق امكانية أكبر للتعاون في الوحدة الجديدة. حيث افترض أن هذا التركيب الطبقي المتماثل يخلق الاحساس النضالي والجماهيري الشعبي المشترك لدى أصحابه.

العامل الرابع: العمل الجماهيري في ع. ف.

وبالتالي فإن التماثل في التركيب الطبقي والدور في العمل الجماهيري – بعد تجريدهما من المضمون والجوهر السياسي لم يكونا عاملين مفيدين في دعم وحدة ٨ يناير وبالتالي كان من الضروري عدم الإعتداد بهما في تدعيم اتمام الوحدة الشيوعية.

مفاوضات ووثائق الوحدة:

دامت المفاوضات ستة أشهر تقريبا قبل إتمام الوحدة وإن كنت لا أذكر – الآن – أعضاء لجنة المفاوضات من الجانبين.

لا أذكر أيضا قضية الوثائق. وفي الغالب سنجدها في ملفات القضايا الشيوعية التي كانت تنظر آنذاك.

ولكن لم تكن هناك خلافات حول الوثائق السياسية (شأن الوحدة التي تمت بين الموحد والراية) لأن الوثائق في الغالب كانت تعالج في الحاضر – بعيدا عن الماضي (ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢) وقد كان انعدام الخلاف طبيعياً ومنطقياً في إطار المناخ والعوامل التي كانت تحيط بعملية الوحدة آنذاك.

اللجنة المركزية لحزب ٨ يناير:

لا أذكر بالدقة كل أسماء أعضاء تلك اللجنة المركزية ولكن يمكن أن أسجل أسماء كل من ممثلي الموحد والراية و ع. ف في تلك اللجنة. وأنا أسقط هنا عمدا تعبير (الحزب المتحد) ونستخدم تعبير (الموحد والراية)، وراء هذا التعمد في اسقاط عبارة (الحزب المتحد) الحقيقة التالية وهي أن الراية تعمدت أثناء تشكيل اللجنة المركزية أن يكون لها ممثلون مستقلون متميزون باعتبارهم ممثلي الراية وبالتالي كان ضروريا أن يكون للموحد نفس المطلب وهذه الحقيقة تشير إلى أن الوحدة الجديدة كانت رسميا بين المتحد وع. ف. بينما في الواقع كانت وحدة بين تنظيمات ثلاثة وهذا تعبير مجسد على أن وحدة المتحد لم تكن قد انصهرت بعد في بوتقة واحدة.

وقد يقول قائل وكيف سمحت اللجنة المركزية للمتحد وبها غالبية من رفاق الموحد بتمرير هذا الأمر، أي الذهاب للحزب المتحد بممثلين للراية، وآخرين للموحد، ولماذا لم تستخدم أغلبيتها في الأختيار بشكل حزبي دون مراعاة للاعتبارات التاريخية.

الاجابة: لم يكن ممكناً استخدام المنطق الحزبي السليم في وضع لم يخلق فيه حزب واحد فعلاً، صحيح أن اسمه كان المتحد. ولكن كان هناك التمايز بين التنظيمين المكونين له (الموحد والراية). فكما قلنا في صفحات سابقة فإن عمر المتحد كان محدوداً، وبالتالي لم ينصهر، واقتحمت عليه الوحدة الجديدة مع ع. ف قبل ذلك الانصهار.

من كان يمثل الموحد في ل. م ٨ يناير:

أذكر منهم (زكي مراد ــ محمد شطا (وكانا في السجن) ــ كما عبد الحليم ــ مبارك عبده فضل ــ شهدي عطيه الشافعي ــ أحمد الرفاعي ــ محمود أمين العالم ــ أحمد خضر ــ عدلي جرجس ــ سعد رحمي ــ محمد الجندي ــ محمد علي عامر ــ فؤاد حبشي).

من كان يمثل الراية في تلك اللجنة:

أذكر منهم (الدكتور/ فؤاد مرسي ــ الدكتور/ إسماعيل صبري ــ الدكتور/ عبد العظيم أنيس ــ سعد زهران ــ عادل سيف النصر ــ محمد عباس سيد أحمد ــ محمود المستكاوي).

من كان ممثل ع. ف في تلك اللجنة:

أذكر منهم (أبو سيف يوسف ــ حلمي يس ــ محمد بدر ــ فؤاد عبد المنعم شحتو ــ عوض الباز ــ أحمد سالم ــ سيد سالم ــ حسين طلعت ــ حسن صدقي وزوجته ثريا أدهم ــ لويس أسحق ــ شخصين آخرين (لا أذكر أسماءهما الآن وأنا أكتب هذه الصفحات).

يلاحظ على تشكيل اللجنة المركزية لحزب ٨ يناير الآتي:

(١) أن ع. ف حصلت على هذا العدد الكبير من أعضاء اللجنة المركزية (١٣ عضوا) حسبما أذكر تحت حجة أن لها كمية عضوية كبيرة وإبتدعت آنذاك فقرة حصر العضوية في الحزب الجديد.

(٢) إن الغالبية في اللجنة المركزية الجديدة للراية (٧ أعضاء) و١٣ عضوا ع. ف أي ٢٠ عشرون عضوا من ٣٣، ٣٤ هم كل أعضاء اللجنة المركزية الجديدة. أي بقى للموحد ١٣، ١٤ عضوا من الناحية الإسمية وفعلاً ١١، ١٢

هذا الكتاب

هو عن مبارك عبده فضل. وعن حياته التي كرسها للنضال في حدتو (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني) التي يشغل حديثه في الكتاب عنها.

❖❖❖

إلى روح مبارك عبده فضل

أنت أبليت في النضال بلاءً
عبقريا .. مرونة وثباتا
ثم أبليت ذلك الجسم حتى
صار هيكلا .. وصار رفاتا
كنت ملء الحياة ثم أتى المو ـ
ـ ت فازددت بالممات حياة
واحتشدنا .. ولم يكن لوداع
كان عهدا مجددا وصلاة
ليتنا نكمل المسيرة بالإص ـ
ـ رار .. ليتنا نلم الشتاتا

كمال عبد الحليم

❖❖❖

كانت لديه هذه الموهبة النادرة في اكتشاف الحلقة الجامعة المولدة لفعل، المناضل الجسور الذي يتجاوز الخلاف أو الاختلاف، دون أن يلغيه، وإنما يدفع إلى امتحانه بالممارسة الحية، ولهذا كان الشيخ مبارك من أبرز المبادرين إلى التنسيق والعمل المشترك، بل والتوحيد بين التنظيمات الشيوعية المختلفة.

محمود أمين العالم

دافع عنا أمام المحكمة الأستاذ/ عبد العزيز بيومي المحامي، وكان مكتبه آنذاك في شبين الكوم وبعد شهرين قررت غرفة المشورة الافراج عنا.

في انتظار الترحيل إلى معتقل الهايكستب:

بعد الافراج القضائي عني رحلت إلى البوليس السياسي في القاهرة حيث قابلني الضابط (حجازي) وبعد عدة أسئلة قرر احتجازي في قسم بولاق تمهيدا للترحيل إلى معتقل الهايكستب.

كنت احتجز في غرفة واسعة جدا بمفردي، في جو شديد البرودة دون غطاء أو فرش من أي نوع كان، وكان المخصص لي من إدارة قسم البوليس ثلاثة أرغفة دون أي نوع من الطعام، ولم أكن أملك مليما اشتري به طعام.

كنت اقضي معظم وقت الليل دون نوم، فقد تحالف ضدي الجوع والبرد معا.

كنت أسير طول اليوم في الغرفة الواسعة، علني أرقد من التعب وأتمكن من النوم ليلاً.

وأحيانا كنت اضطر للنوم نهارا لبعض الوقت، ولكن النوم لم يكن يداعب جفوني إلا نادرا في الليل.

من شدة الارهاق كنت أتوسد يدي ليلا وأتكور بحثا عن الدفء، وقد أغفو لمدة ربع ساعة أقوم بعدها وأنا في حالة ارتعاش لا يوصف من البرد، اضطر بعدها إلى السير في الغرفة بحثا عن قليل من الدفء.

كان هذا المنظر يتكرر كثيرا كل ليلة، سير تعقبه إغفاءة، ثم رعشة برد، أسير بعدها مرة أخرى.

حينما اتذكر الآن وأنا أكتب هذه السطور اتساءل كيف احتملت تلك المعاناة لمدة ١٥ يوما، أجد الاجابة في سببين أولهما صغر سني وقوة الشباب الجسمية.

ثانيهما ارتفاع روحي المعنوية وما كنت اتميز به من إرادة وعناد في مواجهة مثل هذه الظروف.

يعكس هذا العناد ويصوره ابلغ تصوير أن منزل اسرتي حيث يعيش والدي واخوتي الصغار كان على بعد ٣ كيلو مرات من قسم بولاق، ومع هذا صممت علي ألا ألجأ إليهم فإلى جانب العناد كان هناك حماس الشباب ورعونته، واتخذت موقف عدم اللجوء للأسرة وأنا في حالتي هذه، رغم إدراكي الآن انه بمجرد اللجوء للأسرة، كانت ستبادر للحضور.

فلم يكن موقف الأسرة مني، وخاصة موقف الوالد مني نابعا من كراهية لي. بل كان حرصا منها على إبعادي عن النشاط السياسي مما يسببه من معاناة لي ولهم في نفس الوقت.

باختصار اتخذت موقفا خاطئا فيه كثير من الرعونة وحماس الشباب، والمراهقة التي ترتبط بالتمرد على الأسرة.

بعد ١٥ يوما رحلت إلى معتقل الهايكست الذي كان يقع على بعد ١٨ كيلو متر من القاهرة.

وكانت معسكرات الهايكستب ــ في الأصل ــ مخصصة للجيش الانجليزي في فترة الحرب العالمية الثانية.

وكان معتقل الهايكستب عبارة عن عدة أبنية منفصلة، كل بناء يحيط به سور من الاسلاك الشائكة. كان المبنى الأول مخصصا للإدارة والشيوعيين اليهود، وكان من ضمنهم (هنري كورييل ــ شحاتة هارون وآخرون).

أما المبنى الثاني فكان مخصصا للشيوعيين المصريين، وأضيف إليهم معتقلو الاخوان المسلمون بعد ذلك.

أما المبنى الثالث فكان مخصصا للصهيونية.

وصلت معتقلا لهايكستب وأنا منهك الصحة رث الثياب ولأول مرة منذ أكثر من شهرين تلمس جسمي ماء ساخنة وصابونة، وأذكر ان الزملاء قرروا خوفا على صحتهم جميعا التخلص بالحرق من الملابس الرثة التي كنت ألبسها طوال فترة إحتجازي في قسم بولاق، وان يهدوني ملابس أخرى جديدة بدلا عنها.

بعد الاستقبال الحماسي من الزملاء، وبعد الحمام الساخن وارتداء الملابس الجديدة ابتدأت التعرف على معتقل الهايكستب.

التعرف عن قرب بالمنظمات الشيوعية في معتقل الهايكستب.

اجزاء هامة من قيادات تلك المنظمات وعناصرها الأساسية كانت موزعة في عامي ٤٨، ١٩٤٩ بين سجن مصر، وسجون مصرية أخرى ومعتقل الهايكستب.

في سجن مصر وبعض السجون المصرية كان بها الرفاق المتهمون في قضايا شيوعية، أما معتقل الهايكستب في القاهرة، وأبو قير في اسكندرية فكانا مخصصان للمعتقلين.

وكانت التنظيمات المتواجدة في الهايكستب هي (حدتو ــ العمالية الثورية ــ م. ش. م ــ الفجر الجديد ــ عناصر محدودة جدا من جات).

وليس في الامكان، كما انه ليس ضروريا ان نذكر أسماء العناصر القاعدية التي تنتمي لتلك التنظيمات، إنما كانت هناك ظاهرة ملفتة للنظر، هي انفراد تنظيم حدتو بوجود عناصر سودانية ضمن معتقليها في الهايكستب أذكر منهم (التيجاني الطيب ــ عبد الرحمن عبد الرحيم الوسيلة ــ عبده ذهب ــ سوداني جنوبي كان اسمه " تيدي لاركث جيمس").

كما كانت حدتو تنفرد في هذا المعتقل بوجود عناصر نوبية ضمن معتقليها كان من ضمنهم المرحوم المناضل والشاعر النوبي (محمد خليل قاسم وكاتب هذه السطور).

كان في معتقل الهايكستب من قيادات حدتو (هنري كورييل ــ سيد سليمان رفاعي ــ كمال شعبان ــ صبحي زغلول ــ جوماتالون).

ومن قيادات العمالية الثورية (عبد المعبود الجبيلي ــ عبد الرحمن الناصر ــ عدلي جرجس ــ محمد شطا).

ومن قيادات م. ش. م (ميشيل كامل).

ومن قيادات الفجر الجديد (يوسف درويش ــ محمود العسكري).

وكان قائد جات هو الدكتور (عصام جلال).

والمستوى المعيشي للمعتقلين في الهايكستب كان مرتفعا، إذا قارناه بحياة الشيوعيين في السجون المصرية آنذاك، أو بما آل إليه الأمر ـ من الناحية المعيشية ـ في معتقل الطور (١٩٤٩).

كانت المخصصات الحكومية للاعاشة كبيرة، إلى جانب ما يرد في زيارات الأهالي من هدايا.

ويمكن ان نسجل لرفاق حدتو آنذاك، انهم كانوا يدخرون جزءا هاما من موارد المعتقل من أجل مساعدة الرفاق الذين يعملون في الخارج، وكذلك مساعدة بعض أسر المعتقلين من العمال محدودي الدخل.

ما هي القضايا العامة التي كانت تشغل الرفاق في المعتقل:

قبل سرد هذه القضايا (حسبما تعي الذاكرة) يمكن القول بأن المناقشات الفكرية الخصبة داخل معتقل الهايكستب ثم معتقل الطور بعد ذلك، تلك المناقشات التي دارت بين التنظيمات المختلفة المتواجدة في هذين المعتقلين في شكل ندوات واجتماعات واسعة إلى جانب تبادل التقارير المكتوبة، قد شكلت الأساس الفكري العام الذي سار عليه العمل في حدتو وخاصة بعد الافراجات الشاملة (يناير وفبراير ١٩٥٠).

وهذه المناقشات وان لم تكن متطابقة تماما مع المناقشات التي تدور بين التنظيمات المختلفة خارج المعتقلات والسجون، من خلال النشرات وغيرها من وسائل النقاش غير المباشر إلا انها كانت جزءا من تلك المناقشات وخاصة في قضايا تحديد طبيعة الثورة القادمة، ومدى سلامة أو خطأ اقتصار العمل الشيوعي وسط العمال كما كانت تطالب م. ش. م، أو الاقتصار على العمل النقابي والاقتصادي كما كانت ترى (الفجر الجديد) وكانت تلك المناقشات أكثر غزارة وفائدة لأسباب ثلاثة:

أولاها: وجود عناصر قيادية من التنظيمات المختلفة وخاصة (حدتو) والعمالية الثورية وكان يلعب من جانب (حدتو) دورا هاما في هذه المناقشات (سيد سليمان رفاعي وكمال شعبان).

ثانيهما: الوقت الهائل المكرس للمناقشات وإعداد الدراسات والأبحاث بعد ان انعدم الجانب العملي نتيجة الاعتقال.

ثالثهما: توفر بعض المراجع النظرية بعد ترجمتها للعربية.

ومن نماذج المناقشات التي دارت في تلك الفترة نسوق الأمثلة التالية:

١) تقييم دور اللجنة الوطنية للطلبة والعمال:

كان عناصر حدتو اساسا، ومعهم عناصر (العمالية الثورية) تقيم إيجابيات دور هذه اللجنة، باعتبارها التشكيل السياسي العلني الجماهيري الذي قاد نضال الشعب في فترة هامة من تاريخ الشعب المصري، وكانت المناقشة تسجل إلى جانب ذلك أهم وأبرز سلبيات هذه اللجنة وهي انها لم تجذب إلى صفوفها ممثلي الفلاحين ويبدو لي شخصيا ان الظروف آنذاك (١٩٤٦) لم تكن تساعد على جذب الفلاحين إلى هذه اللجنة، حيث لم يكن العمل الشيوعي المنظم قد اتجه إلى صفوف الفلاحين بعد، وقد أثبتت تجربة هذه اللجنة، وكافة الأشكال الجبهوية التي تواردت على مصر بعد سنة ١٩٤٦ ان اتساع أشكال الجبهات والتحالف تتسع وتضيق حسب نفوذ الشيوعيين ودورهم السياسي والتنظيمي بالتالي.

وبما ان نفوذ الشيوعيين كان بارزا ــ آنذاك ــ في مجالات العمال والطلاب، فان شكل اللجنة الجبهوي في تلك الفترة لم يكن من المتاح لها ان تتخذ غير شكل (لجنة الطلبة والعمال).

وكانت عناصر الفجر الجديد وكان يمثلهم في تلك المناقشات الزعيم النقابي (محمود العسكري) تقلل من الدور الايجابي للجنة الوطنية للعمال والطلبة وترى ان هبات تلك الفترة ــ بشكل عام ــ هبات تلقائية وعفوية لم تلعب فيها الحركة الشيوعية المصرية دورا قياديا.

٢) الموضوع الثاني الذي استغرق الكثير من المناقشات كان حول " الفكر الاقتصادي والنقابي" لجماعة الفجر الجديد.

وكان داعية هذا التفكير في المعتقل (محمود العسكري) يعتبر ان دخول المنظمات الشيوعية في منطقة شبرا الخيمة العمالية يمثل كارثة للطبقة العاملة المصرية، ووصف أعداء هذه الفكرة بأنها الترجمة المصرية لفكر الاقتصاديين في روسيا، وهو الفكر الانتهازي الذي تصدى له الرفيق " لينين ".

وفي خضم الصراع الفكري ضد جماعة الفجر الجديد التي كانت تطالب بابتعاد الشيوعيين عن العمل بين العمال، ترجم (عبد الرحمن الناصر وعمر رشدي) كتاب " ما العمل " للرفيق لينين، واستفاد الشيوعيون في المعتقل من ترجمة هذا الكتاب للغة العربية، فقد كان سلاحا فكريا هاما ضد مقولات جماعة الفجر الجديد عن ضرورة ترك الحركة النقابية والعمالية في حالة استقلال كامل عن التيارات السياسية للمثقفين المصريين بما فيها التيارات الشيوعية المصرية.

كانت عناصر " حدتو" و" العمالية الثورية " تدافع عن فكرة العمل الشيوعي وسط العمال وحتى لو كانت بدايات العمل وسطهم من خلال المثقفين باعتبار ان الوعي السياسي الطبقي للطبقة العاملة لا يمكن ان ينقل إليها إلا من خارجها، وخاصة من خلال المثقفين الذين تبنوا النظرية الماركسية اللينينية.

لقد كانت عناصر (الفجر الجديد) تعتبر ان بداية الكارثة لحركة الطبقة العاملة هي بداية احتكاك المثقفين الماركسين بها، ناهيك عن سبب النظرية الماركسية والقادة الماركسيين .. ومن هنا فالتحليل النهائي لعناصر الفجر الجديد في المعتقل انهم كانوا مجرد (عناصر نقابية) مشبعة بالكفاح والفكر الاقتصادي والنقابي.

٣) العمل وسط الفئات الشعبية الأخرى:

هذا الموضوع نال اهتماما كبيرا في المناقشات بسبب ان الأسس الفكرية التي قام عليها انقسام (م. ش. م) في سنة ١٩٤٨ هي:

ضرورة العمل وسط العمال بنسبة ١٠٠%، وكانت هذه الفكرة مغرية وجذابة لعناصر البرجوازية الصغيرة من الطلبة والمثقفين، وقد اعتمدوا على كتيب للرفيق " لينين " عن مهام الاشتراكيين الديمقراطيين الروس، رغم تباين ظروف مصر عن ظروف روسيا التي كان يعالجها الرفيق " لينين".

ومما ألهب هذا الموضوع ان العمالية الثورية ــ خوفا من الارهاب الفكري الذي تشنه " م. ش. م " في هذه القضية ــ كانت تطالب بالعمل وسط العمال بنسبة ٧٠ أو ٨٠%، أي أن الفرق الرقمي بين موقف (م. ش. م) وموقفها كان يتراوح بين ٢٠، ٣٠%.

كانت حدتو تدافع عن ضرورة العمل الشيوعي وسط كل فئات الشعب وخاصة الكادحة منها، مع التركيز على العمل وسط الطبقة العاملة.

ومرة اخرى، فان كتاب " ما العمل" كان المرشد النظري في هذه القضية.

٤) وكان الموضوع الرابع هو تحديد طبيعة المرحلة الثورية، بمعنى هل هي ثورة وطنية ديمقراطية ؟ أم ثورة اشتراكية ؟

كانت "م. ش. م" ترى أن الثورة القادمة في مصر ثورة اشتراكية وبالتالي فان الطبقة العاملة في نظرها هي الطبقة الثورية الوحيدة، وما عداها من الطبقات تتراوح بين الخيانة والتهادن والتردد. وحتى البرجوازية الصغيرة اعتبرت في نظر م. ش. م فئة مترددة وقد كان هذا الاساس الفكري الخاطئ هو الباعث على تبني م. ش. م. لشعارات ١٠٠% بين العمال، بما يرتبط بذلك من إدانة الاهتمام بتشكيل جبهة وطنية ديمقراطية واسعة، ومجمل هذه الافكار هو الذي دفع قادة م. ش. م إلى التطرف في اتهام قيادة حدتو آنذاك (بالخيانة والانتهازية).

ومن هنا كان طبيعيا ان تنال هذه القضية الفكرية والسياسية اهتماما أكبر في المناقشات.

فكر حدتو في المناقشات تبلور بشكل محدد في ان الثورة القادمة (ثورة وطنية ديمقراطية) من نوع جديد، وان الطبقة العاملة هي قائدة الثورة الوطنية الديمقراطية، وان عليها ان تشكل جبهة وطنية ديمقراطية واسعة تضم

(البرجوازية الصغيرة في المدن والريف والمثقفين والبرجوازية الوطنية) تحت قيادة الطبقة العاملة.

وحسبما أذكر فان فكر (ع. ث) كان قريبا من تفكير حدتو.

وكانت كتابات ستالين عن مراحل المستعمرات وموقف الشيوعيين في كل مرحلة مرشدا نظريا في هذا الصدد، وهذه الكتابات كانت قد ترجمت إلى العربية في المعتقل.

أدوات المناقشة:

كانت حول الموضوعات الأربعة التي أشرنا إليها تدور من خلال وسائل عديدة منها:

* تبادل التقارير المكتوبة بين المنظمات المتواجدة في المعتقل.

* الاجتماعات الواسعة التي كانت كلمات المندوبين فيها تتخذ شكل المناظرة بين وجهات النظر المختلفة.

* تبادل وجهات النظر في اجتماعات (لجنة الاتصال بين المنظمات).

وكانت مشكلة من مندوب أو اثنين عن كل تنظيم، وكانت هذه اللجنة تقوم بدور التنسيق الكفاحي فيما يهم شئون المعتقلين.

تثقيف وتربية رفاق حدتو في المعتقل:

كانت المناقشات الواسعة تلعب دورا في تثقيف زملاء حدتو، لكن كانت هناك أيضا — إلى جانب المناقشات بين التنظيمات المختلفة — ومناقشات ذات طبيعة داخلية خاصة بأعضاء حدتو فقط.

وحسبما أذكر دارت مناقشات واسعة لتحصين الزملاء ضد الاتجاهات الانقسامية، بتبيان اسسها الفكرية والسياسية والتنظيمية، والرد عليها من وجهة نظر حدتو، وفي هذه المناقشات تأصلت فكرة " التيارين" الثوري والانتهازي في الحركة الشيوعية المصرية، إلى جانب تحديد الوسائل الكفيلة بتحقيق الوحدة والتي تتلخص في التنسيق في العمل الجماهيري إلى جانب المناقشات حول المسائل المختلف عليها.

كما ألقيت عدة محاضرات عن (تـــاريخ مصـــر) قـــام بالقائـــها وادارة الحـــوار حولها الاستاذ الازهرى/ ابو الحسن الغنيمى ، كما درس رفاق حدتـــو بشكل فردى وجماعى فى هذا المعتقل كتابات لينين وستالين التى ترجمت الـــى العربية.

لا عزلة عن الشعب المصرى ولا عن الرأى العام العالمى:

كان الغرض ـ من وجهة نظـــر الحكومـــات الرجعيـــة ـ مـــن اعتقـــال الشيوعيين وسجنهم هو عزلهم عن الشعب والرأى العام العالمى ، ولافساد هـــذا الغرض كانت قيادة حدتو فى المعتقل وخاصة الرفيق (هنرى كورييل) يشـــدد دائماً على أن :

١) أن يكتب الرفاق فى المعتقل لأصدقائهم خارج المعتقل خطابات فـــى المناسبات السياسية المختلفة ، يوضحون فيها الرأى ويطالبون بـــالافراج عـــن المعتقلين السياسيين والغاء الأحكام العرفية .

٢) وكذلك الكتابة للهيئات الديمقراطية العالميـــة ، وأذكـــر شـــخصياً أن (كورييل) طلب منى أن أكتب تقريراً عن حالة الطلبة الأزهريـــين ومشـــاكلهم لارساله (لاتحاد الطلبة الديمقراطى العالمى) ونظراً لأننى كنت قد انعزلت عن حياة الأزهر مدة من الزمن ترددت فى الكتابة قائلاً ان المعلومات المتواجدة لدى قليلة الآن وأن هناك ظروفاً جديدة نشأت لا أعرف عنها شيئاً .

قابلنى (كورييل) وأثار معى نقاشاً واسعاً جوهره ان المعلومات التى أتفه من شأنها ستكون هامة جداً لاتحاد الطلبة الديمقراطى العالمى باعتباره لا يعرف شيئاً عن هذه المعلومات .

الترحيل الى معتقل الطور :

وفى بدايات ١٩٤٩ أو نهايات ١٩٤٨ قررت الحكومة فتح معتقل الطـــور، وترحيل الشيوعيين والأخوان الى هناك ، كما تقرر ابقاء (الطلبة الشـــيوعيين) وكذلك (اليهود الشيوعيين) فى معتقل الهايكستب .

ولأول مرة يفتح معتقل الطور للسياسيين (شيوعيين واخوان) فقد كان هذا المعتقل مخصصاً للأشقياء قبل ذلك ، وعنابر الطور هذه هى العنابر التى يقيم بها الحجاج المصريون عند عودتهم من الحج .

استقل المعتقلون الشيوعيون الباخرة (عايدة) من السويس الى معتقل الطور ، وهناك خصص معسكر كامل (مكون من عدة عنابر وغرف) للشيوعيين ، كما خصص أكثر من معسكر للأخوان المسلمين .

الحياة المعيشية فى معتقل الطور كانت رديئة جداً ، فنصيب المعتقل الواحد كان ٥٥ مليماً ، وكان على المتعهد أن يقدم لنا وجبات الأكل طوال اليوم فى حدود هذه الملاليم ، وبالتالى هبط المستوى المعيشى للمعتقلين الشيوعيين والأخوان المسلمين هبوطاً قطعياً ومفاجئاً وكانت الأكلات الدائمة التى تقدم لنا (الفاصوليا الناشفة والعدس وحبات من الزيتون)

وقد أنقذ الموقف الى حد ما طرود الأطعمة التى ترسل لنا من الزملاء المعتقلين الباقين فى الهايكستب أو من بعض الأهالى ذوى المقدرة المالية .

وقد اضطر المعتقلون الشيوعيون فى معتقل الطور الى الاضراب عن الطعام حوالى (١٧ يوم) بهدفين :

أولاهما : غلق معتقل الطور واعادة المعتقلين مرة أخرى الى القاهرة .

ثانيهما : تحسين المستوى المعيشى .

وقد استمرت المناقشات السياسية فى معتقل الطور ، كما كان الشأن فى معتقل الهايكستب وأقيمت أيضاً (لجنة للاتصال بين التنظيمات المختلفة لادارة الحوار وفى نفس الوقت التنسيق الكفاحى فيما يتعلق بشئون المعتقلين) .

ظواهر جديدة في معتقل الطور :

برزت فى معتقل الطور ظواهر جديدة ملفتة للنظر وهى على سبيل المثال:

١) انتقال عدوى انتخاب القيادة الحزبية فى المعتقل من صفوف (ع. ث) الى حدتو ، فبمجرد استقرارنا فى معتقل الطور ، انعقد اجتماع واسع لزملاء حدتو طرحت فيه فكرة انتخاب قيادة حزبية للمعتقل ، ورغم ان حدتو تنظيم

سرى ، ورغم وجود قادة حدتو ، ذوى التجربة أمثال كمال شعبان ، فقد أخذ الجميع بما فيهم القادة بفكرة الانتخاب ، والقيادة التى انتخبت كان من ضمنها كمال شعبان ، وعبد الفتاح الهنيدى ، والمهندس بشرى سعد الله ومما يدل على خطأ فكرة الانتخاب فى الظروف السرية أن المهندس بشرى سعد الله وكان رفيقاً حديثاً جداً فاز على محمد محمد شطا الذى كان قد نقد نفسه عن انقسامه وعاد لحدتو ، فاز بشرى سعد الله لأنه كان مثقفاً ويقدم بعض الخدمات للزملاء فى مجال التعليم والتثقيف ، وكانت له علاقات حسنة بالرفاق بما يتميز به من دماثه فى الخلق رغم انه لم يكن يملك ما يملكه شطا من رصيد أو خبرة نضالية .

وقد ترك بشرى سعد الله الكفاح الشيوعى فور خروجه من المعتقل بينما استمر (شطا) فى النضال .

٢) انتشار عدوى الاتهام بالبوليسية ، فقد حمل (محمود العسكرى) هذه الراية عالياً ، وهناك العديد ممن اتهموا بالبوليسية فى معتقل الطور ، وكان من ابرزهم (محمد أبو الحسن الغنيمى العالم الازهرى) ورغم تمسك حدتو بالدفاع عنه ، ووقفتها ضد حملة التشهير بالبوليسية ، سرت هذه العدوى ، وكانت تعقد لها اجتماعات واسعة تشمل كل المعتقلين الشيوعيين كان (محمود العسكرى) يصول فيها ويجول وكأنه وكيل نيابة فى قاعة محكمة .

٣) تم نقل بعض الشيوعيين من أعضاء حدتو ممن كانوا يعملون فى الجيش كفنيين فى سلاح الطيران من الخدمة العسكرية وتم ترحيلهم جميعاً الى معتقل الطور وكان هؤلاء منفيين بالواحات منذ قيام حرب فلسطين فى مايو سنة ١٩٤٨ بعد ان اتخذوا موقفاً شجاعاً فى معارضة حرب فلسطين ، ... وكما كانت حدتو متميزة ومنفردة بميزة وجود شيوعيين سودانيين ونوبيين بها فى الهايكستب ، اصبحت متميزة بأنها الوحيدة التى لها عسكريون سابقون معتقلون.

٤) كانت هناك نواة خطة لقيادة حدتو فى معتقل الطور ، لتهريب عدد من رفاقها من المعتقل وفى اعتقادى ان من ضمن أسباب عدم تنفيذ هذه الخطة هو عودة المعتقلين الشيوعيين مرة أخرى الى الهايكستب بعد ذلك . غادرت معتقل

الطور بمفردى فى ١٩٤٩ الى سجن مصر لقضاء فترة عقوبة (حكم ثلاثة أشهر) على اخلالى بنظام الازهر فى فبراير ١٩٤٨ (حسبما ذكرت فى الصفحات السابقة) ، عندما انهيت مدة العقوبة وعدت الى معتقل الهايكستب ، كان عدد من المعتقلين قد أفرج عنهم فى ظل وزارة حسين سرى التى شكلت للاشراف على الانتخابات البرلمانية ، ولم يبق الا العدد القليل فى انتظار الافراج عنه بعد تشكيل الوزارة .

هنرى كوربيل لعب دوراً فى تربيتى كمناضل شيوعى:

فى الفترة من صيف ٤٥ الى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، كنت أتقابل نادراً مع هنرى كوربيل ، وكانت لقاءاتى معه تتم من خلال اجتماعات قسم الأزهر فى ح.م وحدتو ، ولكن بعد اعتقالى فى الهايكستب وبالذات قبيل الافراج عن المعتقلين الشيوعيين كنت قريباً منه وأسكن معه فى عنبر واحد .

وقد انتهز (كوربيل) فترة التحضير لتحديد موقف حدتو فى انتخابات البرلمان فى ١٩٥٠ ، وكلفنى باسم المجموعة المركزية فى الهايكستب بصياغة ذلك التقرير ، وكان يستهدف من ذلك تدريبى على الكتابة السياسية ، يؤكد ذلك ان هناك كثيرين كانوا أقدر منى على كتابته .

ترددت فى الكتابة فشجعنى عليها ، وراجع معى ما أكتبه أكثر من ثلاثة مرات وحرص على ألا يبدى ملاحظاته كلها مرة واحدة، حتى لا يصيبنى بالاحباط ، فى كل مرة من مرات المراجعة كان يثير بعض الملاحظات ، الى ان اكتمل التقرير فى صورته النهائية ، وأذكر أن الكتابة الأولى للتقرير كانت مليئة بالعبارات البلاغية الخالية من أى مضمون سياسى عميق ، كان ذلك بسبب ضعف الخبرة فى الكتابة السياسية الى جانب تأثرى الشديد بالأسلوب البلاغى الأزهرى فى الكتابة .

ومنذ ذلك الحين ، تشجعت فى ممارسة الكتابة السياسية وما مارسه كوربيل معى، هو ما يجب أن يمارس فى تربية الكوادر الشابة .

تقديـــم

عندما جمعنا ما كتبه مبارك عبده فضل عن حياته وجدنـــا انـــها تدور عن كفاحه في الحركة الشيوعية المصرية وبالذات فـــي التيـــار الذي ارتبط به طول حياته حتى وفاته وهـــو "الحركـــة الديمقراطيـــة للتحرر الوطني" (حدتو) أكثر مما تدور عن حياته الشخصية. وكان ما جمعناه بلا عنوان فوجدنا ان العنوان الصحيح ليس ســيرة ذاتية بقـدر ما هو كتاب عن "الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني" (حدتو).

وإننا إذ نصدر هذا الكتاب فليس الهدف منه هو بيان أن حدتو هي الحركة الشيوعية المصرية الوحيدة التي كانت تعمـــل فـــي الســـاحة المصرية وأنه لم يكن هناك شيوعيين أخرين أو تنظيمـــات شـــيوعية أخرى كان لها دورها في الساحة المصرية. ولكنها (حدتو) كانت تمثل تيارا هاما كانت له فعاليته الكبيرة وتميز بميزتين أساسيتين إلى جـــانب ميزات أخرى تعرض لها مبارك:

أولها: أنه التنظيم الوحيد الذي كان طوال وجوده يسعى إلى وحدة كـل الشيوعيين وأنه لم يدع لنفسه أبدا أنه التنظيم الشيوعي الوحيـــد. وكان نضاله من أجل الوحدة يميز تاريخه الطويـــل والمســـتمر علي مدى وجوده كله.

ثانيا: أنه التنظيم الذي كان طوال وجوده يحرص على التحـــرك مـــع الناس ومع الجماهير ولا يبتعد عنـــها ويحـــذر دائمـــا مـــن الابتعـــاد عنها. ولهذا كان يدعو ويعمل دائما من أجل التحـــالف والجبهة.

جوهر موقف حدتو من انتخابات البرلمان فى ١٩٥٠ :

دارت تلك الانتخابات البرلمانية وبعض عناصر حدتو فى المعتقل ، ومع ذلك حرصت قيادة حدتو أن تحدد موقفها تماماً من تلك الانتخابات ، وتحدد جوهر موقفها فى الاولويات التالية :

- اذا كان هناك مرشح شيوعى فى احدى الدوائر فهو الأولى بالتاييد والمساندة .
- اذا لم يتوافر مثل هذا المرشح الشيوعى فان أى مرشح من العمال يجب أن ينال تأييد حدتو .
- ونظراً لأن حزب الوفد كان المنافس الأساسى لمرشحى أحزاب الأقلية والسراى ، فقد تبلور الخط العام لحدتو فى تأييد مرشحى الوفد فى الدوائر التى تخلو من مرشحين شيوعيين أو عمال .

محاولات البوليس لترحيلى للسودان :

كما قلت فى الصفحات السابقة كان هناك سودانيين فى المعتقل من أعضاء حدتو ومع بدايات ١٩٤٩ ، تم البدء فى ترحيلهم الى السودان .

قبل الافراج النهائى عن الشيوعيين فى ١٩٥٠ فوجئت باستدعائى الى البوليس (قلم شئون الاجانب) بهدف ترحيلى للسودان ، بحجة أننى (سودانى الجنسية) ولست مصرياً .

رفضت الترحيل مقرراً أننى (مصرى) لحماً ودماً وبعد أن أدليت بكافة المعلومات والبيانات التى تثبت (مصريتى) ألغى قرار الترحيل المفاجىء، واحتجزت فى سجن الاجانب الى حين التأكد من صحة البيانات التى أدليت بها، وبذا كنت آخر معتقل شيوعى يفرج عنه ، ويستأنف نشاطه الشيوعى من جديد فى فبراير ١٩٥٠ ، بعد فترة سجن واعتقال دامت أكثر من سنة ونصف .

***

النضال الشيوعى فى مصر
من ١٩٥٠ - ١٩٥٢

الظروف السياسية والجماهيرية:

انتهت الانتخابات بنجاح حزب الوفد وتكليف الزعيم " النحاس باشا " برئاسة الوزارة ، وكان وزير الداخلية فؤاد سراج الدين باشا .

واتسمت هذه الفترة بنهضة عامة للحركة الجماهيرية والسياسية ، وبوقوع أحداث هامة كان من أخطرها وأهمها الغاء معاهدة ٣٦ وبدء الكفاح المسلح فى القنال.

وضع الحركة الشيوعية المصرية فى تلك الفترة :

لم يبق من الشيوعيين معتقل واحد،انما كان هناك عدد لا بأس به من الشيوعيين يقضون فترات العقوبة فى السجن،ما بين ٧ سنوات و٣ سنوات،وصدرت تلك الأحكام بالسجن فى فترة الارهاب الأسود ٤٨ - ١٩٥٠ من الدائرة العسكرية التى كان يرأسها المستشار حسين الطنطاوى.

ورغم هذا فان معظم الشيوعيين كان خارج السجون آنذاك والتنظيمات الشيوعية التى تواجدت فى الساحة فى بدايات ١٩٥٠ هى :

١) الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) وكان من زعمائها (كوربيل – سيد سليمان رفاعى – كمال عبد الحليم – كمال شعبان – محمد شطا).

٢) نحو حزب شيوعى مصرى (نحشم)، وكانت نتاج وحدة بين (العمالية الثورية – ونحو حزب شيوعى (نحش)، ورفاق من حدتو انضموا اليه) وكان من زعمائها الرفاق (زكى مراد – أحمد الرفاعى – عبد المنعم ابراهيم – جمال شلبى – سيف الدين محمد صادق – فكرى الخولي ... الخ).

٣) الحزب الشيوعى المصرى (الراية) الذى تأسس فى نهايات ١٩٤٩ فى الأساس من عناصر مصرية عادت من فرنسا،ومجموعة المطبعة التى انشقت عن حدتو، وعناصر من العصبة الماركسية،وكان من زعمائها (الدكتور فؤاد مرسى والدكتور اسماعيل صبرى عبد الله وداوود عزيز ــ سعد زهران ــ مصطفى طيبة).

٤) الفجر الجديد أو د. ش:

وكان من زعمائها (أبو سيف يوسف ــ صادق سعد ــ ريمون دوين ــ يوسف درويش ــ حلمى يس).

٥) وكانت هناك تنظيمات أو حلقات أخرى منها مثلاً (نواة الحزب الشيوعى) بزعامة فوزى جرجس، و(النجم الأحمر) بزعامة عدلى جرجس وكان انشقاقاً عن تنظيم نحشم، ومجموعة (جات) وأبرز أشخاصها الدكتور (عصام جلال ــ أحمد طه ــ اسماعيل جبر ــ صلاح سلمى).

كان هذا واقع الحال فى فبراير/ مارس ١٩٥٠، ونلاحظ على هذه الخريطة الملاحظتين الأساسيتين التاليتين :

الأولى : ان تنظيم م.ش.م رغم أنه كان أضخم انقسام حدث فى حدتو عام ١٩٤٨ ، قد تلاشى تماماً فى هذه الفترة تقريباً ، كان السبب الرئيسى وراء هذا التلاشى هو الموقف اليسارى المتطرف الكامل فى السياسة والتنظيم الذى انتهجته قيادة هذا التنظيم منذ انشائه ، وكانت هناك أسباب أخرى وراء هذا التلاشى ، منها أن قيادة هذا التنظيم (منها سلامون وزوجته) هاجرا للخارج ، ومنها أن جزءاً لا بأس به من عضوية هذا التنظيم كان يقضى فترة عقوبة السجن ومنها انتشار حالة الريبة والتشكك بين عناصر هذا التنظيم بعد أن انتشرت عدوى الاتهام بالبوليسية والخيانة لأتفه الأسباب ، وهى العدوى التى ساعدت على نشرها قيادة هذا التنظيم .

المهم أن العضوية الواسعة التى امتصتها قيادة م.ش.م من حدتو ، قد ركنت (ما عدا بعض الاستثناءات) الى حياة الدعة والهدوء بعد أن أعماها اليأس وفقدت

الأمل فى تحقيق أية نجاحات من وراء السياسة اليسارية التى انتهجتها قيادة م.ش.م .

الملاحظة الثانية : أن قيادة (ع.ث التاريخية ، عبد المعبود الجبيلى وعبد الرحمن الناصر ، وعبد العظيم أنيس ، التى طالما شنت الهجوم السياسى والتنظيمى على قيادة حدتو طوال فترة الاعتقال وقبله، انتهزت أول فرصة وسافرت للخارج لنيل شهادات الدكتوراه بعد أن سهل لها الأمر وزير الداخلية (فؤاد سراج الدين).

استمرار الصراع بين التيارين من ١٩٥٠ ــ ١٩٥٢:

فى الفترة من ١٩٤٠-١٩٥٠ دار صراع بين المنظمات الماركسية المختلفة وظهرت خلافات بينها وعبر هذا الصراع وتلك الخلافات عن وجود تيارين في الحركة الشيوعية المصرية ، أحدهما التيار الثورى جسدته ح.م ثم حدتو بعد ذلك ، أما ثانيهما فكان التيار الانتهازى مهما كانت الأسماء التى أطلقت على منظمات تلك الفترة سواء كانت منقسمة من ح.م أو حدتو أو نشأت مستقلة ، وكافة القضايا والمسائل التى ارتبطت بكفاح الشعب المصرى والطبقة العاملة المصرية فى تلك الفترة .

حدتو تخرج من المعتقل فى فبراير ١٩٥٠ :

خرجت (حدتو) من المعتقل مثل بقية التنظيمات خرج أعضاءها وكذلك قيادتها.

خرج من قادة حدتو (كوربيل ــ سيد سليمان رفاعى ــ محمد شطا ــ كمال شعبان) والتقى هؤلاء القادة بقادة حدتو فى الخارج (كمال عبد الحليم- والسودانى الجنيد على عمر). وقد التقت القيادة معاً بعد طول فراق لما يقرب من عامين وكانت المسألة المحورية لنقاشاتها هى كيفية استئناف العمل فى الظروف الجديدة من الناحيتين الجماهيرية والتنظيمية .

هذا بينما بعض قيادة (ع.ث) (عبد المعبود الجبيلى ــ عبد الرحمن الناصر ــ عبد العظيم أنيس) سافروا لخارج مصر بتسهيلات من فؤاد سراج الدين أو بالاتفاق معه.

وهذه البداية سواء كانت نضالية ، كما حدث لقادة حدتو أو هروبية كما حدث لبعض قادة (ع.ث) ترينا كيف أن المسألة الاساسية فى انشاء عمل سياسى ما أو تطويره يتوقف على دور قيادى والعكس بالعكس ، فالعضوية العامة لحدتو سواء تلك التى خرجت من المعتقل أو تلك التى لم تمسسها يد الاعتقال وظلت كامنة تنتظر يوم بدء الحركة ، كل هذه العضوية لم يكن فى مقدورها ان تتحرك وتجعل من حدتو بناء ضخماً سياسياً وجماهيرياً وتنظيمياً لولا جهد قيادة حدتو بعد فض المعتقلات مباشرة وطوال الفترة اللاحقة لذلك .

وبالتالى فالسؤال الجوهرى الذى يطرحه هذا الأمر هو كم من قيادة حدتو ثبتت فى صفوف المناضلين وكم من قادة التنظيمات الانقسامية الأخرى هجرت المعركة ؟

نقطة البداية الجماهيرية:

كانت قيادة حدتو تحس – بحكم عقليتها الجماهيرية – أن نقطة البداية فى تنشيط العمل الجماهيرى هو اصدار مجلة علنية سياسية .

مجلة البشير :

كانت هذه المجلة العلنية هى مجلة (البشير) وقد أصدرتها حدتو بعد فض المعتقلات مباشرة بالتعاون مع المرحوم/ فتحى الرملى باعتباره عضواً فى نقابة الصحفيين يملك بهذه الصفة حق رئاسة التحرير .

كانت حدتو هى التى تقوم بعملية التمويل والتوزيع للمجلة كاملة ، وكانت هى التى تعد موضوعات المجلة وتحرر كلمة المجلة الرئيسية بالتعاون مع (فتحى الرملى) ، لم يكن للمجلة مقر ، وأذكر أن المقالات كانت تحرر فى القهوة بحضور فتحى الرملى وزملاء حدتو الذين يساهمون فى تحرير المجلة ، وكانت هناك ملاحظتان أساسيتان لابد من تسجيلهما فى هذا الصدد .

الأولى : أن كل الرفاق فى حدتو رغم قلة عددهم آنذاك كانوا يساهمون قيادة وقاعدة فى توزيع المجلة وذلك بالصلة المباشرة بين الرفاق والقراء ، فلم تكن مجلة البشير تعرف شركات التوزيع .

الثانية : أن المجلة ساهمت فى توسيع العلاقات الجماهيرية لمنظمة حدتو ، ومن خلال هذه العلاقات توسعت العضوية التنظيمية وكانت حدتو بعد خروجها من المعتقلات فى حاجة ماسة الى التوسع فى المجال الجماهيرى وفى مجال العضوية .

وفى الفترة التى اصدرت فيها حدتو مجلة (البشير) لم تهتم التنظيمات الماركسية الأخرى وأهمها (منظمة الراية ود.ش) باصدار مجلة علنية .

وهذا يعكس الفرق بين رؤيتى التيارين (الثورى والانتهازى) للعمل العلنى والجماهيرى (الاعلامى وغيره) فى توسيع نفوذالتنظيمات الماركسية سياسياً وكسب العضوية الجديدة من خلال العمل الجماهيرى .

مجلة البشير والكفاح من أجل السلام:

وبناء على توجيه من قيادة حدتو نشرت (البشير) نداء استكهلم ضد القنابل والتجارب الذرية ، وكان هذا النداء نداء عالميا صادراً من حركة السلام العالمية.

ويمكن القول أن طبع ونشر هذا النداء وجمع التوقيعات عليه من المواطنين حقق عدة نتائج ايجابية .

أولها : أن نشر النداء جماهيرياً وجمع التوقيعات عليه خلق المناخ المناسب لبناء حركة السلام المصرية تنظيمياً .

ثانيها : أدى جمع التوقيعات الى توسيع النفوذ السياسى والجماهيرى لمنظمة حدتو ، وخلق عدداً من الصلات بين أعضاء حدتو وجماهير الشعب .

ثالثها : واستفادت حدتو من اتساع صلاتها بالجماهير فى توسيع العضوية الحزبية .

ماذا كان موقف التيار الانتهازى من جمع التوقيعات :

اتخذت منظمة الراية ، ود.ش أساساً ومعهما منظمة (النجم الأحمر) موقفاً معارضاً من حملة جمع التوقيعات التى كانت تنظمها مجلة (البشير) ، وكانت تتهم حدتو والقائمين بهذا العمل بأنهم يخدمون (البوليس) وكانوا يرددون أن هذه

التوقيعات ستسلم لأجهزة الأمن ، كان هذا الاتهام يخفى وراءه كما سيتضح فيما بعد ، العداء للعمل الجماهيرى بشكل عام ، والعمل الجماهيرى فى مجال الدفاع عن السلام العالمى بشكل خاص .

بناء حركة السلام المصرية تنظيمياً:

كانت المسألة الثانية التى تشغل ذهن قيادة حدتو (بعد اصدار مجلة البشير ونداء استكهلم) هو القيام بمجموعة من الاتصالات مع عدد من الشخصيات المصرية لتشكيل وتكوين حركة سلام مصرية ، بدءاً بتشكيل قيادة لها ، وكانت هذه العملية فى تواز مع جمع التوقيعات المرشدة لقيادة حدتو فى بناء حركة السلام المصرية ترتكز على عدد من المحاور :

المحور الأول : أن حركة السلام المصرية لابد أن تكون علنية وقانونية وشرعية ، مدركة أنه كلما اتسعت فى علنيتها وقانونيتها وشرعيتها ، كانت قادرة على حماية نفسها وعلى الاستمرار فى نفس الوقت .

المحور الثانى : أن قيادة حركة السلام لابد أن تضم فى صفوفها الشخصيات الواسعة النفوذ فى المجتمع المصرى ، بما يفترضه ذلك من تعدد الانتماءات السياسية ، والاختلافات العقائدية وتمايز الانتماءات الطبقية ، واختلاف المهن ، طالما أنها ضد الحرب ، ومن هنا جمعت حركة السلام المصرية فى قيادتها شخصيات تنتمى لمختلف الأحزاب السياسية التى كانت موجودة آنذاك ، وجمعت الشيوعيين وغير الشيوعيين ، وضمت فى صفوفها عناصر تنتمى للاقطاع والبرجوازية والعمال والمثقفين .

المحور الثالث : أن ايجاد الدور القيادى لحدتو فى هذه المعركة لن يتأتى بحشد الزملاء فى قيادتها كأغلبية عددية ، انما بممارسة عملية نشيطة يكتسب زملاء حدتو من خلالها نفوذاً يتنامى باستمرار رغم قلة عددهم فى قيادة حركة السلام .

وبناء على هذه الفكرة الأساسية بمحاورها الثلاثة نجحت حدتو بفضل عدد من الرفاق الذين تخصصوا فى هذا العمل فى البداية (كان من ضمنهم كمال

عبد الحليم ، وسعد كامل ، وأضيف اليهم رفاق آخرون فيما بعد) فى بناء اللجنة التحضيرية لانصار السلام فى مصر (كانت هذه اللجنة هى القيادة) .

تشكلت بعدها عدد من لجان السلام الفرعية فى أنحاء مختلفة للبلاد، وكان لحركة السلام المصرية مقر ومجلة علنية " الكاتب " استمرت فى الصدور حتى حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، وقويت صلات حركة السلام المصرية بشقيقاتها فى البلاد الأخرى وبمجلس السلام العالمى الذى كان من أعضائه عدد من أعضاء حركة السلام المصرية ، ووصلت حركة السلام المصرية الى قمة نجاحها بالتحضير لمؤتمر شعوب الشرق الأوسط الذى كان مفروضاً انعقاده بالقاهرة فى فبراير ١٩٥٢ .

هذا ما نجحت فيه حدتو بناء على فكرتها الأساسية ومحاورها الثلاثة التى أشرنا اليها .

ماذا كان موقف الراية ود.ش من حركة السلام ؟

فى السطور السابقة حددنا أن الراية ود.ش قاومت حركة التوقيعات على نداء استكهلم التى كانت تتبناها (مجلة البشير) متهمة هذه الحركة الشاملة والقائمين عليها بخدمة أجهزة الأمن ، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد .

فالراية تبنت فكرة أن تكون حركة السلام حركة سرية مقابل فكرة حدتو أن تكون هذه الحركة علنية بأوسع معانى العلنية ، والغريب فى الأمر أن الراية طرحت فكرتها هذه فى ظل ظروف عامة كانت تبشر بالنهضة العارمة للحركة الجماهيرية فى ظل حكومة الوفد بعد حملة اضطهاد عاشها الشعب لمدة ٨ سنوات فى ظل حكومات الأقلية وصلت فى قمتها الى حملة الاعتقالات من منتصف ١٩٤٨ الى فبراير ١٩٥٠ ، ووضعت الراية فكرتها عن سرية الحركة فى التطبيق فلم تكن فى الواقع الا خلايا الحزب (الراية) فى بعض المجالات وفكرة الراية كانت ستؤدى اذا أخذ بها الى أن تكون حركة السلام حركة انعزالية ، لا حركة جماهيرية ، حركة يسهل ضربها واقتلاعها فى الواقع لا حركة قادرة على الاستمرار والنمو .

وقد أثبتت التجربة أن فكرة الراية فى سرية لجنة السلام كانت خاطئة تماماً وغير ثورية .

أما د. ش فلم تتبنى فكرة سرية حركة السلام شأن الراية ، لكنها تبنت مفاهيم شبيهة وبالتالى وقفت فى نفس الخندق الانتهازى مع الراية تحارب بضراوة الاتجاه الثورى لحدتو ، كان جوهر فكرة د.ش أن حركة السلام لابد أن تكون حركة طبقية ، عكس مفهوم حدتو القائل بأن تضم هذه الحركة شخصيات ذات نفوذ وتأثير أياً كانت انتماءاتها الطبقية والعقائدية والسياسية طالما أنها تعادى الحرب ، كانت د.ش تتصور أن قضية الكفاح من أجل السلام هى قضية العمال فقط وليست قضية كل الطبقات الأخرى ، وتحت تأثير هذا المفهوم الخاطئ شنت د.ش حملة هجوم واسعة على قادة حركة السلام وبشكل خاص قيادتها (اللجنة التحضيرية) بدعوى أنها عناصر برجوازية وليست عمالية ، وكانت تتصور أن يكون قائد حركة السلام فى مصر آنذاك (محمود العسكرى أو يوسف المدرك) وليس يوسف حلمى الذى كان أحد أركان الحزب الوطنى آنذاك ، والذى بدأ نضاله من هذا الموقع ، وأن تطور ووصل الى عضوية (حدتو) فى مرحلة لاحقة .

والخندق الانتهازى الذى كان يشمل (الراية ود.ش) فى صف واحد ساقهما الى اتخاذ موقف المعاداة والتخريب السافر ضد حركة السلام المصرية بشكل عام ، ومعاداة عناصر حدتو التى كانت قليلة فى قيادة هذه الحركة ، وبدلاً من الانخراط العام فى صفوف هذه الحركة وتنفيذ توجيهاتها فى العمل قامت المنظمتان المشار اليهما بأعمال انقسامية ، أحياناً انشاء لجان فرعية غير اللجان المكونة فى نفس المجال ، وأحياناً القيام بحملة توقيعات خاصة غير التى كانت تتبناها حركة السلام المصرية .

وليس المقصود هنا سرد تفاصيل عمليات التخريب التى قامت بها هاتان المنظمتان وبعض الحلقات الصغيرة التى كانت تدور فى فلكها كالنجم الأحمر ، ولكن التجسيد العملى لنية التخريب صدر فى كتاب أصدره أحد قادة د. ش ضد حركة السلام (فؤاد عبد المنعم شحتو) وواصلت الحملة مجلة " الناس" التى كان يشرف على تحريرها (رشدى صالح) .

النتيجة المستخلصة من هذا العرض هى أنه كما كان الأمر فى الماضى جسدت حدتو حقيقة التيار الثورى كاستمرار للماضى ، واستئناف له فى الظروف السياسية الجديدة ، بينما جسدت المنظمات الأخرى (مهما تعددت أسمائها موقف التيار الانتهازى المعادى لحدتو ومواقفها فى العمل العام الجماهيرى والسياسى). والتفاصيل التى عرضناها وهناك غيرها كثير تؤكد هذا وبعد أن مضى من العمر ما يزيد عن ربع قرن أصبح واضحاً مدى الجرم السياسى والتنظيمى الذى ارتكبته منظمتا (الراية ود.ش) ضد أول منظمة جماهيرية للسلام العالمى تشهدها مصر فى الظروف الجديدة .

توحيد الحركة النقابية المصرية:

وكان العمل الجماهيرى الثالث الذى اهتمت به قيادة حدتو هو مجال توحيد الحركة النقابية المصرية .

كان توحيد الطبقة العاملة المصرية أملاً طالما راود الشيوعيين المصريين فى الفترات التاريخية السابقة ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق ولم يقطع فيه شوط كبير بحكم الظروف الصعبة والقاسية التى كانت سائدة قبيل وخلال وبعد الحرب العالمية الثانية ، وهى الفترة التى استمرت حتى بدايات سنة ١٩٥٠ .

فى الظروف الجديدة ، ظروف الديمقراطية النسبية الواسعة ، والنهضة التى تقبل عليها الحركة الجماهيرية بدا فى الأفق أن هذا الأمل يمكن تحقيقه .

وكانت البداية التنظيمية لهذا العمل الجماهيرى الواسع هو :

أولاً : مناقشة هذه القضية فى الاجتماعات القيادية المركزية وقد ناقش المكتب السياسى لحدتو هذا الموضوع أكثر من مرة .

ثانياً : تشكيل فرقة عمل كانت تسمى (المكتب النقابى المركزى لحدتو) من عدد من الرفاق ، أذكر منهم كأساسيين ومعاونين (أحمد طه – محمد على عامر – سيد ترك – محمد نوح – أنور فلتس – المرحوم محمود فرغلى – سيد مصطفى).

وإذا كان مبارك عبده فضل في هذه الأوراق يتحدث عن تيار ثوري ويقصد به حدتو، وتيار انتهازي ويقصد به مواقف التنظيمات الأخرى التي كانت تتصارع مع حدتو. فلا أعتقد أنه يقصد أن التنظيمات الأخرى لم تكن تنظيمات شيوعية أو أنه ينكر نضال وثورية أعضائها وتضحياتهم الأسطورية من أجل الأهداف الثورية التي كانوا يؤمنون بها.

ولكن الذي أعتقده أن مبارك عبده فضل كان يقصد بالتيار الثوري أنه ذلك التيار الذي حدد في الأساس مسار ودور الشيوعيين في الحركة الوطنية المصرية من أجل التحرر السياسي والاجتماعي ودورهم في الحركة العمالية والنقابية المصرية من أجل وحدتها وفعاليتها. وكذلك دورهم البارز في الحركة الثقافية المصرية، وفي مجمل تاريخ الحركة السياسية في مصر التي لم يعد أحد ينكره.

ومن هذا المنطلق ينقد مبارك سياسات ومواقف التنظيمات الأخرى التي عارضت ووقفت في الفترات المختلفة ضد هذا التوجه.

وإن إحساس الشيوعيين المصريين الآن بضرورة الوحدة كذلك مع كل القوى الثورية والوطنية الأخرى من أجل الأهداف المشتركة هو درس تأكد في النضال الطويل. والذي تبين منه أيضا أن الاختلاف في الرأي يساعد علي اغناء المواقف الثورية والوطنية ولكنه لا يغني عن الحاجة إلى الوحدة بل يتطلبها.

محمد يوسف الجندي

ولم تكن مهمة هذا المكتب التخطيط للعمل النقابى فى حدود الخط العام لحدتو فقط بل كانت مهمته أيضاً التنفيذ الفعلى لما يتوصل اليه من قرارات بالاستعانة بهيئات الحزب الأخرى .

الحالة الواقعية للحركة النقابية آنذاك :

كانت الحركة النقابية المصرية حركة علنية مشروعة بحكم قوانين النقابات، ولكنها كانت مشتتة فى نقابات متفرقة لمؤسسات صناعية أو مهنية معينة فى احدى المدن وبالتالى لم تكن موحدة لا فى اتحاد مهنى واحد للنقابات التى يعمل عمالها فى مهنة واحدة ، ولم يكن هناك (اتحاد عام) يضم هذه النقابات المتفرقة الضعيفة .

ونتيجة هذا التشتت كانت الحركة النقابية تتميز بالضعف الشديد من ناحية ، وبسيطرة العناصر النقابية الصفراء من ناحية أخرى ، كما كان للشيوعيين المصريين (حدتو أساساً ود.ش الى حد ما) دور ما فى بعض النقابات .

جوهر أفكار حدتو وممارساتها العملية فى هذا المجال:

كانت هذه الأفكار ترتكز على منهج ورؤية واضحة لأهمية العمل الجماهيرى العلنى الواسع وقيمته الكبرى ، وكما كان الشأن فى انشاء حركة السلام المصرية الذى يرتكز على الاتساع والعلنية كان الأمر فى مجال الحركة النقابية مع مراعاة اختلاف الأهداف .

كانت الفكرة الجوهرية لحدتو هى السعى الجدى لتوحيد الحركة النقابية المصرية فى جهاز واحد هو الاتحاد العام . من خلال التعاون فى عمل تحضيرى واسع مع كل قادة الحركة النقابية المصرية مهما كانت آراؤنا فيهم ،

وكانت حدتو تدرك أن توحيد الحركة النقابية فى جهاز واحد هو الطريق الأسلم لأن تكون قوية وتتطهر فى مسار نضالها من العناصر الصفراء والمتخاذلة فى الحركة النقابية وبناء على هذه الفكرة سعت عناصر حدتو الى الاتصال بعدد من العناصر النقابية ، وأسست بالتعاون معهم ما يسمى (باللجنة التحضيرية) لاتحاد النقابات.

كان هناك من جانب حدتو ادراك واقعى لظروف الحركة النقابية المصرية آنذاك والتى يمكن تلخيصها فى انعدام مركز موجه للحركة النقابية ، مما ينتج عنه تشتت الحركة النقابية وضعفها ، وذلك الضعف الذى أدى بدوره الى سيطرة القادة النقابيين من العناصر الصفراء على الجزء الأغلب من الحركة النقابية ، بل وارتباط جزء من هؤلاء القادة بالأحزاب البرجوازية حتى تلك التى كان يقودها بعض الأفراد (عباس حليم وحزب العمال) .

واذا كان هناك للشيوعيين دور فى الحركة النقابية فقد كان هذا الدور محدوداً من ناحية ومحصورا فى نطاق تنظيمين شيوعيين آنذاك هى (حدتو) أساساً ، ود.ش .

من هذه الظروف استنتجت (حدتو) الموقف الذى يجب اتخاذه فى النضال لتوحيد الحركة النقابية ، واعتمد هذا الموقف على المحاور التالية :

١) أن يكون المسلك النضالى فى هذا التوحيد نضالاً علنياً ومشروعاً ، لاعطائه القدرة على النمو والاستمرار ، طالما أن النقابات العمالية علنية وقانونية ، اكتسبت قانونيتها من القوانين المصرية .

٢) التعاون فى مجال توحيد الحركة النقابية مع كل العناصر النقابية أيا كانت وجهة نظر حدتو منها ، طالما كانت تحتل مراكز قيادية نقابية ، وطالما كانت موافقة على قضية التوحيد ، بحيث يتخذ هذا التعاون شكلاً واسعاً وعريضاً، ويبنى على أساس برنامج نقابى واضح .

٣) رفض نظرية (المراحل) فى اتمام عملية التوحيد النقابى القائمة على البدء فى مرحلة معينة بعد انجاز المرحلة التى تسبقها ، على أساس أن الكفاح من أجل عملية الوحدة واتمامها فى نفس الوقت سيحمل فى طياته امكانيات تحقيق الأهداف ، من تطهير للنقابات من العناصر الصفراء الى بناء اتحادات مهنية مثل (النسيج-النقل الخ ..)

٤) ان نفوذ حدتو وعناصرها النقابية فى هذا المجال ، لن يفرض فى بداية العملية انما فى مسارها الطبيعى وبشكل تدريجى .

٥) منذ الوهلة الأولى لبدء عملية التوحيد لابد من وضع نوايات التعـاون الأممى مع الطبقة العاملة فى أنحاء العالم ، ومع العمال العرب فى نفس الوقت .

... على أساس هذا الموقف المعتمد على المحاور الخمسة التى أشـرنا اليها بدأت حدتو خطوات التنفيذ العملى بأن تشكلت مجموعة من مندوبى النقابات بما فيهم زملاء حدتو .

وأذكر أن النقابات فى الاجتماعات الأولى كانت ٢٥ خمسة وعشرون نقابة، وتنامى هذا العدد وتطور الى أن وصل الى أكثر من ١٥٠ نقابة يوم ٢٧ ينـاير ١٩٥٢ موعد انعقاد المؤتمر التأسيسى الأول لاتحاد النقابات .

وكان رفاق حدتو فى اللجنة التحضيرية لاتحاد النقابات قليلى العدد ومـع هذا كان يتنامى نفوذهم يوماً بعد يوم ، وكان قيام أحمد طه عضو حدتو آنـذاك وأصغر أعضاء اللجنة التحضيرية سناً بمهام منصب السـكرتير العـام للجنـة التحضيرية من الدلائل على ذلك وقد سافر أحمد طـه كمنـدوب عـن اللجنـة التحضيرية لإتحاد النقابات الى بعض اجتماعات ومؤتمرات الإتحـاد العـالمى للنقابات ، كما سافر وفد من اللجنة التحضيرية لحضور أحد مؤتمـرات اتحـاد نقابات عمال السودان (أذكر أنه كان من ضمن هـذا الوفـد المرحـوم محمـد فرغلى، ومحمد نوح ، وأنور فلتس ، وسيد مصطفى) .

كما جاء وفد عمالى سودانى برئاسة (قاسـم أميـن) لحضـور المؤتمـر التأسيسى الأول لاتحاد نقابات عمال مصر الذى كان مفروضاً انعقاده فـى ٢٧ يناير ١٩٥٢ .

ويمكن أن يقال أن هذا الجهد المضنى فى المجـال النقـابى مـن حدتـو وعناصرها هو الذى وضع الأساس لإستمرار العمل التوحيدى النقابى بعد ثـورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وغنى عن البيان أن هذا هو الجهد الذى وضع اللبنة الأولـى فى بناء الإتحاد العام للنقابات فى عام ١٩٥٦ .

ماذا كان موقف الراية، و د.ش من قضية الوحدة النقابية المصرية؟

هناك اتفاق فى الجوهر الفكرى وفى النتائج العملية لموقف هذين التنظيمين من هذه القضية ، وهذا الموقف متناقض فى جوهره مع موقـف حدتـو الـذى

شرحنا بعض تفاصيله ، ولكن هناك أيضاً إختلاف فى المواقف من ناحية الشكل.. كيف هذا ؟

الراية أراحت نفسها تماماً من عملية النضال المضنى وقررت أن السليم والمطلوب من وجهة نظرها هو بناء (اللجان النقابية السرية)

و(الإتحاد العام السرى للعمال) ونظراً لأن هذا الموقف خاطئ وإنتهازى وغير نضالى من أساسه فلم يحقق ذرة من النجاح .

وكان هذا الموقف تطوراً منطقياً لفكرة (لجان السلام السرية) أى كانت هناك عبادة للسرية فى العمل الجماهيرى ، العبادة التى تفرض الإنعزال والسلبية على معتنقها ، وكان هذا الموقف الإنعزالى للراية ناتجاً عن عزلتها عن الحركة الجماهيرية العمالية ، ومعروف أنه لم تكن هناك للراية عناصر عمالية تلعب دوراً صغيراً أو كبيراً فى الحركة النقابية المصرية .

أما د. ش فاتخذت معارضتها لموقف (حدتو) الشكل التالى : لم تطالب باللجان النقابية السرية (كما فعلت الراية) انما ابتدعت نظرية المراحل فى عملية النضال لتوحيد الحركة النقابية المصرية ، طالبت بأن تكون المرحلة الأولى تطهير النقابات من العناصر النقابية الصفراء ، تعقبها المرحلة الثانية ، مرحلة تشكيل اتحادات مهنية عمالية مثل (اتحاد مهنى لعمال النسيج اتحاد مهنى لعمال النقل) وتأتى فى النهاية المرحلة الثالثة مرحلة تشكيل (الإتحاد العام للنقابات) .

هذا التفكير المرحلى والميكانيكى فى نفس الوقت لم يكن مقدراً له أن ينجح، كما لم تنجح اللجان السرية التى طالبت بها الراية ، الدليل على ذلك أن العناصر الصفراء ظلت مسيطرة على الحركة النقابية قبل ١٩٥٠ وبعدها وحتى بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وفكرة النقابات العامة المهنية (التى توازى الإتحادات العامة المهنية) لم تجد لها مجالاً فى التطبيق الا بعد قيام ثورة يوليو بسنوات وضمن خطة واطار (الإتحاد العام للنقابات) .

هذا التفكير المرحلى الميكانيكى وهو خاطئ كما قلنا كان نابعاً من السياسة الانعزالية عن الحركة الجماهيرية التى كانت سمة أساسية وتاريخية

من سمات التيار الإنتهازى ، ويعنى فى التطبيق العملى عدم التعاون العملى بين عناصر الشيوعيين فى المجال النقابى وغيرهم من العناصر الصفــراء وغــير الصفراء فى نفس المجال أى أنه معاد لفكرة (الوحدة النقابية الواســعة) ويحلــم بفكرة مثالية هى أن تسيطر العناصر الحمراء على الحركة النقابيـــة المصريـــة دون مجهود يذكر فى النضال العملى ضد العناصر الصفراء وغيرهم من زاوية النضال للوحدة النقابية .

ويمكن أن يقال بمنتهى الصدق والواقعية أن العلاقات التى خلقت وتطورت بين النقابيين الشيوعيين من أبناء حدتو وبين غيرهم من النقابيين (كفتحى كــامل والعقيلى وعبد العزيز مصطفى وغيرهم) وضعت لبناتها الأولــى مــن خــلال التعاون الذى نشأ فى اللجنة التحضيرية لإتحاد النقابات أى فى سنة ١٩٥٠ بينما لم تنجح العناصر النقابية الشيوعية المنتمية إلى د. ش فى خلــق مثــل هــذه الصلات .

ومن خلال اللجنة التحضيرية لإتحاد النقابـــات تمكنــت الطبقــة العاملــة المصرية أن تبرئ ساحتها من جريمة حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ وذلك من خلال البيان الذى أصدرته اللجنة التحضيرية كإدانة لحريق القــاهرة وهــو البيان الذى وزع فى نفس اليوم الذى اشتعلت فيه الحرائق .

إلغاء معاهدة ٣٦ وبدء الكفاح المسلح فى القنال :

كان شعار إلغاء معاهدة ٣٦ واتفاقيتى السودان ١٨٩٨ ، ١٨٩٩ من أهــم وأبرز الشعارات التى رفعتها حدتو (بعد فبراير ١٩٥٠) وقد كان الشعار الــذى يجمع القوى الوطنية ويوحدها فعلاً .

وقد نجحت الحركة الجماهيرية العامة فى إجبار حكومة الوفد على قطـــع المفاوضات وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، واتفاقيتى السودان ٩٨ ، ١٨٩٩ وذلك فــى أكتوبر ١٩٥١ .

وكانت التطورات الهامة التى طرأت بعد هذا النجاح والموقف منها من أهم الميادين التى أظهرت فيها الخلافات بين التيارين الثورى والإنتهازى فى الحركة الشيوعية المصرية ، وكان هذا أمراً طبيعياً .

ويهمنا أن نستعرض موقف (حدتو) المعبر عن التيار الثـــورى ، وكذلــك موقف الراية ود. ش بإعتبارهما أهم التنظيمات الممثلة للتيار الإنتهازى فى تلـك الفترة ، وعقد المقارنة الضرورية بين الموقفين فى عدد من المسائل .

١) الموقف من حكومة الوفد:

بعد اقدام حكومة الوفد على الغاء المعاهدة ، كـــانت المؤامـرات تحـاك ضدهـا من جانب الإستعمار والسراى وأحزاب الأقليـــات بـــهدف اقالتـــها أو اجبارها على الإستقالة تمهيداً لإيقاف التطورات التى حدثت بعد الغاء المعاهدة .

كانت (حدتو) تحس بأبعاد هذه المؤامرات وتـــدرك مخاطرهـــا علـــى الوطـــن والحركة الشعبية المصرية (المسلحة منها وغير المسلحة) .

ومن هنا اتخذت الموقف الأساسى وهو مساندة حكومـــة الوفـــد (برلمـــان ووزارة) وتأييدها فى الخطوات الوطنية الجريئة التى اتخذتها والحيلولة ــ بتعبئة الحركة الجماهيرية دون إستقالتها أو اقالتها مدركة أن الإجراءات السلبية التى تتخذها الحكومة ككل أو وزير من وزرائها يمكن أن يعالج من خلال الضغـــط والتطور النامى للحركة الجماهيرية .

كان هذا موقف حدتو وعلى العكس من ذلك كان موقـــف الرايـــة ود. ش الذى كان يتفق فى جوهره خلافاً لذلك كما هو الشأن دائماً من ناحية الشكل.

كانت د. ش تبالغ فى سلبيات حكومة الوفد ، دون أن تعطى مســـألة المســـاندة الجماهيرية لحكومة الوفد شأناً يذكر .

أما الراية فكانت مواقفها السيئة واضحة ، ففى هذه الفترة بـــالذات كـــانت تتعاون تعاوناً مطلقاً مع الحزب الإشتراكى (مصر الفتاة) دون أن توجه كلمة نقد الى هذا الحزب الذى كان يشن حملة ضارية على حكومة الوفد مطالباً بإستقالتها أو اقالتها سيراً على نفس مخطط الإستعمار والقـــوى الرجعيـــة مـــن الســـراى وأحزاب الأقليات مما يوحى أن هناك اتفاقاً فى هذا الموقف السياسى بين الرايـــة والحزب الإشتراكى آنذاك .

وقد أثبتت التجربة التاريخية أن الإدراك السليم كان من جانب حدتو فحريق القاهرة (الذى أشعل فى ٢٦ يناير كان من ضمن أهدافـــه الرئيســـية التطويـــح

بحكومة الوفد ، وهو ما حدث بعد ذلك بعد أن تورطت هذه الحكومة وأعلنت الأحكام العرفية فى مساء ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

٢) الموقف من الكفاح المسلح فى منطقة القنال :

بالغاء معاهدة ٣٦ فتح الطريق أمام عمليات الكفاح المسلح فى القنال ، وبدأ هذا الكفاح فعلاً ، وكانت القيمة الحقيقية لإلغاء المعاهدة هو بدأ الكفاح المسلح ولولا ذلك لأصبحت قرارات الغاء المعاهدة قليلة الفائدة .

كانت الأفكار الجوهرية التى ترشد مواقف حدتو هى ، أن توسيع الكفاح المسلح فى القنال هو أحد الوسائل الرئيسية لإقامة جبهة وطنية ديمقراطية راسخة فى أرض مصر ، ولحماية حكومة الوفد واستمرارها فى الحكم أطول مدة ممكنة ضد مؤامرات السراى والإستعمار وأحزاب الأقليات ، ولتوسيع نطاق الجبهات الديمقراطية فى البلاد ، اذ ليس هناك مستوى أرفع من مستويات الممارسة الديمقراطية عن حمل الشعب للسلاح دفاعاً عن أرض وطنه فى ظل حماية مشروعة ــ مهما كانت قدرها من حكومة ذلك البلد ــ .

من هذه المنطلقات الفكرية آزرت حدتو معركة الكفاح وساهمت فيها بأبنائها ، كما سيتضح فيما بعد .

واتخذت مشاركة حدتو فى الكفاح المسلح الصور التالية :

١) تكليف الرفاق الأعضاء فى مناطق بحرى ، وبالذات منطقة الشرقية فى الإنخراط فى معسكرات الفدائيين التى كانت قائمة فى محافظة الشرقية ومحافظات القنال مع العمل على الاحتفاظ بمعسكر خاص بهم أو تحت اشرافهم، وهذا ما تم تنفيذه فعلاً ، وأذكر من ضمن الرفاق الذين ساهموا فى عمليات الفدائيين وأشرفوا عليها آنذاك (ضياء الدين بدر ــ فوزى فام ــ سيف الدين محمد صادق ــ زميل اسمه محسن)

٢) حشد قسم الجيش في حدتو الذي كان مكوناً من بعض الضباط أمثال (أحمد حمروش) وكذلك الضباط الأحرار في عمليات نقل الأسلحة من مخازن الجيش المصرى الى معسكرات الفدائيين فى القنال.

٣) القيام بعمليات التدريب من خلال هؤلاء الضباط للفدائيين بما يرتبط بذلك من المشاركة العملية فى التدريب وبالمساهمة مع الفدائيين فى عمليات الإقتحام الفدائية ، وأذكر أننى ذهبت مع أحمد حمروش إلى منطقة الشرقية للإلتقاء بالرفاق هناك وقابلنا ضياء بدر وفوزى فام وآخرين ، وذهب (حمروش) مع ضابط شيوعى فى الجيش آنذاك كان اسمه الحركى (صقر) مرة ثانية لنفس المحافظة لتنظيم عمليات نقل الأسلحة والتدريب النظرى والعملى .

ورغم سلامة الفكرة التى آمنت بها فى قضية الكفاح المسلح ، والمشاركة فيه بالصور والأشكال التى سردناها فى السطور السابقة ، فإن الأمانة التاريخية تقتضى الإعتراف بأن حجم المساهمة المركزية ومن خلال عناصر اللجنة المركزية فى الإدارة اليومية للعمليات الفدائية والمساهمة فيها ، وكذلك المعايشة مع الفدائيين فى منطقة القنال لم تكن كافية ، كان المفروض أن تنتدب اللجنة المركزية عدداً من عناصرها للحياة الدائمة مع المقاتلين فى منطقة القنال وهذا ما لم يحدث ، وقد يكون السبب فى ذلك هو قصر المدة التى تمت فيها عمليات الكفاح المسلح (حوالى ٣ شهور ونصف) . وقد يكون الإدراك الفطرى لهذا النقص آنذاك هو السبب فى مساهمة الحزب الشيوعى المصرى الموحد بعدد كبير من رفاقه المركزيين فى عمليات الكفاح المسلح ببور سعيد والقنال أثناء عدوان سنة ١٩٥٦ .

ولكن ماذا كان موقف الراية ود. ش من الكفاح المسلح فى القنال ؟

من الناحية العملية لم تشترك (الراية) ولا (د. ش) فى الكفاح المسلح بالقنال بأى عنصر من عناصرها ، هذا الموقف السلبى والخاطئ لم يكن ناتجاً فقط عن عدم تواجدهما عفوياً فى محافظة الشرقية أو منطقة القنال ، انما كان ناتجاً فى الأساس عن موقف وفهم خاطئين لعمليات الكفاح المسلح ضد الإنجليز فى تلك الفترة .

وكانت الحجة التى تتردد من جانب هذين التنظيمين وخاصة د. ش تتلخص فى:

أن الكفاح الأساسى للشيوعيين يجب أن يتركز فى المدن وبشكل خاص فى العاصمة (القاهرة) ، وبالتالى ليس دور الشيوعيين الحياة وسط الفدائيين. وذلك بهدف توسيع الديمقراطية والحريات السياسية بإعتبار أن المسألة التى يمكن

ويجب التركيز عليها. هو الكفاح من أجل الديمقراطية والحريات وليس الكفاح المسلح، ناسين أو متجاهلين أن الكفاح المسلح ــ فى حد ذاته ــ مظهر من مظاهر الديمقراطية إلى جانب أنه طريق لتوسيع الديمقراطية أيضاً .

ويقال أن أحد العناصر البارزة جماهيرياً من د. ش فى الجامعة صرح فى خطاب جماهيرى قائلاً أنه لا يصح أن نساق معصوبى العينين إلى القنال ، وكان هذا التصريح تجسيداً عملياً لفكرة الإدانة النظرية والعملية للكفاح المسلح والتركيز على أن الجانب الأساسى ، هو الكفاح من أجل الديمقراطية .

وبهذا الموقف العملى للراية ود. ش انعزل هذان التنظيمان عن الموقف العام الذى كان يهتم به الشعب المصرى وهو الكفاح المسلح ، واتخذ الموقف العملى لحزبى السعديين والدستوريين آنذاك .

ومما يجسد عظمة الكفاح المسلح وخطورته هو أن (حريق القاهرة) كان من أسبابه ودوافعه وقف الكفاح المسلح فى منطقة الشرقية يؤكد ذلك أن القبض على الفدائيين تم يوم حريق القاهرة وخلال عمليات الحرق وقبل إعلان الأحكام العرفية فى مساء ذلك اليوم . وبعد أن مضى أزيد من ربع قرن على اشتعال الكفاح المسلح فى القنال لا يمكن أن يقر أحد موقف الراية ود. ش من ذلك الكفاح أو يدين موقف حدتو منه ، فقد أثبت التاريخ أن موقف حدتو كان هو الأسلم بينما موقف الراية ود. ش قد أدانه التاريخ ، كما أدان مواقف كثيرة لهم مما تعرضنا لها سابقاً .

٣) بناء الجبهة الوطنية الديمقراطية:

كانت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى مهتمة ببناء الجبهة الوطنية الديمقراطية منذ أن تمت الإفراجات فى فبراير ١٩٥٠ ، وكانت دعوتنا للجبهة موجهة للقوى السياسية المتواجدة فى الساحة المصرية آنذاك من (الوفديين ــ الإخوان ــ الإشتراكيين ــ الحزب الوطنى) وكانت القوتان السياسيتان المبعدتان عن دعوة الجبهة هما (السعديون ــ الدستوريون) .

وقد تحققت ممارسات عديدة فى هذا الإتجاه يمكن سؤال القائمين عنها آنذاك (زكى مراد ــ أحمد الرفاعى ــ عبد المنعم الغزالى ٠٠ألخ) .

ولكن ما يهمنا فى هذا الصدد ، هو تبيان جهود حدتو فى مجال بناء الجبهة الوطنية الديمقراطية بعد إلغاء المعاهدة وإستئناف الكفاح المسلح ضد القوات الإنجليزية .

أولاً : اهتمت حدتو من خلال أجهزتها الإعلامية وخاصة مجلة (الملايين) بالدعوة الى بناء الجبهة الوطنية الديمقراطية التى تضم مختلف القوى السياسية التى أشرنا اليها فى السطور السابقة .

ثانياً : رغم اصرار حدتو على دعوة الجبهة فأنها لم تتشكل طبقاً للتصور المطروح آنذاك ، اذ كانت (مصر الفتاة ــ الحزب الوطنى ــ وجماعة الإخوان) كقوى سياسية منشغلة بالكفاح ضد الوفد وليس بالتعاون معه ، وبالتالى كانت مخالب قطط لقوى الإستعمار والرجعية وأحزاب الأقليات الخائنة من (سعديين ودستوريين) .

كما أن قيادة الوفد ، لم تكن مهتمة ببناء هذه الجهة رغم أن المخاطرة كانت شديدة على الوضع العام كله وعلى حزب الوفد نفسه .

ثالثاً : الرفض لفكرة الجبهة الوطنية الديمقراطية من جانب كل القوى السياسية التى أشرنا اليها سابقاً ، دفع قيادة حدتو الى الإهتمام ببناء نوايات الجبهة الوطنية فى الأحياء والمدارس والمصالح والمصانع أى وسط جماهير الشعب ، وليس من خلال مندوبى الأحزاب السياسية ، وفعلاً تشكلت تحت قيادة حدتو (اللجان الوطنية المصرية) فى عدد كبير من المجالات ، وكانت هذه اللجان تصدر بيانات سياسية باسمها فى حدود البرنامج الوطنى والديمقراطى العام المقر لتلك الفترة ..... وقد طرح تشكيل اللجان الوطنية المصرية آنذاك تساؤل محدد يحسن تقديم اجابة مختصرة عنه وهو هل هناك شكل محدد لإقامة (الجبهة الوطنية الديمقراطية) كانت الإجابة فى تصور حدتو أنه ليس هناك شكل محدد ، فليس شرطاً أن تكون الجبهة الوطنية الديمقراطية (مشكلة من مندوبى الأحزاب ، بمعنى أن يستنتج البعض أنه لو لم توجد أحزاب معينة أو رفضت ــ فى حالة وجودها ــ الإنتظام فى شكل الجبهة الوطنية الديمقراطية لا توجد جبهة ولا تحالف حتى ولو كان هناك شكل سياسى كاللجنة

شهادتي للتاريخ

الالتحاق بالأزهر

التحقت بالتعليم الابتدائي الأزهري في القاهرة عام ١٩٤٢ وكان عمري آنذاك حوالي خمسة عشر سنة، فقد ولدت في ١٩٢٧ وكان إلتحاقي بالأزهر بعد أن حفظت القرآن كاملا بين سنة ١٩٤٠/١٩٤٢ على يد شيخ نوبي من أبناء قريتي كان يدعى (الشيخ حسن قاسم) ..

وقد بدأت في حفظ القرآن والاستعداد للالتحاق بالأزهر بعد ان غادرت قريتي النوبية " أرمنا " ووصلت القاهرة عام ١٩٣٩ وكانت نية والدي ورغبتي الشخصية في الالتحاق بالتعليم الإبتدائي المدني في بداية الأمر، لكن رسوبي في الكشف الطبي بمدرسة عنيبة الابتدائية في بلاد النوبة حيث كنت أعاني من ضعف الابصار حال دون تحقيق نية والدي ورغبتي الشخصية، ومن ثم اتجهت نية والدي بحكم الظروف الاضطرارية إلى إلحاقي بالأزهر في القاهرة، ويعود إليه الفضل الأكبر في ذلك، لماذا أقول هذا ؟

.. لقد قاومت لعدة سنوات فكرة الالتحاق بالأزهر، وكان السبب في ذلك يكمن في أمرين: أولهما: انني كشاب نوبي نزح من القرية إلى القاهرة، وينتمي لأسرة فقيرة مطحونة كنت أميل إلى أن أكون خادما في بيوت الأسر المصرية أو الأجنبية الغنية شأن كل الشبان النوبيين الذين ارغموا على الخدمة بالمنازل للمساعدة في إعالة أسرهم، ولتحقيق الأمنية في الزواج.

وثانيهما: انني كنت أتصور أن من يلتحق بالأزهر، لن يزيد وضعه عن وضع " المقرئين " الذين يكتسبون قوتهم من قراءة القرآن في " المآتم والقبور" ولذا أذكر انني قاومت ارتداء الزي الأزهري (العمة والكاكولة) لأكثر من سنة بعد إلتحاقي بالأزهر، كنت احملهما ملفوفتين في يدي من الحي الذي كنت أسكن

الوطنية المصرية) فهذا الشكل فى نظر حدتو يعتبر شكلاً من أشكال الجبهة الوطنية المفروض تطويرها وتدعيمها من خلال الممارسة .

وكانت حدتو تستخلص موقفها من تجارب التاريخ المصرى ، فمنذ وجود الشيوعيين المصريين فى المرحلة الوسطى منذ الحرب العالمية الثانية كانت الجبهات أو التحالفات الوطنية التى إتخذت شكل تحالف الأحزاب منحصرة فى فترات قصيرة من تاريخ مصر ، بينما التحالفات السياسية التى إتخذت شكل تجمعات غير حزبية ويقودها الشيوعيين إستغرقت فترات أطول ، وكانت أكثر نجاحاً فى أداء المهمة الموكولة إليها وأبرز مثل على ذلك (اللجنة الوطنية للطلبة والعمال).

وظلت اللجان الوطنية المصرية التى تشكلت بعد الغاء المعاهدة تمارس دورها علناً وتتنامى وتتطور الى أن اشتعلت القاهرة بالحريق فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، وقد تعرضت لأزمة الضمور بعد الحريق قبل أن تنجح حدتو فى عمل تشكيل قيادى علنى لهذه اللجان فى حدود القطر ، وبشكل خاص فى القاهرة ، ونظراً لإفتقاد هذا الجهاز القيادى العلنى الشامل ، كانت كل لجنة وطنية تمارس دورها تحت اشراف الخلية أو الهيئة الحزبية التى تمتد اختصاصاتها الى المساحة الجغرافية التى تشغلها اللجنة الوطنية (مثلاً اللجنة الوطنية المصرية بحى بولاق كانت تحت إشراف الجهاز الحزبى الموجود ببولاق).

بناء منظمات جماهيرية علنية للفئات الشعبية:

لم تكن حدتو مهتمة ببناء اللجنة التحضيرية لإتحاد النقابات فى مصر فحسب ، ولم يقتصر دورها على بناء المنظمات السياسية العلنية (كحركة السلام-واللجان الوطنية المصرية) ، بل كانت مهتمة أيضاً فى حدود فهمها الإستراتيجى لقضية بناء (الجبهة الوطنية الديمقراطية) التى تضم ضمن ما تضم ممثلى الطبقات الشعبية أيضاً ، كانت مهتمة فى حدود هذا الفهم ببناء منظمات جماهيرية مستقلة للطلبة والشباب والنساء أيضاً .

وأذكر من الرفاق الذين كانوا بيساهمون فى هذا المجال (عبد المنعم الغزالى ــ حكمت الغزالى) .

تنظيم الضباط الأحرار:

ومن خلال (قسم الجيش) فى حدتو ، الذى كان مشكلاً فى الأساس من ضباط ، كانت حدتو تتعاون مع الضباط الأحرار ، وتعتبره تنظيماً جبهوياً فى الجيش ، وقد كان هذا التنظيم كما أثبتت الأحداث التاريخية مشكلاً من ضباط ينتمون الى أفكار وأيديولوجيات بل وتنظيمات سياسية مختلفة ، وقد اتخذ هذا التعاون شكلاً متطوراً بعد أحداث حريق القاهرة ، فقد كانت منشورات وبيانات الضباط الأحرار تطبع فى الجهاز الفنى الخاص لحدتو ، وقد كان أحمد فؤاد عضو ل. م حدتو ومسئول قسم الجيش آنذاك (رئيس مجلس ادارة بنك مصر فيما بعد) أحد الصلات الهامة بتنظيم الضباط الأحرار وبجمال عبد الناصر شخصياً.

وتطور هذا التعاون الى هذا المستوى الذى أشرنا اليه كان ارتقاء بمستوى التعاون الذى تم بين (حدتو) والضباط الأحرار أثناء معركة الكفاح المسلح فى القنال ، هذه الصلات هى التى ساعدت على مناقشة موضوع قيام الضباط الأحرار بإنقلاب فى فبراير أو مارس ١٩٥٢ فحسبما سمعت من أكثر من شخص آنذاك ، أن تنظيم الضباط الأحرار كان يفكر فى القيام بإنقلاب عسكرى فى هذا التاريخ ، ولكن قيادة حدتو ناقشت الموضوع من جميع جوانبه وأوصت بعدم القيام بهذا الإنقلاب واقتنع الضباط الأحرار بوجهة نظر حدتو .

ومن المفهوم أن هذه الصلات القوية بالضباط الأحرار وخاصة فى الفترة التى ضربت فيها القوى الوطنية السياسية ضربة قاصمة بعد حريق القاهرة ، ساعدت على أن تتخذ حدتو الموقف الثورى السليم أثناء قيام ثورة ٢٣ يوليو ، فقد أصدرت حدتو بياناً بتأييد الثورة وطالبت الشعب بمساندتها .

موقف الراية و د. ش من العمل فى الجيش:

الراية ود. ش كانتا تفكران بشكل عام بطريقة انعزالية وغير جماهيرية ، وبالتالى لم تكونا مهتمتين باتخاذ خط سياسى سليم نابع من الإحساس بنبض الحركة الجماهيرية وخادم لها فى نفس الوقت ، وهذا هو السر فى أنهما كانتا عازفتين أو متقاعستين فى بناء منظمات جماهيرية مستقلة .

وفى حدود هذا الفهم والسلوك الخاطئين لهذا التيار الإنتهازى لم يكن غريباً ألا تهتم د. ش والراية بالعمل فى الجيش فى الفترة التى نعالجها ٥٠ ـ ١٩٥٢ أو فى الفترات السابقة بالنسبة لـ د. ش .

وترتب على هذا الإنعزال عن قوة هامة هى الجيش أن انعزلت الراية ود.ش عن تجربة بناء تنظيم الضباط الأحرار مما أدى الى تبنيها للخط السياسى الإنتهازى أثناء قيام الثورة ، فمن المعروف أن المنظمتين هاجمتا وأدانتا ثورة ٢٣ يوليو ، أدانت الراية الثورة بإعتبارها انقلاباً فاشياً أمريكياً ، بينما د. ش إعتبرتها ديكتاتورية عسكرية أمريكية ، كل الفرق أنها لم تصمها بالفاشية كما فعلت الراية .

وليست هذه السطور تحليلاً تفصيلياً لموقف التيارات والمنظمات الشيوعية من ثورة ٢٣ يوليو ، فلهذا الموضوع مكان آخر ، انما مجرد ربط منطقى بين العمل فى الجيش بشكل تنظيمى أو جبهوى وعلاقة ذلك بتأييد الحدث الهام الذى تم فى ٢٣ يوليو ، وكذلك هو ربط منطقى بين عدم العمل فى الجيش طوال الفترة السابقة والهجوم على ثورة ٢٣ يوليو أثناء قيامها من جانب الراية ود. ش

الإرتباط بالأممية :

استعرضنا فيما سبق كفاح وتاريخ حدتو فى المجال السياسى والجماهيرى ، الإهتمام بالصحافة العلنية وإقامة منظمة جماهيرية للسلام ، النضال لتوحيد الحركة النقابية ، المساندة الجماهيرية لحكومة الوفد بعد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، المشاركة فى الكفاح المسلح ضد القوات الإنجليزية فى ١٩٥١ ، ثم بناء نوايات للجبهة الوطنية الديمقراطية (اللجان الوطنية المصرية) ، التحضير لبناء منظمات جماهيرية مستقلة لفئات الشعب من الطلبة والشباب والنساء ..الخ.

رغم هذا الإهتمام المتعدد النواحى والمجالات فى المجال الداخلى ، كانت حدتو مهتمة الى حد ما بتقوية صلات الحركة الجماهيرية المصرية بالنضال الأممى ، وبالمنظمات العالمية .

عندما قامت حركة السلام المصرية توثقت صلاتها بمجلس السلام العالمى التى كانت تواظب من خلال مندوبيها على حضور إجتماعات مجلس السلام

العالمى ومؤتمراته العالمية ، بل وكان هناك أكثر من عضو مصرى وبعضهم أعضاء حدتو كانوا أعضاء فى مجلس السلام العالمى أذكر منهم (يوسف حلمى ــ محمد على عامر) وكانت حركة السلام المصرية توثق صلاتها بحركات السلام فى المنطقة العربية والشرق الأوسط .

وكانت التحضيرات تسير لعقد مؤتمر شعوب الشرق الأوسط بالقاهرة فى فبراير ١٩٥٢-كما كانت حركة السلام المصرية تتولى الدفاع عن شقيقاتها فى المنطقة العربية ممن يتعرضون للإضطهاد أذكر فى هذا المجال الوفد المصرى من المحامين المصريين الذى تشكل للدفاع عن حركة السلام السودانية .

وفى مجال الحركة النقابية ، حرصت اللجنة التحضيرية لإتحاد النقابات المصرية بتوجيه من تنظيم حدتو على تنظيم صلاتها بالإتحاد العالمى للنقابات ، وأذكر فى هذا المجال أن أحمد طه حضر أكثر من اجتماع ومؤتمر نظمه الإتحاد العالمى للنقابات .

وفى مجال الشباب والطلبة ، أذكر أن عبد المنعم الغزالى حضر أكثر من اجتماع دولى نظمه اتحاد الطلبة العالمى ، كما ساهم وفد مصرى فى حضور مؤتمر الشباب العالمى فى برلين سنة ١٩٥١ أذكر منهم (ابراهيم عبد الحليم ــ حسن عبد الرحمن) وكان من المفروض أن أساهم فى هذا المؤتمر وبعد أن اتخذت كافة الإجراءات لم أسافر فقد كان من المطلوب دفع خمسون جنيهاً لإستخراج جواز السفر ولم يكن هذا هو العائق الحقيقى بل كان العائق الحقيقى فعلاً هو عدم اقتناع قيادة حدتو آنذاك بضرورة الإهتمام بشكل كاف ومكثف بمجالات العمل الخارجية ، فعند تشكيل الوفود المصرية للسفر للخارج لم تكن تهتم بإرسال عناصر قوية بحجة أنها مطلوبة للعمل فى الداخل ، بل كنا نرسل عناصر متوسطة أو ضعيفة ، الى جانب هذا أيضاً لم نهتم بتعيين مندوبين مصريين ثابتين فى المنظمات الدولية الديمقراطية مع أن هذا كان ممكناً .

كان الإهتمام بالعمل داخل مصر ، يشغل كل تفكير حدتو وأعتقد أننا أدركنا هذا الخطأ ولكن فى وقت متأخر كان يصعب معه إصلاح الخطأ وفى هذا المجال لم تحقق التيارات الإنتهازية أى نجاح .

حريق القاهرة:

حرقت القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، وكان هنـــاك ادراك لـــدى حدتـــو بـــأن مؤامـــرة ما تدبر فى الخفاء ضد الحركة الوطنية والجماهيرية التى اســتعرضنا فى الصفحات السابقة تفاصيلها ، مؤامرة تستهدف وقف الكفاح المسلح والإطاحة بحكومة الوفد .

كان هناك هذا الإدراك ولم نكن نتصور أن هذه المؤامرة ستتخذ شكل الحريـــق الواسع لمدينة القاهرة ، المؤامرة التى اشتركت فيها قوى الإستعمار والســـراى بالتعاون مع أجهزة الأمن المصرية والإنجليزية .

ومن الغريب أن مدبرى المؤامرة حاولوا إلصاقها بالقوى الوطنية الأخـــرى من شيوعيين وغيرهم . وليس الغرض استعراض تفاصيل هذا اليوم ، ففى هـــذا الجانب هناك مؤلفات ودراسات ، لكن الغرض هو تسجيل بعض الخواطر .

- الفدائيون من المواطنين العاديين وأعضاء حدتو أعتقلوا فى نفس يـــوم ٢٦ يناير قبل إعلان الأحكام العرفية وقبل وخلال إشتعال الحريق فى القـــاهرة ، مع أن هذا الإعتقال فى محافظات بعيدة عن القاهرة وهذا يؤكد أن العملية كلـــها كانت مدبرة لوقف حركة الكفاح المسلح ضد الإنجليز .

- حاول رفاقنا خلال المظاهرات الحيلولة دون الحرق نجحوا فى بعضها وفشلوا فى أغلبها لأن نطاق المؤامرة كان واسعاً جداً بالمقارنـــة بالإمكانيـــات الذاتية لحدتو .

- لم تنجح حدتو كتنظيم فى إصدار بيان ضد الحريق فى نفـــس اليـــوم واللحظة ، لبطء وتعقيد الإجراءات الخاصة بالعمل السرى ، لكن الرفـــاق مـــن الأعضاء وخاصة فى الجهاز النقـــابى العلنـــى (اللجنـــة التحضيريـــة لإتحـــاد النقابـــات) أصدروا فى نفس اليوم وفى نفس لحظة الحريق بياناً ضده ، وهـــذا يبين أن الأجهزة العلنية قد تكون أسرع فى تسجيل المواقف السياسية بالمقارنـــة بالتنظيمات السرية ، لكن هذا التسجيل يتخذ دوره الإيجابى ، اذا كان بالأجـــهزة العلنية عناصر شيوعية ملتزمة وهذا ما حدث فأحمد طه ومحمد علـــى عـــامر

وسيد ترك هم الذين لعبوا الدور الرئيسى فى إصدار بيان اللجنة التحضيرية ضد حريق القاهرة .

- حينما أعلنت الأحكام العرفية مساء يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ إمتدت حملة الإعتقالات لتشمل الشيوعيين من حدتو ، والراية ود. ش ، وكانت نسبة حدتو فى المعتقلين أكبر ولكن إلى جانب الشيوعيين كان هناك عناصر من الحزب الوطنى والوفديين والحزب الإشتراكى وأنصار السلام والفدائيين ، وتمت حوارات ومناقشات عديدة بين هذه القوى فى معتقل الهايكستب .

- بعد إعلان الأحكام العرفية ، إلتقى الرفاق الطلقاء من حدتو ، وحددوا الموقف السياسى الواجب إتخاذه بعد الحريق ، وكان كاتب هذه السطور – هو المكلف بصياغة هذا التقرير وفعلاً بعد صياغته ضبط معه فى مساء يوم من أيام فبراير ١٩٥٢ فى الشارع صدفة ، وأحيل للنيابة العسكرية .

كان جوهر هذا التقرير هو أن الإستعمار والملك فاروق والبوليس السياسى هم الذين يتحملون المسئولية الأساسية فى حرق القاهرة ، وأن الهدف من وراء الحرق هو وقف الكفاح المسلح ، والتطويح بحكومة الوفد ، وإعتقال العناصر التقدمية والوطنية .

وأن الواجب الأساسى هو إعادة البرلمان الوفدى والحكومة الوفدية للحكم وكذلك إستئناف الكفاح المسلح مرة أخرى .

- كان التحليل الشيوعى العالمى يتمشى مع هذا ، ففى مقال نشر فى إحدى الصحف الإنجليزية الشيوعية للرفيق بالم دات حدد بدقة الأغراض الكامنة وراء حرق القاهرة بأنها وقف كل الإنجازات والنجاحات الجماهيرية والسياسية التى تحققت خلال الفترة من فبراير ١٩٥١ إلى ٢٥ يناير ١٩٥٢ ، فى إلغاء المعاهدة وبدء الكفاح المسلح ، وتنظيم وبناء لحركة السلام المصرية وجهود فى توحيد الحركة النقابية والفئات الأخرى ألخ .

لكن ماذا كان موقف الراية و د. ش من مسألة حرق القاهرة ؟

طبعاً كان متوقعاً، إدانة التنظيمات المشار إليهما حريق القاهرة بإعتبارها مؤامرة.

ولم تكن إدانة الحريق كعمل إجرامى محل خلاف بين (حدتو) من ناحية ، والراية ود. ش من ناحية أخرى ، بل كان الخلاف منحصراً فى تحديد الفاعلين والمسئولين الرئيسيين عن حريق القاهرة ، أى جانب تحديد الواجبات المطلوبة فى المرحلة القادمة .

كانت حدتو تعتبر ـ كما قلنا ـ الإستعمار والملك والبوليس السياسى هم المسئولين والأدوات الرئيسية فى حرق القاهرة ، وهم أصحاب المصلحة الحقيقية فى ذلك .

بينما كانت د. ش تحمل المسئولية الرئيسية للحزب الإشتراكى وأحمد حسين بإعتباره الفاعل الأصلى فى الحريق ، وهى مع الراية كانتا تحملان المسئولية لحزب الوفد وفؤاد سراج الدين على وجه الخصوص.

ومن هذا المنطلق لم تكن الراية أو د. ش توافق على إعادة البرلمان الوفدي ولا الحكومة الوفدية لممارسة سلطاتها التنفيذية والتشريعية، بل وأذكر ان ممثلي د. ش والراية وقفوا في مناظرة عامة بين هذين التنظيمين وحدتو في المعتقل وقالوا انه في حالة اجراء انتخابات عامة سيؤيدون من يقف مع برنامجه حتى ولو لم يكن وفديا ـ وليس بالضرورة تأييد مرشح الوفد ـ بينما كانت حدتو تنادي بأن المطلوب هو تأييد مرشح الوفد في الانتخابات.

كان موقف حدتو منطقيا ومتمشيا مع موقفها من حزب الوفد قبل الحريق كما كان موقف الراية و د. ش منطقيا أيضا مع موقفيهما من الوفد قبل الحريق أيضا.

ماذا كان في الهايكستب سنة ١٩٥٢

كانت هذه السطور لم يمكث المدة كلها (ستة أشهر تقريبا) في الهايكستب. بل قضى جزء من هذه الفترة في سجن مصر، مع المحكوم عليهم في قضايا الشيوعية.

لكن يمكن أن اسجل هنا ما عايشته في معتقل الهايكستب سند ١٩٥٢.

القوى السياسية التي كانت متواجدة في معتقل الهايكستب سنة ١٩٥١ كانت:

* الشسيوعيين من حدتو وغيرهم (كانت لحدتو الغالبية)

* الحزب الاشتراكي (كان من ضمنهم حلمي الغندور وعادل حسين وآخرين)

* الحزب الوطني (فتحي رضوان)

* أنصار السلام (يوسف حلمي وسعد كامل)

* الوفديون (بعض العناصر المرتبطة بفؤاد سراج الدين)

* الفدائيون.

وكان هناك جزء كبير من قادة حدتو في المعتقل اذكر منهم (زكي مراد ــ فؤاد حبشي ــ محمد شطا ــ يوسف مصطفى ــ الجنيد على عمر ــ كمال شعبان.

وكانت الجهود العامة لتنظيم حدتو داخل المعتقل مركزة في:

١) اجراء حوار وتدعيم العلاقات السياسية مع ممثلي المجموعات السياسية الأخرى (وفديين واشتراكيين وحزب وطني) واذكر في هذه المناسبة ان حدتو اقترحت الامتناع عن استلام وجبات الطعام يوما واحدا تضامنا مع أحمد حسين الذي كان يحقق معه لتقديمه للمحاكمة آنذاك.

٢) القيام بعمليات تثقيف لأعضاء حدتو من المعتقلين.

٣) مد الرفاق خارج المعتقل بكافة المساعدات المادية وغير المادية.

الجانب الأعلامي في نشاط حدتو:

كان لحدتو مجلات علنية، ومجلات سرية في نفس الوقت، وذلك في الفترة من ١٩٥٠ ــ ١٩٥٢ كما كان الشأن بالنسبة لها في الفترات السابقة عن هذه الفترة.

فيما يتعلق بالمجلات العلنية:

في بداية خروج الرفاق من المعتقل سنة ٥٠ أصدرت حدتو مجلة البشير "بالتعاون مع فتحي الرملي" وأذكر أنها توقفت، وصدرت بعدها مجلة أخرى

تحمل اسم "المستقبل"، وصدر منها عددان أو ثلاثة تقريباً. ثم أشرفت بعد ذلك حدتو سياسياً ومالياً وتحريرياً علي إصدار مجلة "الملايين".

وقصة "الملايين" قبل الاشراف الشامل لحدتو عليها كانت تتلخص في:

أن الأستاذ أحمد صادق عزام المحامي كان صاحبها والمشرف عليها سياسياً بحكم قدرته المالية على متابعة إصدارها، ولكن هذه القدرة توقفت في لحظة معينة إذ كان التمويل المالي لمجلة تقدمية فوق قدرة أي شخص مهما كان، وإذا نهضت هذه القدرة فلابد أن تتوقف في الطريق، وتوقفت فعلاً.

وهنا ظهر ممولون جدد، يستهدفون من خلال قدرتهم المالية شيئين الأولي: الاعلان عن أسمائهم ككتاب الثانية: التحكم السياسي فيما يكتب في مثل هذه المجلة، كان هذا الممول هو الأستاذ أحمد شوقي الخطيب المحامي، وكان عضواً بحدتو قبل الانقسام في ١٩٤٨، ثم أصبح عضواً بالعمالية الثورية بعد الانقسام وترك الكفاح الشيوعي المنظم بعد غلق المعتقلات في سنة ١٩٥٠ وكانت لقدرة أحمد شوقي الخطيب المالية حدود، وبالتالي كان لامكانية الاشراف السياسي حدود أيضاً.

ومما أذكره أن المجلة تحت اشراف أحمد شوقي الخطيب المالي والسياسي كانت مفتوحة لإتجاهات متضاربة.

حينما واجهت مجلة "الملايين" محنة الغلق والاحتجاب تقدمت حدتو إلى أحمد صادق عزام بعرض مؤداه، أن تتكفل حدتو بالتمويل المالي للمجلة، والاشراف السياسي، وكذلك مسئولية توزيعهما.

من الناحية المالية كان العدد الواحد يكلف حدتو ما يقرب من ١٠٠ مائة جنيه اسبوعيا، أي ٤٠٠ جنيه (اربعمائة جنيه شهريا)، ومن ناحية التوزيع كانت حدتو تتولى توزيعها من خلال الرفاق والأجهزة الحزبية ولم تكن تتعامل مع شركات توزيع الصحف، ولم يكن أمر التوزيع عسيرا إذ كان مجمل ما يطبع منها اسبوعيا حوالي ٥٠٠٠ خمسة آلاف نسخة كانت المشكلة في التوزيع مشكلة مالية بالدرجة الأولى، فالرفاق وكذلك الأجهزة الحزبية لم تكن توافي إدارة المجلة بقيمة النسخ المباعة، بل كانت تطلب المزيد منها دائما، ليس هذا فحسب

في مصر، بل وفي السودان للتوزيع بمعرفة (الحركة السودانية للتحرر الوطني حستو) كانت لا ترد قيمتها، ومن هنا كانت المجلة تحمل عبأً ماليا لميزانية حدتو شهريا حوالي ٤٠٠ (اربعمائة جنيه).

ورغم كل الأعباء المالية والتحرير الملقاة على حدتو حاولت بعض العناصر الماركسية ومنها عناصر ذات نزعة تروتسكية آنذاك (كامل زهيري ـ عادل أمين) أن تتسلل بمقالات إلى المجلة، منتهزة النوايا الطيبة لأحمد صادق عزام، محاولة خلق تناقض بينه وبين عناصر حدتو، لكن حدتو وقفت بحزم ضد اتجاهات التسلل هذه.

كان القائم برئاسة تحرير المجلة هو (إبراهيم عبد الحليم) كان يتصرف في كل مواد المجلة ما عدا المقالة الرئيسية التي تعبر عن وجهة نظر (المكتب السياسي أو السكرتارية المركزية).

أقول ذلك لأنني كنت المكلف بصياغة هذه الكلمة لمدة شهرين تقريبا في سنة ١٩٥١ وخاصة بعد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، كانت المقالات التي اكتبها تعبر فعلا عن وجهة نظر الأجهزة المركزية وخاصة السكرتارية المركزية لأن خطوطها العامة كانت توضع بمعرفتها، ومع هذا فان هذه المقالات تتميز بعيبين رئيسيين:

أولهما: الحدة الشديدة في تناول الموضوع.

ثانيهما: افتقاد الأسلوب الصحفي في صياغة المقال.

ونتيجة ذلك أذكر أن مجلة "الملايين " صودرت أكثر من مرة، مما دفع الزملاء في قيادة حدتو أن يقرروا بأن تبلغ نقاط المقالة الرئيسية التي تعد بواسطة السكرتارية المركزية إلى (إبراهيم عبد الحليم) ليعيد صياغتها في اسلوب صحفي يبعد " المجلة " عن مخاطر المصادرة.

وكانت حدتو تتعامل في موضوع توزيع " المجلة " بأسلوب ثوري، جانبه الأول ــ كما قلنا ــ التوزيع عن طريق الرفاق والأجهزة الحزبية ــ أما جانبه الثاني، فكان وضع اليد على " المجلة " قبل البوليس، بحيث يترك له عدد محدود يتم مصادرته أما الجزء الأكبر من العدد المصادر فكان يوزع من خلال الزملاء

فيه (السبتية) بالقاهرة وحتى بوابة المعهد الديني بحي الدراسة وفي العودة من الدراسة إلى السبتية كنت أفعل نفس الشيء.

أعود أقول أن الفضل في إلتحاقي بالأزهر يعود إلى والدي، فقد كان يشجعني طوال فترة حفظي للقرآن، ويقول لي يا بني ان لم تتعلم فسوف تعمل خادما مثلي في المنازل وستجد الاهانة تلو الاهانة من السادة الأغنياء من الأجانب والمصريين، ولم أعرف صدق هذه النصيحة وعمقها إلا بعد سنوات من إلتحاقي بالأزهر، ومعرفتي التفصيلية بحياة أولئك النوبيين من أقاربي وأبناء قريتي.

كانت حياتي في السنوات الثلاثة الأولى بالأزهر شديدة البؤس، فمرتب والدي من عمله الحكومي لم يكن يتجاوز أربعة جنيهات في الشهر، وكانت الأسرة كلها خمسة أفراد تعيش في غرفة واحدة، وكان مصروفي الشخصي خمسة مليمات، ولذا كنت مضطرا أن أسير على قدمي من حي السبتية إلى حي الدراسة يوميا ذهابا وإيابا، والمليمات الخمسة كانت تكفيني لتناول سندوتش مكرونة بين راحات الحصص في المعهد الديني.

وظلت هذه الحياة الشديدة القسوة تلازمني وتلازم اسرتي حتى وصلت إلى السنة الثالثة الابتدائية في الأزهر. ففي عام ١٩٤٥ قررت إدارة الأزهر معونة مادية للطلبة الغرباء في الأزهر ومن الغريب أن أبناء (النوبة المصرية) في محافظة أسوان كانوا في نظر الأزهر غرباء ويجمعهم مع الطلبة النوبيين في السودان رواق يُسمى "رواق شمال السودان".

كانت المعونة ثلاثة جنيهات شهريا، علاوة على جنيه واحد كان يصرف لي كمعونة من مجلس الوزراء، وبذا كنت أمتلك قدرة مادية تساوي قدرة أبي المادية شهريا.

.. وبعيدا عن التفاصيل الصغيرة في التعامل مع أسرتي بعد أن أصبح دخلي الشهري أربعة جنيهات فان تعامل والدي معي قد تغير تماما، تخلى عن ضربي لسبب وبدون سبب، وتخلى كذلك عن إهانتي وتقريعي، وأصبح يتشاور معي في شئون إدارة مصروفات المنزل، وكان هذا وضعا طبيعيا إذ كنت احتفظ

كان العدد يستولى عليه قبل تمكن البوليس من مصادرته .. وكان العمل بهذا الأسلوب الثوري يوسع من ناحية نطاق نفوذنا السياسي، ومن ناحية كان يقلل من الخسائر المالية الناجمة عن المصادرة الكاملة للعدد.

وظلت مجلة " الملايين " تواصل الصدور تحت الاشراف السياسي والتحريري والمالي لحدتو حتى حريق القاهرة.

بالنسبة للصحافة السرية:

لم تكتف حدتو باصدار مجلاتها العلنية في تلك الفترة، بل كانت تصدر مجلات سرية، كانت مجلة " الكفاح " هي مجلة حدتو السرية الموجهة للجماهير، أما مجلة " الكادر " فكانت مجلة موجهة للأعضاء فقط .. ومن الملاحظ ان مجلة " الكفاح " لم تكن منتظمة في الصدور بسبب الانتظام في صدور الصحافة العلنية (البشير ــ المستقبل ــ الملايين) التي كانت تغطي جزءا كبيرا مما يمكن نشره في الصحافة السرية.

وكان الرفاق في قواعد حدتو يطالبون بالانتظام في صدور الصحافة السرية مع الاستفادة بامكانيات الصحافة العلنية، وكان هذا الأمر محل انتقاد من المنظمات الأخرى.

وفي تقديري ان انتظام صدور الصحافة السرية لم يكن أمرا صعبا، إذا توافر التنسيق بين الهيئة المشرفة على تحرير الصحافة العلنية وتلك المشرفة على اصدار الصحافة السرية، ففي كل مرحلة توجد المواد والاخبار التي لا يمكن نشرها في الصحافة العلنية بحكم خضوعها لقوانين الرقابة الصحفية.

حدتو وجهود الدعاية والتثقيف الحزبي:

حسبما أذكر فالمجهودات الدعائية والتثقيفية لم تكن كبيرة.

ففي جانت المحاضرات، أذكر ان حدتو ترجمت تقريرا مطولا عن التيتوية تهاجمها وتكشف الجوانب التحريفية فيها، وكان هذا متمشيا مع الخط العام للحركة الشيوعية الدولية آنذاك.

كما أعدت "حدتو" مجموعة من المحاضرات الدعائية الصغيرة، كان قد لعب دوراً في اعدادها المرحوم أحمد أبو العلا زوج السيدة أنجي أفلاطون، وكان عضوا بمكتب الدعاية آنذاك.

كما طبعت حدتو بعض كتيبات " ماوتسي تونج" و"ليو شاوشي" أذكر منها "الديمقراطية الجديدة " و"كيف تكون شيوعيا جيداً " وفي هذه الفترة بالذات وبحكم الانشغال بقضايا مراحل الثورة منذ معتقلات ١٩٤٨ كانت الأدبيات الصينية السياسية تجد رواجا بين الشيوعيين المصريين وخاصة في صفوف حدتو.

وفي الغالب لم تعقد مدارس كادر في تلك الفترة، باستثناء بعض المدارس التي عقدت في معتقل الهايكستب يناير ــ يوليو ١٩٥٢ .

وعموما كان الاهتمام بالعمل التثقيفي والدعائي ضعيفا وهذا أمر كان يستوجب النقد والتصحيح وان كان وراء هذا الضعف أسباب عديدة أهمها:

١) انشغال قيادة حدتو بالنشاط السياسي والجماهيري اليومي إلى جانب النشاط التنظيمي الداخلي.

٢) عدم وجود جهاز كفء للدعاية والتثقيف، فلم يكن هناك مكتب مكتمل للدعاية يعاون مسئول الدعاية المركزية طوال تلك الفترة من ١٩٥٠ ــ ١٩٥٢ وكان هذا المسئول هو السوداني (الجنيد علي عمر) الذي كان العمل الدعائي يمثل عبئا غير محتمل بالنسبة له، وكان (الجنيد) يكره العمل الدعائي وكان يكرر دائما أمامي القول بأن كتابة أو ترجمة عمل دعائي يمثل بالنسبة له "حالة ولادة ".

٣) احتقار ــ العمل الفكري من جانب قيادة وكوادر حدتو وهو احتقار عززه الدور التخريبي الانقسامي الذي قام به جزء كبير من مثقفي حدتو، هذا الدور التخريبي لم يكن من المفروض ان يؤدي إلى احتقار العمل الفكري، وان ادى إلى احتقار دور هؤلاء المثقفين في العمليات التخريبية والانقسامية.

الراية و د. ش في ميدان الثقافة والدعاية:

كانت جهود " حدتو" في مجال الدعاية والتثقيف قليلة بالمقارنة بدور وحجم حدتو السياسي والجماهيري، وهي جهود لا يمكن ان يرتفع إليها مجهود الراية و

د. ش، فجهود هذين التنظيمين في هذا المجال كانت في مستوى العدم تقريبا إذا قارناها بجهود حدتو القليلة والضعيفة.

لم نسمع ان الراية و د. ش ترجمتا أو طبعتا كتبا نظرية أو محاضرات كبيرة كمحاضرة " التيتوية " التي ترجمتها وطبعتها حدتو، إذ كان المرتكز الدعائي والتثقيفي للراية لا يتعدى دراسة بعض مقالات وتقارير الرفيق (خالد – فؤاد مرسي).

***

حدتو في معركة الكفاح
ضد الانقسام ومن أجل الوحدة
في الفترة من ١٩٥٠ ــ ١٩٥٢

في فترة الأزمة السياسية والجماهيرية التي امتدت بدورها إلى أزمة في صفوف التنظيم الشيوعي في ١٩٤٨، انتشرت الاتجاهات الانقسامية وتكونت عدة تنظيمات انقسامية رفعت أكثر الشعارات تطرفا ويسارية في السياسة والتنظيم.

في بدايات سنة ١٩٥٠ كانت هناك عدة تنظيمات شيوعية موجودة في الساحة السياسية أشرنا إليها فيما سبق ونستعرضها في إيجاز شديد.

ما هي التنظيمات التي اندمجت في حدتو وما هي التي ظلت خارجها في نطاق الفترة التي ندرسها ٥٠ ــ ١٩٥٢.

أسماء التنظيمات الشيوعية:

١) الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) التي واصلت العمل مباشرة بعد غلق المعتقلات بعدد قليل من قادتها وعدد قليل من أعضائها بعد ان أنهكتها العمليات الانقسامية طوال الفترة ٤٨ ــ ١٩٤٩.

٢) نحو حزب شيوعي مصري (نحشم) وهو عبارة عن تنظيم تشكل من اندماج (العمالية الثورية) و(نحش) وبعض عناصر حدتو في تنظيم واحد، وكل عناصرها الانقسامية كانت منقسمة من حدتو أثناء الأزمة.

٣) منظمة (النجم الأحمر) وهي انقسام من (نحش) تشكل على أساس أن (نحشم) ليست منظمة كفاحية وأنها تعادي العمال، وطوال الفترة التي ندرسها كانت هذه المنظمة تدور في فلك د. ش سياسيا وكل عناصرها كانت منقسمة عن حدتو أثناء الأزمة.

٤) الحزب الشيوعي المصري (الراية) وقد سبق التعرض لطريقة تشكيلها وروافد هذا التشكيل، ويمكن ان يقال ان بعض عناصرها قد انقسم عن حدتو.

٥) الفجر الجديد أو د. ش، وهو تنظيم نما مستقلا عن ح. م وحدتو منذ نشأة الحركة الشيوعية الوسطى قبيل وخلال الحرب العالمية الثانية.

٦) منظمة (جات) التي كان يتزعمها الدكتور عصام جلال وكان من أبرز عناصرها أحمد طه.

٧) أما منظمة (م. ش. م) فرغم انها كانت أكبر تجمع انقسامي من حدتو في ١٩٤٨، فقد أحبطت تماما وابتعدت عن الساحة السياسية في الجزء الأكبر من الفترة التي ندرسها ٥٠ ـ ١٩٥٢، أحبطت بفعل التطرف اليساري في الميدانين السياسي والتنظيمي بعد ان هاجر أهم قادتها للخارج، وطوال الفترة التي ندرسها كانت لها بعض العناصر المسجونة في قضايا شيوعية لكن لم يكن لها وجود حقيقي في الساحة السياسية ؟

التقارب والتباعد بين حدتو وهذه التنظيمات :

من خلال الممارسات السياسية والجماهيرية التي تعرضنا لها بالتفصيل في الصفحات السابقة حدث تباعد سياسي وتنظيمي وجماهيري بين حدتو وبعض المنظمات التي شكلت عمليا التيار الانتهازي، كانت الراية و د. ش وكذلك النجم الأحمر بعيدة تماما عن حدتو، وكانت تتخذ مواقف سياسية وجماهيرية متناقضة في الجوهر مع موقف حدتو في كافة القضايا التي تعرضنا لها.

وبالتالي لم تكن قضية الوحدة بين هذه التنظيمات الثلاثة وحدتو أمرا ممكنا أو سهلا لسببين:

أولهما: الفروق الشاسعة في الميادين السياسية والجماهيرية كما سبق أن شرحنا بالتفصيل.

ثانيهما: أن هذه التنظيمات الثلاثة كانت تعادي قضية الوحدة بشكل جذري، كانت د. ش أقدم وأرسخ قدما في معاداة الوحدة تاريخيا بحكم انها نشأت خلال الحرب العالمية الثانية، وعادت وحدة حدتو في سنة ١٩٤٧. أما الراية فرغم انها حديثة النشأة بالمقارنة بـ د. ش فكانت ترفع شعار انها فقط (الحزب)

وكل من خارجها ليسوا شيوعيين، واستمرت في هذا المنهج حسبما سنرى فيما بعد حتى سنة ١٩٥٧، أما منظمة النجم الأحمر فلم تكن ذات تأثير يذكر في هذا الميدان ولا غيره سلبا أو إيجابا.

والنتيجة المستخلصة من هذا العرض السريع ان هذه التنظيمات الثلاثة كانت تشكل التيار الانتهازي في الفترة التي ندرسها، وانتهازيتها لا تجسدها فقط مواقفها السياسية والجماهيرية بل تجسدها وهذا أمر منطقي تماما موقفها العدائي من قضية توحيد الشيوعيين في مصر.

والغريب في الأمر انه رغم الاتفاقات السياسية والتنظيمية بين د. ش والنجم الأحمر لم تحدث وحدة بينهما أو اندماج من النجم الأحمر في د. ش رغم ما يشاع من انه كانت هناك محاولات بينهما لاتمام عملية وحدة أو اندماج، وعلى العكس من ذلك تحققت عمليات وحدة واندماج بين حدتو وبعض المنظمات الأخرى التي تقاربت معها سياسيا وجماهيريا وبالتالي تقاربت معها تنظيميا، سواء اتخذ هذا التقارب شكل وحدة أو اندماج.

وهذا أمر سنتعرض له تفصيلا في الصفحات القادمة.

التقارب بين حدتو وبعض المنظمات الماركسية:

في السطور السابقة أشرنا إلى التباعد السياسي والجماهيري بين حدتو من ناحية ومنظمات (الراية و د. ش والنجم الأحمر) من ناحية أخرى. وإلى جانب التباعد كانت تلك المنظمات ترفض مبدأ الوحدة مع حدتو بل وكانت تتهمها بأبشع الاتهامات.

وعلى العكس من ذلك حدث تقارب سياسي وجماهيري مع منظمات (نحشم وجات) وانعكس هذا التقارب في قبول هاتين المنظمتين الاندماج في حدتو، وقد تواكب مع هذا الاندماج أن مجموعة من (م. ش. م) انضمت إلى حدتو (محمد عباس فهمي واخوته) وكذلك انضمت إلى حدتو مجموعة كانت منسلخة من (نحش) اذكر منهم (ابراهيم المناسترلي ــ أحمد فؤاد الذي كان رئيس بنك مصر بعد ثورة ٢٣ يوليو ــ أحمد أبو العلا وزوجته الفنانة انجي أفلاطون) كما انضم إليها (عبد المنعم الغزالي) مع النجم الأحمر.

وهنا يثار تساؤل هام هو لماذا اتحدت أو اندمجت تلك التنظيمات والمجموعات والعناصر في حدتو في تلك الفترة ؟ لماذا حدث هذا بينما كانت غالبية هؤلاء معاول هدم لحدتو في الفترة من ٤٨ إلى نهايات ٤٩ وبدايات سنة ١٩٥٠ باعتبارها تنظيمات ومجموعات وعناصر ساهمت بشكل أو بآخر في عمليات الانقسام عن حدتو ؟ .

تتلخص العوامل التي ساعدت على الوحدة والاندماج في: المناخ الديمقراطي والجماهيري العام والقوة السياسية والتنظيمية التي اكتسبتها حدتو والخبرة المكتسبة من مرارة وخسائر الوضع الانقسامي.

ولا شك ان هذه العوامل الثلاثة التي اشرنا إليها كانت مفتقدة في سنوات ٤٨ ــ ٤٩، وافتقادها كان من العوامل التي سببت وسهلت عمليات الانقسام.

واستخلاصا للدروس سوف نستعرض بشيء من التفصيل وجود أو افتقاد تلك العوامل الثلاثة، مقارنة بين الوضع في ٤٨ ــ ٤٩ حيث ازدهرت الانقسامية وبين الوضع في ٥٠ ــ ١٩٥١ حيث ازدهرت نسبيا الرغبة التوحيدية.

هذا الاستعراض والمقارنة هامة، فبدونهما، تصبح الرؤية لقضية الانقسام والوحدة رؤية عاطفية وغير علمية، وقد تفسر احيانا بانها نتاج مؤامرات أو عوامل شخصية أو نفسية.

كثيرا ما نسمع عن ان هناك عوامل معينة وراء المحاولات الانقسامية كالتآمر، ومحاولات أجهزة الأمن، أو اضطهاد القيادة المركزية لكوادر المنظمة.. الخ. من العوامل الثانوية التي قد تكون صحيحة بدرجة أو أخرى إذا لم نغفل العوامل الأساسية وراء الوضع الانقسامي سواء في نشأته واستمراره.

وكثيرا ما نسمع ــ وخاصة في فترة الأزمات السياسية والتنظيمية ان تلك الأزمات والأخطار تستوجب الوحدة بين الشيوعيين، وهذا القول يعكس بحق الطموح العاطفي المشروع من أجل الوحدة ولكنه طموح لا علاقة له بالعلم الثوري ولا بالتجربة الثورية.

نستخلص من هذا ان للانقسام والوحدة قوانين موضوعية لابد من الاسترشاد بها في دراسة هذه القضية.

وعلينا – الآن – ان نستعرض بشيء من التفصيل الظروف التي ساعدت على إتمام عمليات الوحدة والاندماج في الفترة من ٥٠ – ١٩٥٢.

أولا: المناخ الجماهيري والديمقراطي الملائم للوحدة:

في ظل هذا المناخ الجماهيري والديمقراطي العام في فترة حكم الوفد من ٥٠ – ١٩٥٢ انتعشت الحركة الجماهيرية والسياسية للطبقة العاملة وفئات الشعب الكادحة في الوطن كله، وبالتالي انتعشت حركة الطلائع السياسية وبشكل خاص (حدتو).

وتبلور هذا الانتعاش في الصحافة التقدمية العلنية التي تعددت اسماءها (البشير – الملايين – الميدان .. الخ)، كما تبلور في البناء الشامخ لحركة السلام المصرية، وفي اللجنة التحضيرية لاتحاد نقابات عمال مصر، وفي إلغاء معاهدة ١٩٣٦ واشتعال الكفاح المسلح في القنال.

في ظل هذا الجو الديمقراطي والانتعاش الجماهيري حدثت لقاءات نضالية بين عناصر حدتو وعناصر بعض التنظيمات الاخرى وبالذات (نحشم) وتواكب مع هذه اللقاءات انتعاش الأمل في تحقيق وحدة أو اندماج بين التيار الثوري (حدتو) وبين الفصائل والمجموعات والعناصر التي ابتعدت عنها في فترة سابقة، ووجد هذا الأمل طريقة للتحقيق.

ما حدث في الفترة من ٥٠ – ١٩٥٢ في انتعاش لقضية الوحدة نتيجة انتعاش الحركة الجماهيرية والسياسية وتحقيقها هو ما حدث بالضبط في سنوات ٤٦ – ١٩٤٧، ففي تلك الفترة أيضا، انتعشت الحركة الجماهيرية والسياسية، بالرغم من ان البلاد كانت تحكم في تلك الفترة بحكومات الأقليات الحزبية.

وأدى ذلك الانتعاش الجماهيري والسياسي إلى تحقيق الوحدة بين منظمتي (ح. م واسكرا) في يونيو ١٩٤٧ في منظمة واحدة هي (حدتو).

نستخلص من هذا الاستخلاص قانونا هاما نابعا من تجربة الحركة الثورية المصرية هو ان توفر المناخ الجماهيري والديمقراطي العام يحقق الامكانية الفعلية لوحدة الشيوعيين المصريين.

وعلى العكس من ذلك فان سيادة الارهاب من قبل السلطة الحاكمة وانكماش الحركة الجماهيرية، وعزلة الشيوعيين عنها، يخلق المناخ الملائم للانقسام في الحركة الشيوعية المصرية، وشيوع التشرذم فيها.

وفي ظل هذا الانقسام قد توجد الرغبة العاطفية للوحدة، ولكنها لا تتحقق في الغالب الأعم، أكبر دليل على ذلك في الفترة من ٤٨ ــ ١٩٥٠ هو ان سيادة مناخ الارهاب في ظل حكومات الأقلية وانكماش الحركة الجماهيرية مع التحضير المحموم لحرب فلسطين (١٥ مايو ١٩٤٨) أدى إلى انتعاش الاتجاهات الانقسامية في تلك الفترة، فتعددت التنظيمات والمجموعات الانقسامية (صوت المعارضة ــ نحو منظمة بلشفية ــ العمالية الثورية ــ نحش وقد انتعشت تلك الاتجاهات الانقسامية تحت مختلف الحجج والدعاوى السياسية والنظرية والتنظيمية).

نستخلص من هذا القانون النقيض لقانون الوحدة وهو ان سيادة الارهاب وانكماش الحركة الجماهيرية والسياسية يشجع اتجاهات الانقسام والتشرذم في الحركة الشيوعية المصرية.

فقد تتولد رغبة عاطفية هنا أو هناك لتحقيق الوحدة في ظل هذا المناخ، ولكن هذه الرغبة لن تجد طريقها للتحقيق إلا إذا تغير هذا المناخ المعاكس، وأصبح مناخا ديمقراطيا وجماهيريا ملائما للوحدة.

ان استعراض قانون الوحدة، وقانون الانقسام في الحركة الشيوعية المصرية، ليس الهدف منه الاستسلام لأي من القانونين استسلاما قدريا، بل الهدف منه هو فهمه والتعامل معه. والتأثير فيه لزيادة فاعليته الايجابية أو الحد من أثاره السلبية.

فإذا كان الارهاب الشامل مع ما صاحبه من انكماش في الحركة الشيوعية المصرية، ليس الهدف منه الاستسلام لأي من القانونين استسلاما قدريا، بل

الهدف منه هو فهمه والتعامل معه، والتأثير فيه لزيادة فاعليته الايجابية أو الحد من أثاره السلبية.

فإذا كان الارهاب الشامل مع ما صاحبه من انكماش في الحركة الجماهيرية والسياسية شجع كقانون عام حركة الانقسام والتشرذم، فان التيار الثوري (حدتو) استخلص من هذا القانون للكفاح ضد أثاره السلبية ونتائجه السلبية (الانقسامية) والتوعية باثارها الضارة، والحيلولة دون انتشار الخطر الانقسامي أو على الأقل الحد منه.

وفي الجانب المقابل إذا كان توفر المناخ الديمقراطي وانتعاش الحركة الجماهيرية والسياسية يشجع ــ كقانون عام ــ حركة السعي من أجل الوحدة، فان التيار الثوري استخلص هذا القانون لاستخدامه بشكل ثوري يؤتي ثماره في أقرب وقت وبأقل التضحيات الممكنة.

وهناك فرق شاسع بين انتظار "الإنتصار" وبين الكفاح من أجله.

ثانيا: القوة السياسية والتنظيمية التي اكتسبتها حدتو وساعدت على الوحدة:

"حدتو" التي تشكلت في يونيو ٤٧، اكتسبت سمعة سياسية وجماهيرية واسعة خلال فترة ستة أشهر (يونيو ــ نوفمبر ١٩٤٧) وازدادت قوتها التنظيمية خلال تلك الفترة، وتجسدت في ارتفاع اعداد عضويتها من ١٦٠٠ إلى ٤,٠٠٠ آلاف عضو، كما ازداد توزيع مجلتها العلنية (الجماهير إلى ١٥,٠٠٠ ألف نسخة).

ومن المعروف ان العمليات الانقسامية خلال ١٩٤٧ و١٩٤٨، والضربات البوليسية بعد حرب فلسطين قد أنهكت حدتو.

ورغم هذا كله فقد استعادت حدتو جزءا هاما من قوتها السياسية والتنظيمية والجماهيرية خلال عامي ٥٠ ــ ١٩٥١.

كل الأعمال الجماهيرية التي سردناها تفصيلا في الصفحات السابقة كانت بقيادة حدتو، وبالتالي، كانت قوة حدتو سياسية وجماهيرية نقطة جذب للمنظمات والمجموعات والعناصر التي اندمجت في حدتو وخاصة أنها كانت في الأصل

من هذا المبلغ بجنيه واحد وأترك الجنيهات الثلاثة الباقية لدعم ميزانيـــة هـذه الأسرة البائسة الفقيرة.

.. كنت طالبا مجدا في دراستي الأزهرية فكنت انجح دائما من الدور الأول طوال دراستي بالأزهر التي دامت أكثر من ثمانية ســنوات، وكنـت شـغوفا بقـراءة الأدب العربي، وأذكر وكنت آنذاك في السنة الثانية الإبتدائيـة انني قرأت بعضا من كتب الدكتور طه حسين وتوفيق الحكيم وعباس العقاد والمازني .. ولم يكن في إمكاني شراء الكتب الأدبية ولذا كنت أذهب يوميا إلى دار الكتب بباب الخلق، وفي مرحلة لاحقة استخرجت بطاقة إستعارة خارجية.

ومع بدايات عام ١٩٤٥، نمى شعوري الوطني بشكل تلقائي ضد الاستعمار البريطاني، وكان السبب في ذلك ـ بشكل أساسي ـ ما كنت أشاهده من عربدة الجنود الإنجليز في شوارع القاهرة ومنها شارع عماد الدين حيث كنت أعيـش مع والدي في غرفة بسطح عمارة من عمارات الخديوي حيث كان يعمل أبـي فراشا في مصلحة الضرائب التي تقع في إحدى تلك العمارات.

مع نمو شعوري الوطني، تحولت قراءاتي من الأدب العربي إلى التـاريخ وأذكر انني قرأت في تلك الفترة (١٩٤٥) كثيرا من كتب المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي، لقد طرحت على نفسي سؤالا هو هل تجـدي قـراءة الأدب العربي في إخراج الإنجليز من مصر؟ وكانت الإجابة آنذاك ـ وهي بالتـأكيد إجابة سطحية ـ لا، وكان الموقف الذي أتخذته هو ضرورة قراءة كتب التاريخ لأعرف من خلالها كيف دخل الإنجليز إلى مصر، باعتبار ان تلك الخبرة سوف تساعد في إخراجهم من مصر.

الانضمام إلى الحركة المصرية للتحرر الوطني (ح.م)

كان ذلك الإنضمام في صيف عام ١٩٤٥، خلال الاجازة الدراسية، بعد ان نجحت في إمتحان النقل من السنة الثالثة الإبتدائية إلى الرابعـة ورغـم نمـو مشاعري الوطنية، وهي المشاعر التي حولت قراءاتي مـن الأدب إلـى كتـب التاريخ، فلم تكن بوابة إنضمامي للحركة الشيوعية المصريـة، هـي المسـألة الوطنية، بل كانت وبالتحديد بوابة الإحساس بالقهر الطبقي والإحساس بمهانـة

منسلخة من حدتو، أي كانت في الأساس عناصر حدتوية"، كان الحنين يراودها للعودة إلى حدتو بعد ان ابتعدت عنها لسبب أو أخرٍ.

ثالثا: خبرة مرارة الانقسام:

وإذا كان المناخ الديمقراطي وما صاحبه من انتعاش للحركة الجماهيرية، وما ارتبط به من قوة سياسية وتنظيمية " لحدتو"، قد ساعد على تحقيق الوحدة بين (حدتو ونحشم وجات) فإن الخبرة المكتسبة من مرارة الانقسام كان عاملاً هاماً في هذا الصدد.

في فترة إنتعاش الحركة الإنقسامية في ٤٧ ــ ٤٨، كان من السهل خداع الكثيرين بدعوى الإنقسام، بحجة الخلافات السياسية التي لا يمكن التوفيق بين أصحابها وأطرافها، وبحجة خيانة قيادة حدتو التي لا يمكن التعايش معها تنظيميا.

عاشت تلك العناصر دوامة الانقسام، وكانت تتوهم ان تبني ــ من خلال انقسامها ــ منظمة شيوعية تفوق حدتو في قوتها وقد تحول هذا الوهم إلى سراب بعد معاناة الانقسام خلال سنتين.

لم تحصل تلك العناصر علي المنظمة المنشودة بل علي العكس من ذلك وصلت إلى نهاية الشوط إلى ان تكون في يدها منظمات وحلقات وشلل ضعيفة سياسيا وجماهيريا وتنظيميا.

كان هناك طريقان أمام تلك العناصر التي انقسمت علي " حدتو " في ٤٨، أما اليأس الشامل بما يصاحب ذلك من هروب لخارج البلاد، أو البحث عن الراحة الكاملة في الوطن، وهو ما حدث لمنظمة (م. ش. م) وبعض العناصر القيادية في العمالية الثورية، واما استمرار في العمل الثوري وهو الطريق الذي كان يؤدي حتما للعودة إلى "حدتو" من جديد ــ أيا كانت طريقة واسلوب تلك العودة.

عادت تلك المجموعات والعناصر إلى "حدتو" بعد ان اكتسبت خبرة ثمينة وبعد ان ذاقت مرارة الانقسام.

خطة حدتو لاتمام عمليات الوحدة والإندماج في تلك الفترة:

الظروف الموضوعية ـ التي أشرنا إليها في الصفحات السابقة ـ كعوامل مساعدة للوحدة لم تكن تؤتي ثمارها بدون خطة تنتهجها " حدتو " لاتمام عملية الوحدة، والقضاء التدريج على الوضع الانقسامي.

وفي هذا الصدد أذكر ان الرفيق (كوربيل) كان قد صاغ تقريرا برأيه في قضايا الوحدة والصراع الأيديولوجي، وأرسله لقيادة حدتو، ووصل لها في ١٩٥٣ ونشر في ذلك الحين، ويقال ان "كوربيل" صاغ هذا التقرير أثر مناقشة واسعة اختلفت فيها وجهات النظر بينه وبين (ابراهيم عبد الحليم) أثناء تواجد الآخر على المحاور التالية:

المحور الأول: ان بشاعة الوضع الانقسامي، قبل وحدة اسكرا وح. م في يونيو ١٩٤٧ أو بعدها تستوجب الكفاح العنيد والمتواصل ضد الانقسام ومن أجل الوحدة، دون يأس أو احباط.

المحور الثاني: ان تحقيق الوحدة الشاملة بين حدتو والمنظمات الماركسية الاخرى خارجها بضربة أو خطوة واحدة ليس امرا ممكنا بسبب الفروق السياسية والتنظيمية والمواقف المختلفة من قضية العمل الجماهيري إلى جانب العداء التقليدي من جانب تلك المنظمات لقضية الوحدة، وكان هذا العداء ممزوجا بالغرور من جانب (الراية) وتجلي هذا الغرور في الحديث عن (لا شيوعية خارج الحزب).

المحور الثالث: ان الوحدة بين حدتو والمنظمات الاخرى ستتحقق أساسا من خلال العمل الجماهيري في مختلف المجالات، ومن هنا كانت حدتو تركز على تشكيل لجان تنسيق كفاحية بينها وبين المنظمات الاخرى.

كانت حدتو ترى ان النضال من أجل الوحدة من خلال العمل الجماهيري سيؤدي إلى واحد من نتيجتين، اما تصفية المنظمات الاخرى وتبقى حدتو قوية، واما إلى اذابة الشكوك وعدم الثقة والوصول إلى ممارسة مشتركة بين حدتو والمنظمات الاخرى.

المحور الرابع: ان تتأكد لحدتو القيادة السياسية والتنظيمية من خلال تلك الوحدات، ولذا كانت حدتو تتحمس دائما أن يكون للمنظمات الماركسية مندوبون في اللجنة المركزية لحدتو دون ان تكون لتلك المنظمات غالبية في القيادة الجديدة.

ولم يكن هذا الأمر غريبا ولا شاذا ولا شرطا تعسفيا، فمن المعروف ان "حدتو" كانت أقوى من مجموع تلك المنظمات في المجالات السياسية والجماهيرية والتنظيمية.

هذه المحاور الأربعة لم تكن خاطئة، وان كان ينقصها محور خامس هام هو (الاهتمام بالصراع الايديولوجي)، وهذا نقد هام لتجربة حدتو في العمليات الوحدوية، إذ كان من الضروري ان تهتم حدتو بشن صراع فكري ضد الأفكار الخاطئة التي تروجها (الراية و د. ش) باعتبارهما قطبي الرحى في التيار الانتهازي.

وكان وجه الخطأ في موقف حدتو هو تجاهل أهمية الصراع الفكري والاهتمام فقط بقضايا العمل الجماهيري في اقتناع منها بأن العمل المشترك وحده هو طريق الوحدة، ونست حدتو ان الممارسات المختلفة في الميدان العملي خلفت مدارس فكرية وسياسية لا يمكن التوفيق بينها في عملية وحدوية، وان الأمر يستوجب هزيمة مدرسة فكرية هي (مدرسة التيار الانتهازي) وانتصار مدرسة فكرية اخرى هي بالضرورة (مدرسة التيار الثوري).

ولم يكن من الضروري آنذاك الاهتمام بقضية الصراع الايديولوجي من خلال " لجان وحدة " التي كانت المنظمات الاخرى ترفضها، إذ كان من الممكن إصدار (نشرة حوار) بمعرفة "حدتو" تتولى هذه المهمة الايديولوجية.

لو قدر لمثل هذه النشرة ان تصدر لكان في الامكان الحاق هزيمة فكرية بكافة أو غالبية الأفكار التي تروجها (الراية و د. ش آنذاك) عن سرية حركة السلام وطبقيتها، وعن الابتعاد عن النقابات العمالية بحجة انها صفراء، وعن اقتصار كفاح الشيوعية في المدن لتدعيم الديمقراطية الخ .. من الأفكار التي كانت تروج آنذاك.

ولو قدر لهذه النشرة الحوارية ان تصدر لما توقف دورها على هزيمة الأفكار الخاطئة للمنظمات الاخرى، بل ان هذا الدور كان يستمد بالضرورة إلى تدعيم وجهات نظر حدتو السياسية والتنظيمية وتحصين عناصرها ضد كل الأفكار الواردة إليها من خارجها.

كان افتقاد هذا الأسلوب في الصراع الفكري نقصا هاما في حدتو في تلك الفترة، وهو أمر يستوجب النقد الذاتي.

كيف تمت عمليات الوحدة بين حدتو والمنظمات الاخرى؟

أول منظمة اندمجت في حدتو، كانت (جات) والعوامل التي ساعدت على هذا الاندماج هي أن زعيمها الروحي د. عصام جلال سافر للخارج بهدف استكمال دراساته العليا في الطب، إلى جانب نمو العلاقات بين قادة حدتو وعلى الأخص (كورييل وسيد سليمان رفاعي) من ناحية وبين أحمد طه أبرز مناضل في تلك المنظمة وثاني رجل فيها بعد الدكتور عصام جلال، لقد نمت تلك العلاقات داخل معتقل الهايكستب وغذاها كون (أحمد طه) مناضل نقابي وعمالي.

لا أذكر أن هناك مناقشات سياسية وتنظيمية جرت بين (حدتو وجات) وفور الاندماج أصبح (أحمد طه) عضوا في اللجنة المركزية لحدتو، بينما نظم رفاقه في المنظمة (إسماعيل جبر ــ صلاح سلمى ــ يحيي المازني وآخرين) في الهيئات التنظيمية الأخرى لحدتو، كل حسب قدرته وكفاءته.

ثاني مجموعة اندمجت في حدتو، هي المجموعة التي انسلخت عن (نحش) قبل توحده مع العمالية الثورية وتشكيل (نحشم).

كان من ضمن هذه المجموعة (أحمد فؤاد) وكان قاضيا في ذلك الوقت وأصبح فيما بعد ثورة يوليو ٥٢ رئيسا لمجلس إدارة بنك مصر، وكان من ضمنها كذلك (إبراهيم المناسترلي ــ أحمد أبو العلا وزوجته أنجي أفلاطون وأنور أبو العلا شقيق أحمد أبو العلا).

وكان لهذه المجموعة صلات مع ضباط الجيش، وقد مثل هذه المجموعة في اللجنة المركزية الأستاذ أحمد فؤاد الذي أصبح ــ في حدتو ــ مسئولا عن

قسم الجيش الذي كان مشكلا من الضباط الشيوعيين، وبحكم هذه الصلة كانت ـ لأحمد فؤاد ـ علاقات مع الضباط الأحرار. وعمل أحمد أبو العـلا ـ داخل حدتو ـ في مكتب الدعاية المركزي، بينما كانت تعمل زوجته ضمن مجموعة العمل في حركة السلام المصرية.

وثالث مجموعة اندمجت في حدتو، كانت (نحشم) وكان ذلك في عام ١٩٥١، وهذه المنظمة تكونت نتيجة وحدة بين (نحش) وكان زعيمه (هلال شوارتز) وبين العمالية الثورية، وبعض رفاق "حدتو" الذين كانوا في سجن مصر آنذاك (زكي مراد ـ سيف الدين محمد صادق).

ويقول رفاق حدتو الذين اندمجوا في (نحشم) ان ذلك الاندماج تم بناء على قرار من قيادة حدتو في الخارج التي كانت تتفاوض مع "العمالية الثورية" وهي القيادة التي كان من أعضائها السودانيان (الجنيد علي عمر وأحمد سليمان)، وكانت هذه القيادة تتفاوض مع العمالية الثورية بعيدا عن قيادة حدتو في المعتقلات وفي ظل معارضة من (كمال عبد الحليم).

وأذكر انني كنت أقضي فترة عقوبة (ثلاثة أشهر حبس) بسجن مصر في قضية مظاهرة الأزهر التي أشرت إليها فيما سبق، وهناك تقابلت مع (زكي مراد) وتناقشت معه ـ بحكم العلاقة الحميمة التي كانت تجمعنا ـ حول سلامة هذه الوحدة من عدمها، أصر كل واحد منا على موقفه، تمسكت باستمرارية حدتو وعضويتي فيها، واختار هو الاندماج في "نحشم"، وكان كمال عبد الحليم آنذاك في السجن باعتباره أحد قادة حدتو.

استمرت "نحشم" في نضالها منذ يناير ١٩٥٠، وكان من قادتها في الخارج (زكي مراد ـ أحمد الرفاعي ـ سيف صادق ـ فكري الخولي ـ عبد المنعم إبراهيم ـ عبد الحميد السحرتي ـ جمال شلبي ـ أسما حليم).

وكان التنسيق الكفاحي الفعلي يتم بين رفاق حدتو ونحشم في أوساط الطلبة وفي إطار حركة السلام المصرية والنضال الجبهوي، وكان الرفيقان (زكي مراد ـ وأحمد الرفاعي) يمثلان "نحشم" في مجالات التنسيق مع حدتو.

خلال اللقاءات المشتركة نمت الرغبة والحاجة إلى تحقيق وحدة أو اندماج بين حدتو ونحشم، وبناء على ذلك جرت مناقشات سياسية وتنظيمية من خلال لجنة مشتركة تضم عناصر من حدتو ونحشم، كان يمثل حدتو في تلك المناقشات "سيد سليمان رفاعي وكاتب هذه السطور"، وكان يمثل نحشم فيها (زكي مراد وأحمد الرفاعي).

وتمت غالبية هذه اللقاءات في مدرسة شبرا الثانوية، وفي مكتب سكرتير المدرسة (محمود توفيق) وحضر بعض هذه اللقاءات الرفيق (عبد الخالق محجوب) أثناء تواجده بالقاهرة قادما من السودان.

شملت المناقشات اللائحة والبرنامج، ولم تكن هناك خلافات ذات شأن حولهما، وانتهت المناقشات بوحدة بين حدتو ونحشم، وأصبح (زكي مراد وأحمد الرفاعي) عضوان في ل. م حدتو.

وكانت هناك معارضة شديدة في صفوف نحشم لاتمام هذه الوحدة، وكان من المعارضين لها (جمال شلبي ــ أسما حليم وآخرين) ممن هم خارج السجن، وفي داخل السجن كان من المعارضين لها (هليل شوارتز) الذي غادر البلاد للخارج عام ١٩٥٢.

وقد انخرط المعارضون للوحدة في صفوف نحشم في عملية التوحيد وان أصبحوا أقل حماسا في العمل بالمقارنة بعناصر نحشم الاخرى.

أما في حدتو فلم تكن هناك أية معارضة للوحدة، باعتبارها تمت طبقا لمعايير "حدتو" في الوحدة.

والمجموعة الرابعة التي اندمجت في "حدتو" هي العناصر التي وفدت إلى "حدتو" من م, ش. م (سعد رحمي ومحمد عباس وأخوته مصطفى وصفوت عباس)، وقد لعبت هذه العناصر وبالذات (محمد عباس فهمي وسعد رحمي) دورا هاما في بناء حدتو في الخمسينيات، فقد كانا ثوريين محترفين، وعملا مدة كبيرة ــ بهذه الصفة ــ في الصعيد.

الأوضاع التنظيمية الداخلية في حدتو:

استعرضنا ــ فيما سبق ــ المواقف السياسية والأعمال الجماهيرية والأعلامية لحدتو، وقارنا بينها وبين مواقف وأعمال التنظيمات الماركسية

الأخرى التي كانت تشكل التيار الانتهازي، كما استعرضنا عمليات الوحدة والاندماج التي تمت بين حدتو وبعض المنظمات والمجموعات الماركسية.

وسوف نستعرض ـ فيما يلي من صفحات ـ تطورات البناء الداخلي في حدتو في الفترة من ١٩٥٠ وحتى قيام الثورة في يوليو ١٩٥٢.

الوضع القيادي لحدتو:

استأنفت حدتو عملها في فبراير ١٩٥٠ بقيادة مركزية محدودة العدد، (كورييل ـ سيد سليمان رفاعي ـ محمد شطا ـ كمال شعبان) وقد خرج الأربعة من المعتقلات في بداية عام ١٩٥٠، وانضم إليهم من الخارج (كمال عبد الحليم ـ الجنيد علي عمر).

مع نمو العمل الجماهيري، واتمام عمليات الوحدة مع (جات ونحشم) توسعت القيادة المركزية لحدتو، بضم الرفاق (زكي مراد ـ أحمد الرفاعي ـ أحمد طه) للجنة المركزية.

وفي منتصف عام ١٩٥٠ انضم كاتب هذه السطور وفؤاد حبشي ويوسف مصطفى للقيادة المركزية.

وتوزعت المسئوليات في القيادة المركزية، بالشكل التالي (سيد سليمان رفاعي ـ كمال عبد الحليم ـ كمال شعبان) للقيادة العامة للمنظمة، وخاصة بعد نفي كورييل للخارج، وفي مرحلة لاحقة تخصص (كمال عبد الحليم) للعمل العلني في حركة السلام المصرية كمسئول أساسي عنه، أما (شطا) فكان يعمل كمسئول عن منطقة الاسكندرية، (فؤاد حبشي) مسئول منطقة بحري، أما الباقون وهم (كاتب هذه السطور ـ يوسف مصطفى ـ أحمد طه) فكانوا يعملون بمنطقة القاهرة، ويعكس هذا اهتمام (حدتو) بعاصمة البلاد.

ومع بروز امكانيات العمل النقابي العلني تم تصعيد الرفاق (محمد علي عامر ـ سيد ترك ـ أنور فلتس) إلى القيادة المركزية، وشكل الرفاق الثلاث المكتب النقابي لحدتو تحت اشراف ومسئولية الرفيق "أحمد طه"، وعندما انضم "أحمد فؤاد" للجنة المركزية تولي مسئولية قسم الجيش، وتولي الرفيق "زكي

مراد" مسئولية العمل في السلام والتحالفات مع القوى السياسية الأخـــرى، أمـــا (أحمد الرفاعي) فان تخصُصه كان العمل وسط الطلبة.

وفي مرحلة لاحقة تم تصعيد (كمال الشلودي) الذي كان يعمل في البدايـــة في منطقة القاهرة، ثم تخصص فيما بعد في الجهاز الفني للطباعة، وهو الجـهاز الذي قام بطبع منشورات الضباط الأحرار في الفترة من فـــبراير ١٩٥٢ إلـــى يوليو ١٩٥٢.

يتضح من هذا العرض حقيقتان الأولى ان التوسع في القيادة المركزية كان يتم طبقا لمقتضيات العمل واحتياجاته.

الثانية ان جزءا كبيرا من قيادة حدتو كانت مخصصة للعمل الجمـــاهيري للمنظمة.

وكانت اللجنة المركزية لحدتو باتساع عددها وتمثيلها للمجالات المختلفـة لا تجتمع معا كهيئة مركزية واحدة، ولا يرجع هذا لاعتبارات الأمن، إذ كان مـــن الممكن التغلب عليها في ظروف المناخ الديمقراطي العام في البلاد.

كان السبب وراء هذا الخلل التنظيمي فقـدان الاحســاس بأهميــة القيـادة الجماعية للمنظمة، إلى جانب ان تركيز النشاط في يد الســـكرتارية المركزيـــة والمكتب السياسي حال ــ وهذا خطأ جســيم ــ دون عقــد اللجنــة المركزيـــة بانتظام.

ومع هذا فان كل مجموعة من مجموعات العمل المركزية كانت منتظمة في اجتماعاتها، وتناقش مشاكل العمل الموكول إليها علاوة على المشـــاكل العامـــة للمنظمة.

السكرتارية المركزية للمنظمة كانت مُشكلة في البداية، بعد طرد كوريـــل لخارج البلاد من الرفاق (سيد سليمان رفاعي ــ يوسف مصطفى ــ الجنيد على عمر ــ وكاتب هذه السطور)، وفـــي المرحلتيـــن ــ المشـــار إليـــهما كـــانت السكرتارية المركزية هي القيادة الفعلية الحقيقية لحدتو، وكانت تجتمع وخاصـــة في المرحلة الثانية يوميا، وكان هذا امرا سهلا بحكم أنها مُشكلة مـــن ثوريـــين محترفين.

ويلاحظ ان السكرتارية المركزية في المرحلة الثانية خلت تماما من الرفيقين (كمال عبد الحليم ــ كمال شعبان) لهذا الأمر أسباب مختلفة، (كمال عبد الحليم) طلب اعفاءه من عضوية السكرتارية المركزية لصعوبة الجمع بين نشاطه العلني في حركة السلام وعضوية السكرتارية المركزية، وكان هذا أمراً منطقيا بطبيعة الحال، أما كمال شعبان فقد تخلى عن عضويتها وعن الاحتراف الثوري بحجة واضحة وصريحة هي احتياجه للاستقرار العائلي (الزواج)، وقد اختار البحث عن عمل في الحكومة، وفعلا التحق كمهندس مباني بوزارة الاشغال، ثم تخلي عن العمل الشيوعي بشكل كامل، وأشهد انه كان أمينا وشريفا وصريحا في عرض ظروفه الشخصية ولم يلجأ إلى المراوغة وانتحال الخلاف السياسي، أو تحميل المنظمة مسئولية تخليه عن العمل الشيوعي، وكنت أقدر فيه هذه الصفات خاصة أنه علمني الكثير طوال مسئوليته عني في حدتو، وكانت (لكمال شعبان) مكانة كبيرة في نفوس الكثيرين في حدتو بما فيهم أعضاء القيادة المركزية.

الدليل على هذه المكانة، ان الرفاق المركزيين في حدتو حين كانوا في معتقل الهايكستب في يناير ٥٢ استدعوه لممارسة دوره في القيادة المركزية بل ووصل الأمر إلى اختياره كمسئول عن مجموعة "حدتو" في الهايكستب.

كنت الوحيد ــ رغم صداقتي الشديدة له واعترافي باستاذيته لي ــ المعارض لممارسة العمل المركزي في المعتقل واختياره مسئولا عن حدتو.

وكان تقديري الشخصي ــ نتيجة احتكاكي الشديد به ــ انه سيترك العمل الشيوعي تماما ــ كما كان الأمر قبل اعتقاله ــ فور الافراج عنه، وهذا ما حدث فعلا، وتباعد فعلا "كمال شعبان" عن العمل الشيوعي وعن زملائه واصدقائه في حدتو بعد ذلك، وكأن لسان حاله يقول هذا هو نهاية طاقتي وادعو لكم بالتوفيق.

وقد روج بعض الرفاق ــ بعد ذلك ــ ان السبب في ترك كمال شعبان للعمل الشيوعي نشوب بعض المشاكل بينه وبين سيد سليمان رفاعي خاصة بعد طرد (كورييل) من مصر لكنني مازلت اعتقد ان السبب وراء تركه للمنظمة

كان سببا شخصيا يتعلق برغبته في الاستقرار العائلي ومن الضروري ان ندرك ان بعض الرفاق الشيوعيين قد يفقدون طاقتهم خلال مسار الطريق.

كان "كمال شعبان" يمارس في معظم حياته في "حدتو" المسئولية التنظيمية وكان يمتلك قدرات كبيرة في هذا المجال، وبعد ان ترك العمل أصبحت المسئولية التنظيمية مشاعة وموزعة بين كاتب هذه السطور و"يوسف مصطفى" ومع ان "سيد سليمان رفاعي" كان يتولى المسئولية السياسية لحدتو، كان يضطر احيانا إلى ممارسة اجزاء من المسئولية التنظيمية.

لم تكن السكرتارية المركزية هي الوحيدة التي تمارس مهمات العمل المركزي في حدتو في ظل الغياب الكامل للجنة المركزية بل كان هناك المكتب السياسي الذي يجتمع على فترات لمناقشة القضايا ذات الصفة العامة.

ولم تكن قيادة حدتو المركزية خالية من الخلافات والمشاكل إلا انها لم تتخذ طابع الخلافات السياسية، بل انحصرت في الخلاف حول بعض الممارسات مثلا: الخلافات حول العلاقة بين العمل الجماهيري والعمل الحزبي والجهد المبذول في كل منهما.

كانت هناك مشاكل أساسا بين (سيد سليمان رفاعي وكمال عبد الحليم) حول حجم الدور الذي يمارس في العمل الجماهيري.

كان الأول يرى ان هناك تركيزا أكثر من اللازم في الدور المبذول في حركة السلام المصرية التي تستوعب جزءا هاما من رفاق حدتو المركزيين وكوادرها الوسطى، بينما كان الثاني يرى ان هذا أمر طبيعي وليس فيه مبالغة.

واعتقد ان مصدر ذلك الخلاف هو ذلك التناقض الطبيعي الذي نشأ بين من يعملون في العمل الجماهيري العلني وأولئك الذين يعملون في البناء الداخلي للتنظيم الحزبي، وككل التناقضات في أي حزب شيوعي يمكن ان يتحول هذا التناقض إلى شيء خطير إذا لم يعالج في الوقت المناسب.

وإلى جانب ذلك كان هناك نوع من التنافس على القيادة السياسية لحدتو بين (سيد سليمان رفاعي وكمال عبد الحليم) كان الأول بحكم النشاط العام والمتعدد

الفقر وآلام الفقراء .. قصة مفاتحتي للإنضمام للحركة المصرية للتحرر الوطني، تبرز هذه الحقيقية، فالطالب الأزهري النوبي الذي فاتحني في الإنضمام لتلك الحركة كان (محمد عثمان نور) وهو من أبناء قرية (أبو هور) النوبية، كان يسبقني بعامين أو ثلاثة في الدراسة، وفي صحبة مشتركة للمشاركة في لعب كرة القدم، سألني ماذا تعرف عن الشيوعية؟ قلت له لا أعلم كثيرا، إنما أعرف شيئا واحدا عنها هو انها تساوي في الحياة بين الفقراء والأغنياء، أي أن كلهم سواسية، فطرح علي سؤالا آخر وهو ان البعض ينتقد الشيوعية من هذه الزاوية أو تلك فما هو رأيك؟ قلت له على الفور كل هذا لا يهمني، إنما الذي يهمني انها تساوي بين الأغنياء والفقراء، بمعنى انه لا يوجد في روسيا غني وفقير ..

حينئذ طرح على (محمد على نور) سؤالا محددا هل تقبل الانضمام لتنظيم شيوعي سري في مصر؟ قلت له على الفور نعم.

وبمجرد قبولي الانضمام كشيوعي للحركة المصرية للتحرر الوطني، تم تزويدي بمجموعة من المحاضرات التي تقدم للمرشحين لعضوية التنظيم، وكانت حوالي تسعة محاضرات أذكر منها (أمراض المجتمع المصري ــ تطور المجتمع ــ الرأسمالية ــ الاستعمار ــ الاشتراكية ــ الحزب ــ الفاشية والحرب). وكانت محاضرات أولية مبسطة تتكون صفحات كل محاضرة من ثمانية صفحات وكانت في متناول فهم العامل، والفلاح، والطالب، والموظف، ولم يكن هناك أي مرشح يكتسب عضوية التنظيم دون ان تلقى عليه هذه المحاضرات ويستوعبها تماما.

وكما كنت شغوفا للانضمام للتنظيم الشيوعي، كنت متلهفا على الانتهاء من الاستماع إلى تلك المحاضرات. في أسرع وقت ممكن.

وقد طلبت أكثر من مرة من المحاضر الذي كان يلقي على تلك المحاضرات وكان طالبا سودانيا شيوعيا اسمه (عبد الله الأمين) أن يلقى على تلك المحاضرات في أسرع وقت ممكن، فكانت إجابته المقررة هناك نظام في إلقاء المحاضرات ولابد من الالتزام به.

النواحي الذي يبذله في المنظمة، وبحكم انه منحدر من أصل عمالي يرى انه الأجدر بالقيادة السياسية، وكان الكثيرون معه يرون فيه ذلك.

وقد كان هذا التفكير من جانب (سيد سليمان رفاعي) مع تمثل ممارسات المثقفين الاسكراويين في حدتو يثير بعض المشاكل، وكان يعتقد ان "كمال عبد الحليم" ينافسه في المسئولية السياسية أو لا يعطيه قدره من الاحترام كمسئول سياسي للمنظمة.

وكانت بعض التصرفات من جانب (كمال عبد الحليم) تزكي هذا الاتجاه العدائي للمثقفين من جانب (سيد رفاعي)، فقد طرح في اجتماع المكتب السياسي لحدتو اقتراح بتصعيد (علي الشلقاني) إلى اللجنة المركزية باعتبار انه يقوم بدور نشيط في حركة السلام بعد عودته من باريس اثر فترة غياب عن مصر.

كان وراء هذا الاقتراح (كمال عبد الحليم) وكان (سيد رفاعي) يعارضه باصرار، وكنت معه في موقف المعارضة، ورغم الحجج الكثيرة التي قدمت من المعارضين لاثبات عدم كفاحيته وعدم جدارته لعضوية اللجنة المركزية فقد صدر قرار الاغلبية بتصعيده، وقد خيب (الشلقاني) كمثقف ومن أسرة ثرية ظن الأغلبية، فقد ترك العمل الشيوعي بعد حريق القاهرة.

ومن المسائل التي أثارت خلافا حادا في قيادة حدتو، ذلك الاتهام بالبوليسية الموجه إلى (محمد سليمان رفاعي شقيق سيد سليمان رفاعي).

خلاصة هذا الأمر، ان (كمال عبد الحليم) اخطر السكرتارية المركزية بأن محمد سليمان رفاعي وكان اسمه الحركي (ممدوح) هو المسئول عن القبض على كاتب هذه السطور في قضية شيوعية، والمسئولية هنا مسئولية (ابلاغ للأمن) وليس مجرد خطأ.

وزيادة في تأكيد الاتهام، أصر (كمال عبد الحليم) على القول بأن شخصا في جهاز الأمن ابلغه بهذه الواقعة.

وبما ان الواقعة المنسوبة إلى (محمد سليمان رفاعي) كانت خاصة بي فقد أكدت ــ من جانبي ــ صحة الاتهام ــ ودللت على ذلك بأن المقابلة كانت بيني وبين (ممدوح) أمام سينما ديانا، وان الهدف من المقابلة كان استلام أوراق

١

استنسل لوثيقة حزبية منه من المفروض طباعتها، وفعلا استلمت الوثيقة وبعد دقائق من مغادرتي لمكان المقابلة تم القبض عليّ من خلال كمين ضخم كان يرأسه "عبد الرحمن عشوب" الضابط بالبوليس السياسي آنذاك.

لو كان الأمر مجرد مصادفة أو خطأ لتم القبض على (ممدوح) معي والحوار الذي أجراه معي (عشوب) كان مضمونه انه لا يهتم بمن أعطاني أوراق الاستنسل، انما ينصب اهتمامه إلى أين سأتجه بالأوراق وإلى من سنسلم؟

في بداية الأمر لم ينصرف شكي إلى (ممدوح)، ولكن بعد توارد المعلومات، واسترجاع شريط عملية القبض عليّ، تيقنت ان (ممدوح) عميل للبوليس السياسي، وأعلنت ذلك في كافة الاجتماعات الحزبية في مواجهة شقيقه (سيد سليمان) رغم الصداقة الشديدة التي كانت تربط بيني وبينه.

كان سيد رفاعي ينظر للأمر من زاوية أن الطعن في (ممدوح) طعن فيه، بينما لم يكن الأمر كذلك على الاطلاق.

ويمكن ان يقال انه رغم عدم وجود خلافات سياسية أو نظرية في حدتو، فان غياب (كورييل) عن ساحة حدتو باعتباره كان الأب الروحي والمسئول السياسي عن حدتو قد حرك بعض التناقضات بين القادة الثلاثة (سيد سليمان ــ كمال عبد الحليم ــ شطا) وخاصة بعد انسحاب (كمال شعبان) تماما من العمل، والملاحظ ان (شطا) لم يكن يقدم نفسه صراحة كمنافس لـ "سيد سليمان" ولم تكن الظروف تؤهله لذلك، فقد انقسم مع "العمالية الثورية" في حدتو، وعاد إلى حدتو في المعتقل ناقدا نفسه نقدا ذاتيا، ولكنه كان يتضامن مع "كمال عبد الحليم" في بعض المواقف مثل الموافقة على تصعيد (الشلقاني) للجنة المركزية.

ومع كل هذا فقد كان هناك اعتراف عام من كوادر "حدتو" وبالذات الكوادر الوسطى بجدارة (سيد سليمان) للقيادة السياسية للمنظمة نتيجة نشاطه العام، وامتد هذا التقدير حتى للرفاق في الحزب الشيوعي السوداني، وكنت واحدا من الذين يعترفون بدوره ويقدرونه ورغم هذا الاعتراف بدوره وتقديره، فان (سيد سليمان) كان يمارس معالجة الخلافات بطريقة سيئة وغير توحيدية مما كان يعيق حلها، فمن ناحية اطلق نظرية بين كوادر "حدتو" وبالذات في اللجنة المركزية مضمونها ان هناك تياران في حدتو أحدهما ثوري يتزعمه هو ويضم

(سيد ترك ــ وآخرين من العمال، وكذلك زملاؤه في الطيران (فـــؤاد حبشـــي ويوسف مصطفى ــ والسوداني الجنيد علي عمر) وثانيهما تيار انتهازي يتزعمه (كمال عبد الحليم) ويضم بعض المثقفين في حدتو.

لم يكتف " سيد سليمان" بهذا التنظير بل كان يقوم أحيانا بتحريض (فـــؤاد حبشي ــ ويوسف مصطفى وسيد ترك) ضد كمال عبد الحليـــم وضـــد بعـــض الرفاق الذين لعبوا دورا في العمل الجماهيري العلني لحركة السلام.

ورغم ان كاتب هذه السطور كان عضوا في السكرتارية المركزية فأنه لـــم ينخرط في هذا الصراع ذو الطابع الشخصي وكان يحاول دائما قدر اســـتطاعته التوفيق فيما بين هؤلاء الرفاق، وكان يتخذ الموقف الموضوعي فـــي المشـــاكل المثارة حسب اقتناعه.

ادلل على موقفي الموضوعي بالمثلين التاليين:

الأول: انني حاربت مع (سيد سليمان) ضد تصعيد (علي الشلقاني) للجنـــة المركزية، ليس من منطلق انه مثقف، أو لأنه متعاون مع "كمال" فـــي حركـــة السلام، بل من زاوية محددة هي انه كان هاربا من العمل النضالي في أراضـــي مصر طوال ثلاث سنوات تقريبا ٤٨ ــ ٥٠، إذ كان يعيش في هذه الفترة فـــي باريس، إلى جانب انتمائه الطبقي، وقد كان تقديري في محله فقد تـــرك العمـــل النضالي بعد حريق القاهرة، وترك حتى النضال في صفـــوف حركـــة الســـلام المصرية. وفي المقابل حاربت مع كمال عبد الحليم معركـــة اتـــهام (ممـــدوح) لقناعتي بحكم صلتي بالموضوع بصحة هذا الاتهام، رغم علاقتي القوية بشـــقيقه (سيد سليمان رفاعي).

مجالات النشاط التنظيمي لحدتو:

من الناحية الجغرافية لم يكـــن نشـــاط "حدتـــو" منحصـــرا فـــي القـــاهرة والاسكندرية، كما هو الشأن غالبا بالنسبة للمنظمات الاخرى، بـــل امتـــد هـــذا النشاط إلى بعض محافظات الوجهين البحري والقبلي وان كان نشـــاطهما فـــي القاهرة والاسكندرية يحتل الأهمية الأولى.

كان حجم العضوية في القاهرة أكبر، والكوادر القيادية المخصصـــة لـــها أكثر.

في القاهرة، كان يعمل من الكوادر المركزية (كاتب هذه السطور ـ يوسف مصطفى ـ كمال الشلودي) إلى جانب ما يفرزه نشاط الكوادر المركزية في العمل العلني (السلام ـ الحركة النقابية ـ التحالفات السياسية)، وكان ينخرط في نشاط العاصمة مجموعة كبيرة من الكوادر الوسطى التي كانت تعمل في لجان الأقسام التابعة للقاهرة.

في الاسكندرية، كان العضو المركزي المسئول عنها هو (شطا) وكان يعاونه في هذا العمل (شحاته عبد الحليم ـ سعد الساعي ـ سيد حسن عبده ـ فتحي داود ـ فؤاد منير وآخرين).

في بحري كان العضو المركزي المسئول عنه (فؤاد حبشي) وكان يعاونه (طاهر البدري ـ سيف صادق ـ عبد السلام الخشان ـ حامد الموجي ـ أحمد سليمان ـ بدير النحاس ـ رفعت السعيد وآخرين).

العمل وسط فئات الشعب المختلفة:

لم تكن حدتو تحصر نشاطها التنظيمي والسياسي والجماهيري في طبقة اجتماعية واحدة كالعمال أو فئة اجتماعية من فئات البرجوازية الصغيرة كالطلبة، بل على العكس من ذلك فان هذا النشاط يمتد لكافة الطبقات والفئات الاجتماعية التي تشكل الأساس الاجتماعي والطبقي للجبهة الوطنية الديمقراطية، كالفلاحين والحرفيين والموظفين والتجار والقوات المسلحة.

ونظرا لأن نشاط "حدتو" كان ينشأ وينمو في المدن أساسا، فان العمل بين العمال والطلبة كان يجد الاهتمام الأكبر، ولكن هذا الاهتمام لم يمنع "حدتو" من الكفاح ضد المقولة الخاطئة لـ (م. ش. م) بحصر النشاط كلية وسط العمال ١٠٠% أو مقولة "ع. ث" بالعمل ٧٥% وسط العمال، وهذه المقولات انتعشت كثيرا في ١٩٤٨ وأن كانت قد انهزمت تماما في الفترة من ٥٠ ـ ٥٢.

في القاهرة، كان العمل وسط المناطق العمالية في شبرا الخيمة والمطرية والزيتون، وخاصة بين عمال النسيج، وذلك إلى جانب العمل وسط الطلبة وفي الأحياء السكنية، وفي مدينة الاسكندرية كان نفس الشيء الذي يحدث في القاهرة.

أما في بحري فقد كان هناك نشاط في صفوف الفلاحين في القرى بمحافظات الدقهلية ودمياط والغربية، وبين أبناء البرجوازية في المدن الصغيرة بتلك المحافظات الثلاثة وغيرها.

"حدتو" والتنظيم الفئوي للنشاط:

كان شكل التنظيم الفئوي هو السائد في حدتو حتى منتصف عام ١٩٤٨، وقد كان هذا الشكل من أسباب المشاكل والخلافات داخل "حدتو"، وارتكن الانقساميون في محاولاتهم لخداع الأعضاء وجرهم للانقسامات إلى وجود هذا الشكل.

وتثبت التجربة التاريخية للحركة الشيوعية المصرية والعالمية أن أشكال التنظيم ليست مبادئ أو أطر مقدسة لا يمكن الخروج عليها، بل هي على العكس وسائل وأشكال يمكن تجربتها والحكم عليها من خلال الفوائد والأضرار التي تحققها، فإذا اعطت نتائج ايجابية في العمل الجماهيري والتنظيمي يمكن الأخذ بها، والعكس بالعكس إذا أعطت نتائج سلبية.

مثلا، ثبت من تجربة ٤٦ ــ ١٩٤٨ أن تشكيل قسم خاص "للنوبيين الشيوعيين" في ح. م ثم حدتو أعطى نتائج أفضل في العمل الجماهيري (تشكيل روابط وجمعيات نوبية في القاهرة)، كما أعطى نفس النتائج في العمل التنظيمي (زيادة العضوية النوبية في حدتو)، وفي اعتقادي ان هذه النتائج لم تكن لتحقق أو لأصبحت محدودة، ولو تم تنظيم الرفيق النوبي في مجال عمله، وكان هذا هو الوضع الملائم آنذاك لأن المواطنين النوبيين كانوا مركزين في أحياء شعبية معينة بالقاهرة، وكانت لهم أماكن خاصة تجمعهم، وكانت علاقاتهم المشتركة أقوى من علاقتهم بالمواطنين المصريين.

ويمكن الاستشهاد بأمثلة اخرى كتشكيلات الطلبة والسودانيين في ح. م وحدتو للتدليل على عدم قدسية الأشكال التنظيمية.

اذن، فان تجربة الاشكال المختلفة للتنظيم والمقارنة بين نتائجها مسألة ضرورية ومطلوبة خاصة في بدايات العمل التنظيمي في مجال معين.

"حدتو" جزئيا منذ ١٩٥٠ عن الاشـكال الفئويـة للتنظيـم
ن متعارفا عليه في حدتو آنذاك لا من باب ادانة تلك الاشـكال
انقساميون في ١٩٤٨، انما من زاوية ان الاشكال الجغرافية تعطـي
حسن في المرحلة الجديدة.

كانت الاشكال التنظيمية بعد ١٩٥٠ تجمع بين الشكلين الجغرافي والفئـوي في نفس الوقت، فالشكل الفئوي تبلور في (رابطة طلاب حدتو أو رابطة الطلاب الشيوعيين) وكان على رأس هذه الرابطة (عبد المنعم الغزالي)، أمـا الاشـكال الجغرافية بالقاهرة فكانت (شبرا الخيمة ـ الزيتون) وكانت في الأساس اقسـاما عمالية، وكانت هناك أقسام خاصة بالأحياء الشعبية في مدينة القاهرة (بـولاق ـ السيدة الخ).

وأذا كان الشكل الفئوي للطلاب أصبح قائما حتى بعد ١٩٥٠، فان هنـاك أشكال فئوية انتهت تماما، مثلا (قسم الأزهر) لانعدام العضوية به بعـد ١٩٥٠، أو "القسم النوبي" لانشغال كوادره القديمة (زكي مراد ـ كاتب هذه السـطور ـ محمود نور الدين سليمان جاسر) بالمهام القوية لحدتو أما " قسم الأجانب" فقـد انتهى تماما بعد ان فقد أهميته السياسية، بطرد الأجانب من مصر أو هجرتـهم للخارج بعد حرب فلسطين (مايو ٤٨).

قضية البرنامج واللائحة في حدتو:

كان لحدتو في ١٩٥٠ برنامج ولائحة وكانت النقطة الجوهرية فـي ذلـك البرنامج هي تحديد مرحلة الثورة بأنها ثورة وطنية ديمقراطية موجهة أساسـا ضد الاستعمار وأعوانه من الاقطاعيين والبرجوازيين الخونة، باعتبارها خطـوة أولى وضرورية نحو الثورة الاشتراكية كما تضمن البرنـامج بنـودا خاصـة بتوزيع الأرض على الفلاحين، وتأميم المنشآت الكبيرة وخاصـة ذات الطبيعـة الاستعمارية، إلى جانب المطالب الخاصة بالفئات والطبقات الشعبية المختلفـة، وكانت هناك ـ في البرنامج ـ مطالب خاصة بـالقوات المسـلحة وبالأقليـة النوبية.

أما جوهر اللائحة فكان ان النظرية التي تبنتها "حدتـــو" هـ اللينينية التي تستهدف القضاء الكامل على استغلال الانسان لأخيه الانسا الاشتراكية سعيا للهدف النهائي في بناء الشيوعية على أرض مصر.

وفيما يتعلق بالقواعد التنظيمية التي تحكم عمل "حدتو" كانت اللائحة تنص على خضوع الأقلية للأغلبية، وخضوع الهيئات الدنيا للهيئات العليا، وخضوع المنظمة كلها لمركز واحد (المؤتمر العام واللجنة المركزية) وإدانة التكتلية والانقسامية في المنظمة.

وكانت اللائحة لا تقر مبدأ الانتخاب للهيئات العليا من الهيئات الدنيا، ولا انتخاب الهيئات لمسئوليها السياسيين (باستثناء اللجنة المركزية) وكانت تأخذ بمبدأ التعيين للهيئات الدنيا والمسئولين وإدانة التكتلية والانقسامية في المنظمة.

وقد طبع البرنامج واللائحة في مرحلة مبكرة من حياد حدتو في ١٩٥٠، إذ شاركت شخصيا مع (يوسف مصطفى) في طبعهما في منزل أحد الرفاق الذين انضموا في حدتو من مجموعة (جات).

اذكر هذه الواقعة لطرافتها، فقد فاجأنا ـ ونحن نقوم بالطباعة ـ أحد أقرباء هذا الرفيق الشاب (١٨ سنة)، وكان سن قريبه كبيرا ويبدو انه كان ولي أمر هذا الرفيق.

فاجأنا بالسؤال ماذا تطبعون؟ وكانت اجابة (مصطفى عليه فكاهية وهزلية وغير مقنعة) طلب الرجل كبير السن منا أن نحزم امتعتنا (جهاز الطباعة والأوراق) ونرحل فورا، ولم نكن نملك غير التنفيذ الفوري، ولا نعرف ماذا تم لرفيقنا صغير السن، فقد انقطع عن المنظمة بعد ذلك.

شبكة الثوريين المحترفين في حدتو:

كانت حدتو في هذه الفترة ـ سيرا علي تقاليدها ـ حريصة على بناء شبكة واسعة من الثوريين المحترفين، تقوم بمهام بناء المنظمة.

لم تكن قيادة حدتو المركزية ضيقة الأفق في هذه القضية، فلم تبني شبكة الثوريين المحترفين لأداء العمل التنظيمي ذو الطبيعة الداخلية، بل سعت في

نفس الوقت إلى بناء شبكة الثوريين المحترفين المخصصين للعمل الجماهيري بنوعياته المختلفة، سواء في مجال حركة السلام، أو الحركة النقابية.

وقد تخصص لهذا الجانب من العمل العلني من الثوريين المحترفين (كمال عبد الحليم ــ محمد على عامر ــ سيد ترك)، كما تخصص للعمل التنظيمي العام والبناء الداخلي من الثوريين المحترفين (سيد سليمان رفاعي ــ يوسف مصطفى ــ فؤاد حبشي ــ محمد شطا ــ سيف الدين محمد صادق ــ ضياء بدر ــ عبد المنعم الغزالي ــ فوزي فام ــ كمال الشلودي ــ وكاتب هذه السطور).

أعضاء حدتو في السجون المصرية:

بعد تصفية المعتقلات في ١٩٥٠ ظل بعض السجناء الشيوعيين المحكوم عليهم بسنوات في السجن كان بعضهم أعضاء في م. ش. م، والبعض الآخر من أعضاء حدتو، أما الجزء القليل فقد كانوا أعضاء في (نحشم) التي اندمجت في "حدتو" بعد ذلك.

كان ضمن هؤلاء المسجونين الشهيدين (شهدي عطية الشافعي ــ محمد خليل قاسم ــ وفؤاد عبد الحليم ــ حمدي عبد الجواد ــ هلال شوارتز ــ مارسيل إسرائيل ــ عبد القادر العايدي ــ فؤاد الدهان ــ محمد حسن جاد "برق" ــ محمد يوسف الجندي ــ شريف حتاتة وآخرين).

ولم تنس حدتو ــ في غمار نضالها الجماهيري ــ هؤلاء الرفاق.

فأولا: انتهزت فرصة إلغاء معاهدة ٣٦، ورفعت عاليا شعار الافراج عن المسجونين الشيوعيين، وفي المظاهرة الصامتة الضخمة التي تحركت في نوفمبر ١٩٥١ من ميدان التحرير واجتازت أهم شوارع القاهرة (سليمان باشا وفؤاد) كانت لافتات الافراج عن الشيوعيين تحتل جزءا هاما من المظاهرة. وكان من المتوقع والممكن الافراج عن هؤلاء لولا حريق القاهرة في يناير ٥٢.

وسيرا علي التقاليد لعبت "حدتو" دورا هاما في تهريب بعض رفاقها من المسجونين (محمد يوسف الجندي ــ الدكتور شريف حتاتة) من يد العدو الطبقي.

اختفيا في القاهرة في بداية الأمر، ثم سافرا خفية للخارج بعد ذلك، ولم يقيما بالخارج للأبد كما يحلو الأمر لبعض الثوريين ذوي الصيحات والصرخات العالية، فقد عاد الدكتور شريف إلى مصر في سنة ٥٣ وظل يكافح إلى ان قبض عليه وحكم عليه بالسجن في ١٩٥٤، أما الجندي فقد عاد لمصر في سنة ١٩٥٦ وظل يكافح إلي أن قبض عليه وحوكم في ١٩٦٠.

ورغم وجود كفاءات فكرية وثقافية من الرفاق في السجون، فان "حدتو" لم تستفد من هؤلاء الرفاق استفادة حقيقية في هذا المجال، وكان هذا نقصا شديدا يستحق النقد.

وكان السبب وراء ذلك، هو ان "حدتو" في تلك الفترة لم تول قضية الدعاية والثقافة الاهتمام الكافي التي تستحقها بسبب الانغماس في النشاط العملي الجماهيري والتنظيمي، كما ان هناك عاملا ثانويا في انعدام الاستفادة بهؤلاء هو تشتتهم في أكثر من سجن بالوجهين القبلي والبحري تنفيذا للخطة التي لجأت إليها السلطات البوليسية آنذاك.

وإذا كانت هناك جهود فكرية رأت النور ـ بعد ذلك ـ مثل الكتاب الذي أصدره الشهيد شهدي عطية الشافعي في ١٩٥٦ بعنوان (تطور الحركة الوطنية في مصر) فلم يكن هذا بتوجيه من القيادة الحزبية، بقدر ما كان جهدا فكريا خالصا من الرفيق (شهدي).

الاجهزة الفنية في حدتو:

كانت "حدتو" تركز معظم اهتمامها على إصدار الصحافة العلنية للمنظمة، وفعلا كانت "لحدتو" في تلك الفترة صحافة علنية تعددت اسماءها من بدايات ١٩٥٠ وحتى حريق القاهرة.

وفي الفترة من ٢٦ يناير (حريق القاهرة) وحتى قيام الثورة في ٢٣ يوليو، كان من المستحيل إصدار صحافة علينة "لحدتو" لانعدام الديمقراطية وغياب الشيوعيين وراء أسوار المعتقلات، ورغم هذا الاهتمام بالصحافة العلنية، فان "حدتو" لم تنس ـ في لحظة ما ـ بناء أجهزة فنية سرية للمنظمة، تصدر صحافتها السرية.

وكانت تلك الأجهزة تتطور ـ حسب تطور قوة حدتو ـ في البداية كانت أجهزة بدائية جدا (رولوهات خشبية، ثم رونيوهات، ثم مطبعة حروف بدائية).

والرفاق الذين ساهموا في العمل على الاجهزة الفنية، أو ساهموا في حمايتها والاتصال بها كانوا (سيد ترك) الذي كان يخفي الجهاز الفني بمنزله المملوك له بالدور الأرضي في المعادي كما ساهم في هذا المجال (محمد محمود) الذي كان يقيم بالزيتون، وفي مرحلة لاحقة كان (توفيق ندا ومحمد سليمان رفاعي "ممدوح" الذي سبق الحديث عنه كعميل للبوليس السياسي، وفي مرحلة متقدمة كان "كمال الشلودي" وملكون ملكونيان من أصل أرمني)، وقد قاما بطباعة بيانات الضباط الأحرار في جهازها الفني، وتم ضبطهما ومحاكمتهما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.

وقد وقعت تلك الأجهزة الفنية في يد البوليس السياسي في فترات مختلفة، أما نتيجة اختراق بوليسي (محمد سليمان رفاعي) أو لحدوث أخطاء شديدة في عمل الجهاز الفني أو في آليات الاتصال به.

وكان (سيد سليمان رفاعي) رغم مسئوليته السياسية عن حدتو يهتم شخصيا بمسألة متابعة الاشراف السياسي والفني على الاجهزة، وقد تم القبض عليه في إحدى القضايا الشيوعية الخاصة بجهاز فني، ومكث في السجن عشرين يوما تقريبا.

اذكر هذه الواقعة بسبب ان (كمال شعبان) أقام ضجة كبيرة حول القبض على (سيد رفاعي) في قضية اجهزة فنية، كان (كمال شعبان) عضوا في السكرتارية المركزية للمنظمة، وكان في بداية تفكيره في الانسحاب من العمل الشيوعي.

ثارت مناقشة حامية بيني وبينه في تلك الفترة حول تلك الواقعة، كان يركز على دراسة أسباب ضبط الجهاز الفني والقبض على (سيد رفاعي) وإيقاف أي عمل قبل إتمام هذه الدراسة.

كانت وجهة نظري لا ترفض الدراسة المطلوبة، إنما كنت أطالب بتحريك دولاب العمل، ثم انتظار الافراج عن المقبوض عليهم، وقد اتخذت هذا الموقف

ولما يئست من إقناعه، تحول لهفي إلى اقتناء بعض الكتيبات المبسطة في الماركسية من مكتب الميدان وقراءتها بشغف جديد.

وكان يمتلك هذه المكتبة (هنري كورييل) وكانت تقع في ميدان مصطفى كامل بالقاهرة، وتقوم ببيع الكتب الماركسية العربية والأوروبية إلى جانب بعض الأدوات المكتبية.

بعد انتهاء فترة المحاضرات تم قبولي كعضو في الحركة المصرية للتحرر الوطني وانضممت إلى خلية شيوعية في معهد القاهرة الديني بالدراسة، وكان ذلك في بداية العام الدراسي ٤٥، ٤٦ وكنت آنذاك في السنة الرابعة الابتدائية بالأزهر، ومنذ ذلك الوقت تحددت هويتي الوطنية في العداء للاستعمار كما تحددت هويتي الاجتماعية والاشتراكية في حب الفقراء دفاعا عنهم ضد اضطهاد الأغنياء والمستغلين.

الخلاف يدب بيني وبين والدي

قبل ان أدخل الأزهر وبعده، كان والدي يعاملني ووالدتي واخوتي معاملة قاسية، وأذكر أنه لم يمر يوم دون ان تضرب العائلة من والدي، أحيانا يبدأ بوالدتي فنتعاطف معها نحن الأبناء فينهال علينا ضربا وأحيانا يبدأ بي أو بأحد أخوتي فتتكرر سلسلة الضرب.

ولا يعبر هذا المسلك من والدي عن كراهية منه لنا، إنما كان نوعا من الاسلوب التقليدي الموروث من الأجيال السابقة في تربية الأولاد ومعاملة الزوجة، وكان اعتقاد والدي ومن عاصروه ان هذا الاسلوب في التربية هو الصحيح ورغم انتهاج والدي لهذا الاسلوب التقليدي في التربية، كان عطوفا إلى أبعد الحدود، وشديد التعلق بي وبأخوتي، وكان يبكي بالدمع إذا تعرض أحدنا لأي طارئ كريه كالمرض.

وهناك تفاصيل كثيرة تعيها ذاكرتي ولا تتسع لها هذه الصفحات .. هذا الوالد القاسي في معاملته لي، تحول إلى أخ أكبر يستمع إلى كلماتي، بعد ان ساهمت في مد الأسرة بأربعة جنيهات شهريا وهو المبلغ الذي كان يعادل مرتبه.

حتى لا يتوقف دولاب العمل، في إطار الاحباط الذي كاد أن يصيب الرفاق في الهيئات الحزبية بعد إعلان نبأ القبض على المسئول السياسي للمنظمة، كان (كمال شعبان) في حالة الاستعداد النفسي للتوقف عن العمل، ولذا لم يكن يهمه توقف العمل في المنظمة.

انتصرت وجهة نظري في النهاية، وتحرك دولاب العمل الحزبي وكان الصوت المرجح، هو صوت الشيوعي السوداني (عوض عبد الرازق) الذي كان يعمل ضمن السكرتارية المركزية " لحدتو" في ذلك الوقت.

لم تكن "حدتو" تكتفي بقدراتها الفنية المحدودة، بل كانت تحتمل الاستفادة بامكانيات أخرى ليست مملوكة لها، كطباعة بعض الكتب في مطابع علنية تجرؤ على القيام بهذا العمل مقابل أجر معين، يكون بالطبع أجرا سخيا لأن المطبعة كانت قوم سرا بهذا العمل الذي يحمل طابع المخاطرة والمغامرة.

كما ان "حدتو" كانت تستعين برفاقتها في الخارج (مجموعة روما) في طبع بعض الكتب وارسالها إلى مصر على دفعات.

وكان هناك فرق شاسع بين تكنيك الطبع المتقدم في الخارج، والتكنيك المتخلف البطئ في مصر.

دور الشيوعيين السودانيين في عملية البناء الداخلي لحدتو:

سوف يقتصر حديثي ــ في الصفحات القادمة ــ عن دور الشيوعيين السودانيين في عملية البناء في الفترة من ٥٠ ــ ٥٢، ومن المعروف ان الجيل الأول من الشيوعيين السودانيين، جيل (عبد الخالق محجوب ــ التيجاني الطيب ــ عوض عبد الرازق) ساهم خلال تواجده في مصر في بناء (ح. م ثم حدتو) واستمرت هذه المساحة حتى ١٩٤٩ تقريبا، حيث عاد البعض من أبناء هذا الجيل إلى السودان، أما باختياره (عبد الخالق محجوب ــ عوض عبد الرازق) لاحتياج العمل الشيوعي في السودان إليهم، وعاد البعض منهم للسودان بأوامر من الحكومة المصرية (التيجاني الطيب ــ عبد القيوم سعد ــ شاكر مرسال ــ تيدي لاركن جيمس ــ عبده ذهب وآخرين) حيث كانوا في المعتقلات والسجون في تلك الفترة جنبا إلى جنب مع رفاقهم المصريين.

عادوا للسودان وبحكم الخبرة التي اكتسبوها في مصر ساهموا في بناء الحركة الشيوعية في السودان (حستو ثم الحزب الشيوعي السوداني).

ومن المعروف ان ح. م ثم حدتو ساهمتا بنشاط في نشأة وتطور الحركة الشيوعية السودانية، وكان هذا النشاط هو التطبيق الحي لشعار الكفاح المشترك وحق تقرير المصير للشعب السوداني، الذي رفعته ح. م.

وقد تميز هذا النشاط والشعار الذي رفعته ح. م ثم حدتو عن نوعين من القوى السياسية في مصر هي حركة البرجوازية المصرية بتجمعاتها السياسية المختلفة التي كانت تطالب بوحدة وادي النيل تحت التاج المصري، وفي الجانب الآخر تميزتا بذلك النشاط عن المنظمات الماركسية المصرية الاخرى التي لم تعط أي إهتمام يذكر لدعم الحركة الشيوعية السودانية حتى بعد نشأتها.

في الفترة التي نعالجها غابت مجموعة كبيرة من كوادر حدتو في السجون والمعتقلات، ووفد إلى مصر الجيل الثاني من الشيوعيين السودانيين للدراسة في الجامعات والمدارس الثانوية المصرية، وكان من ابرزهم (الجنيد علي عمر – عمر محمد إبراهيم وشقيقه علي محمد إبراهيم – وبابكر محمد علي – والدكتور مصطفى السيد)، وقد ساهم هؤلاء جميعا – بدرجات متفاوتة – في بناء حدتو وبالذات بعد ١٩٥٠، فقد كانوا يكافحون جنبا إلى جنب مع الرفاق المصريين، وكما قلت سابقا فان (الجنيد علي عمر) كان عضوا في ل. م حدتو وسكرتاريتها المركزية أما (عمر محمد إبراهيم – وبابكر محمد علي) فقد ساهما بنشاط ضخم في بناء الأقسام ذات الطبيعة العمالية في القاهرة (شبرا الخيمة – منطقة الزيتون) أما (أحمد سليمان – علي محمد إبراهيم – والدكتور مصطفى السيد) فان نشاطهم كان مركزا في أوساط الطلبة (جامعة القاهرة).

فنتيجة هذا النشاط الواسع فقد أمرت السلطات المصرية باعتقال (بابكر محمد علي – عمر محمد إبراهيم) في الهايكستب مع الرفاق المصريين بعد حريق القاهرة.

وبحكم الدور النشيط للرفاق السودانيين في حدتو، وبحكم نشاط حدتو وسط الطلاب السودانيين في مصر، فان مجهودات كثيرة بذلت في تلك الفترة لتدعيم

الحزب الشيوعي السوداني، وقد تجسدت وسائل الدعم في جمع تبرعات وبناء اجهزة فنية، واستقبال الرفاق السودانيين للتدريب لمدد محددة في فروع حدتو.

كانت هناك علاقات متينة بين حستو في السودان وحدتو في مصر، وكانت زيارات السودانيين للقاهرة كثيرة، ولم يشعر أي رفيق سوداني، وهو يزور القاهرة انه بعيد عن أهله وحزبه.

كان التقليد المتفق عليه منذ فترة طويلة، وطبق في الفترة التي ندرسها هو ان أي رفيق سوداني يصل بالقاهرة ينظم اتوماتيكيا في حدتو، وأي رفيق سوداني يجند في القاهرة في حدتو يكتسب العضوية اتوماتيكيا في الحزب الشيوعي السوداني بمجرد عودته للسودان.

وكانت الخطة المتبعة مع الرفاق السودانيين ــ داخل حدتو ــ هي كما كان الأمر في ح. م وحدتو حتى ١٩٤٨ ــ تدريبهم على الأعمال المختلفة وبالذات في المستويات القيادية المركزية والوسطى.

ولا يعني هذا انه لم يحدث سوء تفاهم بين حدتو والحزب الشيوعي السوداني، وتم هذا في واقعتين محددتين:

الأولى: احتجاز (عوض عبد الرزاق) في القاهرة، وتفاصيل هذه الواقعة هي ان (عوض) كان مختلفا مع قيادة الحزب الشيوعي السوداني في بعض المسائل السياسية، وكانت خلافاته والمجموعة الصغيرة التي تسانده ــ في الأساس ــ مع عبد الخالق محجوب باعتباره السكرتير العام للحزب، ويبدو ان (عوض) كان يرى انه الأجدر بقيادة الحزب بدلا من عبد الخالق، وتطور الخلاف السياسي ــ من جانب عوض ــ إلى القيام باتصالات جانبية لاجراء تكتل ثم انقسام في صفوف الحزب.

جاء (عوض) للقاهرة في سنة ١٩٥١ وحاول استمالة قيادة "حدتو" لمواقفه السياسية ومحاولاته التكتلية والانقسامية، لم تكن الاستمالة سهلة ولا متيسرة، فمن ناحية كانت العلاقات بين قيادتي الحزب الشيوعي السوداني وحدتو قوية جدا، وفي نفس الوقت كانت حدتو ــ بحكم خبرتها الذاتية ــ تعادي أية عملات تكتلية أو انقسامية وخاصة بعد تجربة ١٩٤٨.

وناقشت السكرتارية المركزية الأمر، فيما بينها، وطرح عليها خياران لا ثالث لهما، احتجاز (عوض) في القاهرة أطول مدة ممكنة، أو السماح له بالعودة للسودان بما يرتبط بالعودة من مباشرة نشاطه الانقسامي.

ووازنت السكرتارية المركزية بين الاختيارين، وفضلت احتجازه للتقليل من فاعلية نشاطه الانقسامي ولاعطاء فرصة لقيادة الحزب السوداني للقضاء أو التقليل من الآثار السلبية لنشاطه الانقسامي. وتم حصر نشاط (عوض) في القاهرة في حدود القيادة المركزية لحدتو وكان يقدم بعض المساعدات الهامة في مجال الدعاية.

بعد فترة من الزمن، اكتشفنا ان احتجاز (عوض) في القاهرة لم ينل رضاء الحزب الشيوعي السوداني، كما لم ينل رضاء (عوض).

كانت قيادة الحزب الشيوعي السوداني ترى ان احتجازه قلل من إمكانية القضاء النهائي عليه سياسيا وتنظيميا، كما أن (عوض) قد اكتشف بعد عودته للسودان ان ذلك الاحتجاز قلل من فاعلية نشاطه التكتلي والانقسامي ضد الحزب السوداني.

وقد حاولت قيادة حدتو ان تشرح للحزب السوداني نبل مقصدها في الاحتجاز، وقد كان هذا خطأ بالحتم من قيادة حدتو، وسبب الخطأ الأساسي ان حدتو لم تكن لديها خبرة أممية في العلاقات بين الأحزاب والمنظمات الشيوعية فمهما كان الاختيار من جانب حدتو وفوائده، فان الأمر النهائي في تقدير سلامة أي من الاختيارين كان لابد أن يكون موكولا له، وكان الأمر المنطقي ان تنفذ "حدتو" اختيار الحزب السوداني ولو خالفته.

الثانية: كانت مسألة إعادة (أحمد سليمان لعضوية "حدتو") كان أحمد سليمان قد فصل من الحزب الشيوعي السوداني بسبب ادمانه شرب الخمر، وطبقا للتقاليد المتبعة آنذاك كان من المفروض ألا يكون عضوا في حدتو عندما حضر للقاهرة لاستكمال الدراسة الجامعية. ولكن "حدتو" اتخذت موقفا مغايرا لهذا التقليد، منحته عضوية "حدتو" مراعاة لدوره النشيط في الجامعة بين الطلاب السودانيين أو المصريين، ومراعاة لما التزم به من انه سيقلل من شرب الخمر.

هذا الأمر لم يحدث سوء تفاهم كبير بين الحزب السوداني وحدتو بالمقارنة بذلك الذي حدث في موضوع (عوض عبد الرازق).

والدليل على ذلك ان (أحمد سليمان) عاد للسودان، وأصبح من الشخصيات الجماهيرية الهامة وعضوا في ل. م الحزب السوداني ومكتبه السياسي، إلى أن انقسم عن الحزب بعد انقلاب النميري.

***

بدأت فترة جديدة بحريق القاهرة

في ٢٦ يناير ١٩٥٢ كان حريق القاهرة، وبذا انتهت فترة صاخبة من حياة الحركة الجماهيرية المصرية ونضالاتها الوطنية والاجتماعية، كما بدأت صفحة جديدة من نضال الحركة الشيوعية المصرية.

والفترة الصاخبة التي انتهت، هي تلك التي بدأت مع بدايات عام ١٩٥٠ بعد غلق المعتقلات وإزاحة حكومات الأقليات ووصول الوفد للحكم.

وقد شهدت الفترة الصاخبة ــ كما أشرنا سابقا ــ نضالات جماهيرية عظيمة في عدد من المجالات (حركة السلام المصرية ــ محاولات توحيد الحركة النقابية المصرية ــ تعاظم النضال الوطني وإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ــ وبدء الكفاح المسلح في القنال.

وارتبطت تلك النضالات، وتمت في إطار البحث والكفاح عن أشكال للوحدة الوطنية بين القوى السياسية المصرية ومحاولات مد الجسور مع الحركة الجماهيرية الأممية في سبيل الدفاع عن السلام والحيلولة دون نشوب حرب عالمية.

وقد استمر النضال بلا كلل بعد حريق القاهرة ولكن بوتائر مختلفة في الشكل والمضمون عن تلك الوتائر التي سادت في عام ٥٠، ٥١ وأكبر شاهد على ذلك هو التحضير لثورة ٢٣ ليوليو ١٩٥٢.

لقد كان الهدف من حريق القاهرة وقف ووأد كافة النضالات الجماهيرية والوطنية التي شهدت سنوات ٥٠، ٥١.

بهذا شهدت كتابات سياسية مصرية عديدة، وشهدت به كتابات أجنبية أبرزتها كتابات الحزب الشيوعي الانجليزي.

لقد كان أول ضربة توجه في هذا اليوم ــ من القوى الاستعمارية والسراي ــ هو الضربة الموجهة للفدائيين المصريين الذين كانوا يخوضون الكفاح المسلح في محافظات الشرقية والقنال ضد جنود الاحتلال.

وفعلاً بدأ اعتقال هؤلاء الوطنيين ونيران الحريق مازالت مندلعة في القاهرة. وقد شمل أمر الاعتقال كل الفدائيين من الشيوعيين إلى أقصى اليمين.

امتلأت المعتقلات بالشيوعيين ورجال الحزب الوطني والحزب الاشتراكي، وبعض شباب حزب الوفد، وامتد إلى المناضلين من أجل السلام العالمي.

وقد تعثر النضال التوحيدي للحركة النقابية المصرية وهو النضال الذي بدأ مع منتصف عام ١٩٥٠.

وكانت هناك مجموعة بارزة من العناصر البارزة المنتمية للحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) تقود ذلك النضال النقابي التوحيدي.

ومن أسباب حريق القاهرة افشال ذلك النضال التوحيدي فمن المعروف أن المؤتمر العام الأول للجنة التحضيرية لاتحاد نقابات عمال مصر كان سينعقد يوم ٢٧ يناير وكان هدف المؤتمر الرئيسي إعلان تشكيل الاتحاد العام للنقابات في مصر.

واتساقا مع أهداف مؤامرة الحريق، امتلأت شوارع القاهرة بأوراق انيقة الطبع تقول أن الشيوعيين حرقوا القاهرة لمحاولة ابعاد أصابع الاتهام عن المخابرات البريطانية والملك فاروق ورجال السراي عن إشعال الحريق.

ولم تثبت وقائع التحقيق القضائي أن للشيوعيين المصريين يدا في الحريق، بل على العكس من ذلك فان الشيوعيين المصريين وبالذات رفاق حدتو الذين يعملون في النضالات الجماهيرية العلنية هم الذين تصدوا لمؤامرة الحريق وأعلنوا بوضوح إدانتها، فقد أعلنت اللجنة التحضيرية لاتحاد نقابات عمال مصر ــ من خلال بيانها ــ هذه الادانة.

ولم يصدر بيان من حدتو بالادانة في نفس اليوم، فترتيبات إصدار مثل هذا البيان في نفس يوم الحريق كان صعبا بسبب ظروف السرية، إلى جانب أن القيادة المركزية لحدتو كانت منشغلة باتخاذ الترتيبات الأمنية للحفاظ على بعض الكوادر القيادية المركزية والوسطى من ضربات الأمن في ذلك اليوم، وهي الضربات التي بدأت فور إعلان الأحكام العرفية في مساء ذلك اليوم.

حملة اعتقالات مساء ٢٦ يناير

لم تكن الحركة الديمقراطية (حدتو) قد اتخذت أية اجراءات أمنية للحفاظ على كوادرها في يوم كهذا، وخاصة أن مؤامرة الحريق كانت مفاجئة لها ولقوى سياسية أخرى، فلم تكن هناك بيوت أمنية لاخفاء الكوادر، ولم تكن هناك وسائل لتنظيم شبكات اتصال بين الكوادر المختفية، ولم تكن هناك بيوت تعقد فيها الاجتماعات السرية في حالات الارهاب البوليسي.

لم يكن السبب وراء هذا كله هو النضال الجماهيري الواسع الذي تخوضه (حدتو) بل كان السبب الحقيقي هو إهمال هذا الجانب من العمل السري الذي يعالج قضايا أمن التنظيم الشيوعي، والدليل على ذلك أنه لم يكن هناك كادر حزبي متخصص لمعالجة هذا الأمر، مهمته إعداد البيوت السرية الآمنة للاختفاء والاجتماعات.

وتدل التجربة التاريخية أنه كلما تعاظم العمل الجماهيري لحزب شيوعي معين كلما ازدادت الحاجة إلى تدبير هذه الاجراءات الأمنية.

وحتى في يوم الحريق كان هناك تفاوت بين كوادر حدتو في تقدير المصير النهائي لذلك اليوم.

كان هناك شعور خفي وقوي لدى البعض بأن مصير ذلك اليوم سيتحدد في إعلان الحكم العرفي وفتح أبواب المعتقلات بينما كان هناك رفاق آخرون – وبالذات ممن يعملون في النضال الجماهيري العلني – يرون أن البلاد لن تشهد حكما عرفيا، وأن وزارة الوفد لن تقال بأمر ملكي.

كنت من الفريق المتشائم بمصير يوم الحريق، ولذا لم أنم في منزلي بحي الأزهر في مساء ذلك اليوم.

ظللت الليل كله أجوب القاهرة مع صديقي المناضل الشيوعي الشهيد (سيف الدين محمد صادق) هربا من الاعتقال، وكان صديقي (سيف) يعمل في منطقة بحري في تلك الفترة كثوري محترف وبهذه الصفة كان أحد المسئولين السياسيين عن الكفاح المسلح الذي يخوضه بعض الرفاق من حدتو في منطقة الشرقية والقنال.

وقد ساعد الاجراء الأمني الذي لجأت إليه في إجـــراء بعــض الترتيبـــات الأمنية لاقامة شبكة اتصال مع الرفاق الذين نجوا من نيران الاعتقال مســاء ٢٦ يناير.

بعد الساعات الأولى من شروق شمس ٢٧ ينـــاير عرفــت مـــن بعــض الأصدقاء من الطلبة الأزهريين أن البوليس السياسي هـــاجم مـــنزلي، واعتقــل زميلي (محي الدين محمد طه) القاطن معي في نفس الغرفة، لم يكـــن مطلـــوب اعتقاله، وأقصى ما يمكن أن يقال أنه كان ضحية بحث البوليس السياسي عنـــي في تلك الليلة، فقد تم القبض عليه بهدف الحصـــول منـــه علـــى اعـــتراف أو معلومات تؤدي إلى القبض عليَّ، ساعد على ذلك الشجار الكلامي الذي انفجـــر بينه وبين رجال البوليس السياسي، فقد دافع عني وهـــاجم فـــي نفـــس الوقـــت تصرفات البوليس السياسي.

لم يكن " محي الدين " مجرد صديق، بل كان أزهريا من أبناء النوبة، وكان متعاطفا مع الأفكار اليسارية والشيوعية وان لم يكـــن منخرطـــا فـــي النشـــاط الشيوعي المنظم في ذلك الحين لقد ظل "محي الدين" في معتقل الهايكستب حتـــى صباح ٢٣ يوليو ٥٢ حيث تم الافراج عنه، وقد تقابلت معه في المعتقل وبعـــد الافراج عنه، ولم أشعر في لحظة ما طوال تلك الفترة انه حزن أو ندم على تلك الفترة التي قضاها في المعتقل لمجرد أنه كان زميلي في السكن.

بل على العكس من ذلك، وجدت فيه الشـــجاعة والبطولـــة فـــي مواجهـــة الاعتقال، خرج (محي الدين) من الاعتقال وواصل تعليمه إلى أن حصل علـــى الشهادة النهائية من كلية اللغة العربية بالأزهر، وتدرج في سلك التعليم إلـــى أن كان في ١٩٨٩ وكيلا للوزارة، ومازال يحتفـــظ بروحـــه المرحـــة وابتســـامته البشوشة.

لتلك الغرفة التي هاجمها البوليس السياسي مساء ٢٦ يناير ذكريات، كـــانت في مبنى متهالك بحي الأزهر أمام مباني كليات الأزهر الثلاثة في ذلك الحين.

كان الأزهر يقوم باستئجار هذا المبنى من مالكه ليسكن فيه بعض الطـــلاب النوبيين والسودانيين المنتمين لرواق شمال السودان.

حين كنت أسكن هذه الغرفة، كنت مفصولاً من الأزهر للمرة الثانية بسبب نشاطي السياسي، ومع هذا كنت أسكن بها بحماية من أولئك الطلاب النوبيين والسودانيين القاطنين بالمبنى، وكانوا في غالبيتهم العظمى من ذوي الاتجاهات الشيوعية، بل وكان بعضهم عضوا بقسم الأزهر في (حدتو) ولذا كانت تربطهم بي علاقات صداقة حميمة ذات طبيعة سياسية.

مع الناجين من نار الاعتقال

نجا من نار الاعتقال في تلك الليلة من قادة حدتو الرفابق (سيد رفاعي ــ كمال عبد الحليم ــ أحمد الرفاعي السيد وأحمد فؤاد ــ والسوداني الجنيد علي عمر وآخرون)، ولكن جزءاً هاما من قيادة حدتو المركزية طاله الاعتقال في تلك الليلة، استقر بهم المقام في معتقل الهايكستب بالصحراء، بعد أيام قضوها في معتقل مؤقت فوق مبنى قسم روض الفرج.

وقد ظللت في فترة الهرب من الاعتقال حوال عشرين يوما من ٢٦ يناير وحتى منتصف فبراير ٥٢.

خلال تلك الفترة القصيرة، تقابلت مع (سيد رفاعي) عدة مرات واختفينا معاً في منزل أسرة أحد الطلاب من رفاق "حدتو" في حي باب الشعرية بالقاهرة، وكانت الأسرة تعاملنا بلطف شديد، وتقضي لنا حوائجنا من طعام وشراب وصل حتى إلى غسل الملابس الخاصة بنا، وكانت تصرفاتها تعبر عن شجاعة مصرية أصيلة.

وقد استقر بي المقام مع هذه الأسرة المصرية، بعد أيام عذاب بعد حريق القاهرة، أذكر منها أنني والطالب الشيوعي السوداني (الجنيد علي عمر) فرضنا أنفسنا في سكن بعض الطلاب السودانيين في حي الهرم حينما كان حظر التجول ليلاً مفروضا في الأيام الأولى من حريق القاهرة.

قضينا تلك الليلة دون أن نحس ــ تحت وطأة حماس شبابنا ــ أن تلك المجموعة من الطلاب السودانيين كانت قلقة من تواجدنا معهم في تلك الليلة.